Athar Classics كلاسيكيات أثر

صباح الدين علي

مادونا صاحبة معطف الفرو

ترجمها عن التركية جهاد الأماسي

أثر

صباح الدين علي

مادونا

صاحبة معطف الفرو

رواية

ترجمها عن التركية
جهاد الأماسي



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي Kürk Mantolu Madonna
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من: Telif Haklan ONK Ajans Ltd Sti بمقتضى الإتفاق الخطي الموقع مع دار أثر للنشر والتوزيع.

الطبعة الأولى

2015 / 1436

ردمك: 6 - 341 - 883 - 993 - 978



المملكة العربية السعودية- الدمام

تلفون : 00966505774560

الموقع الالكتروني : www.darathar.net

Email: info@darathar.net

بما أن هذه الترجمة تعد أول تجربة لي أود أن أتقدم بالشكر للصديق العزيز راضي الشمري على تحفيزه لي وإلهامه لي بفكرة خوض التجربة. راضي، عاشق الروايات النهم، شكى لي مرة من عدم وجود ترجمة عربية لرواية تركيـة وجدها تترأس قائمتين، أولهما قائمة أفضل الكتب مبيعاً في تركيا رغم نشرها قبل ما يقارب السبعين عاماً. والثانية قائمة أفضل الروايات التركيـة في موقع الكتروني عالمي للقراءة. وطرح علي فكرة ترجمتها ومع إلحاحه أخبرته بأني سأحاول. .وهذه النتيجة بين أيديكم.

أتقدم بشـكري أيضاً لكل من سـاعدني في إنجاز الترجمة مـن الأصدقاء العرب والأتـراك. أخص منهم العزيزة سـتناي جوهر لإيضاحها ما اسـتعصى علي من الكلمات والجمل والرفيق أنس العمري لما بذله من جهد في المراجعة والتحرير.

وبـما أننـي أتممت هـذه الترجمـة في آخر سـنواتي الجامعية فـإني أهديها للرفـاق والأصدقاء الذين جمعتنا فيها الجامعة لسـنوات قصيرة كانت جميلة بهم فقط.

وأخص بالذكر..

هادي فقيهي، وفيصل الشريف، وأنس العمري، وعبدالعزيز المطرفي وأحمد بادغيش، وإبراهيم حسينون، وأنور الحازمي

جهاد الأماسي

صباح الدين علي

ولـد صبـاح الدين عـلي في مدينة كوموجينـة في الإمبراطوريـة العثمانية -والتي تقع الآن في دولة بلغاريا- شباط عام 1907. وقتل عام 1948 في كركلارلي وسط ظـروف غامضة. صباح الدين الـذي تخرج كمعلم في إسـطنبول، وبعـد أن مارس التعليم سـنة كاملة في يوزغات، أُرسـل بواسطة وزارة التعليم إلى ألمانيا في سنة 1928 . وبعد أن عاد في 1930 عمـل كمـدرسٍ للألمانية في أيـدن وقونيا وأنقرة، ثـم كموظفٍ في إدارة النشر، وكنائب مدير في معهد الموسـيقى الحكومي. أسـس في إسطنبول مجلةً سـاخرةً تحت اسم ماكروباشـا. وفي عام 1948 أُلقي القبض عليه بسـبب بعـض كتاباته وسُـجن لمـدة ثلاثة أشـهر. ولكونه تحـت المراقبة الدائمـة أراد الهرب إلى خارج تركيا، ويُقـال بأنه أحد المهربين قتله وهو يحاول التسـلل عبر الحـدود. كتب أشـعاراً، حكايـاتٍ وروايات، وقام بترجماتٍ أيضـاً. نُشر أول ما كتبه في صحيفةٍ عام 1925. وفي ثلاثينات القرن العشرين أدخل صباح الدين نَفَسـاً واقعياً وجديداً للحكاية. برع في حكاياتـه في وصـف معاناة أبطاله وبؤسـهم بأسـلوبٍ متمكن. وفي

رواياته أمسك في مقابل روح الإنسان بمرآةٍ ونظر إلى الواقع من خلالها. في رواياته الثلاث، يوسف الكويوجاكلي (1937)، الشيطان في داخلنا (1940)، ومادونا صاحبة معطف الفرو ثبت طريقته الواقعية للقراء.

بدأ صباح الدين في كتابة رواية مادونا صاحبة معطف الفرو داخل خيمةٍ عندما كان في الجيش للمرة الثانية، ونشرها في البداية مفرّقةً في مجلة االحقيقة في الفترة الواقعة بين نوفمبر 1940 و فبراير 1941 تحت عنوان (حكايةٌ كبيرة).

قد يكون الإنسان الذي قابلته صدفةً صاحب أكبر تأثير علي في حياتي حتى الآن. فرغم مرور أشهر على الحادثة إلا أني لم أفلت من تأثيره علي بعد. متى ما اختليت بنفسي، يعود وجه رائف أفندي الصافي والمبتعد عن الدنيا قليلاً، بنظراته التي تجعلك راغباً في الابتسام لأي إنسان تصادفه في حياتك. لم يكن انساناً مميزاً أو غير إعتيادي، بل كان شخصاً عادياً بلا مزيةٍ مختلفة. كان مثل مئات الأشخاص الذين لايلفتون أنظارنا بينما نمشي في الطرقات كل يوم. من المؤكد بأنه لم يكن في حياته أي شيء يثير الإهتمام لأي إنسان حوله، سواء عرفناه أو لم نعرفه. عندما نرى مثل هؤلاء الأشخاص دائماً مانسأل أنفسنا: (لماذا يعيش هؤلاء الناس ياترى؟ ماذا يرون في العيش؟ أي منطقٍ وأي حكمةٍ تأمرهم بالتنفس والتسكع في كل مكانٍ على وجه الأرض؟). لكننا عندما نفكر بهذه الطريقة فإننا ننظر إلى مظاهر هؤلاء الناس فقط، ولا نفكر بوجود عقولٍ داخل رؤوسهم؛ والتي هي - شاؤوا أم أبوا - محكومةٌ بالعمل والتفكير، ولذلك فكل امرئ منهم له عالم كامن في داخله ولانحس به. ربما لو أننا نظرنا إلى دواخلهم التي لا تظهر لنا، ووقفنا موقف الحكم مما يعيشونه داخلياً، لو أثار هذا العالم المجهول فضولنا، فلربما رأينا أشياء لم تكن نتخيلها أبداً وأصبحت مقابلتنا لأغنياء النفوس ممكنة. لكن الناس - ولسببٍ ما - يفضلون ما ألفوه

وعرفوه مسبقاً على مايمكن أن يكتشفوه. أن تجد بطلاً له من الشجاعة مايكفي للنزول في بئر يحوي تنيناً في أسـفله لَهُوَ أسهل من إيجاد شجاعٍ مسـتعدٍ للنزول إلى بئر مجهول الأعماق. حتى أنا لم أعرف رائف أفندي عن قرب، مجرد أثرٍ لصدفة عابرة.

لم أعـرف لماذا فصلوني عن عملي في البنك الصغير بعدما أخرجوني منه. قالوا لي أن القرار كان لأجل تقليل المصروفات، لكنهم وظفوا رجلاً آخر مكاني في الأسبوع التالي. بحثت لمدة طويلة في أنقرة عن عمل. أمّنت لي قـروشي المتبقيـة العيش في شـهور الصيف، لكن الشـتاء الذي كان على الأبـواب حتّم علـيَّ التوقف عن النوم في غـرف الأصدقاء وعلى مقاعد الحدائـق. فليس معـي مايكفي من النقود حتى لأكل أيّ شيءٍ في المطعم الذي ستنتهي رخصته قريباً. ورغم أني أعرف أن نتائجها لن تعلن أبداً، إلا أن عدم إعلان نتائج امتحانات القبول الوظيفية الكثيرة التي دخلتها كان يثير حزني. عندما كنت أتلقى ردهم بالرفض بعد تقدّمي للعمل في المتاجر، ومن دون علم أصدقائي، كنت أتجول يائساً قانطاً حتى أنصاف الليالي. لم أنسَ وضعي البائس حتى عندما كان بعض المعارف يدعونني لطـاولات الشراب بين الحـين والآخر. الغريب في الأمر، أنه ومع تزايد همومـي ووصول حاجتي وفاقتي إلى حدٍ لايحتمل، كان ترددي وخجلي يتناميـان أيضـاً. حتى معارفي الذين سـعوا لأجل إيجاد عمل لي سـابقاً، ورغم أنني لم أرَ منهم معاملة سيئة، إلا أنّي كنت عندما أصادف أيّاً منهم في أحـد الأزقـة أحني رأسي وأحـاول المرور بسرعة. تغـيَّرتُ حتى على أصدقائـي الذين أطعموني مجاناً حين توسـلتهم، وأعاروني نقودهم بلا

تململ. حينما يسألونني «كيف حالك؟»، كنت أرد عليهم مع ابتسامةٍ بسيطة «ليس سيئاً...أتدبر أعمالاً مؤقتة فقط!» وأهرب. كل ما ازدادت حاجتي إلى الناس، ازدادت معها رغبتي في الهروب منهم أيضاً.

في مساء أحد الأيام، كنت أمشي ببطءٍ في طريقٍ يخلو من الناس بين المعرض والمحطة، أسعى لملء صدري بربيع أنقرة البديع من باب زرع التفاؤل في روحي. كل شيءٍ بدا ممتناً لوجوده، ابتداءً من الشمس التي كانت بانعكاسها على زجاج مبنى الإصلاحية تخنق مبنى المرمر الأبيض في ثقوب بلون الدم، مروراً بالدخان الذي يعتلي أشجار الأكاسيا وشتلات الأرز، وذلك الذي كان ضباباً أو غباراً.. لم أعرف ماهو، والعاملون المحدودبون الخارجون بملابسهم المهترئة في صمتٍ من مكان الإنشاءات، والإسفلت المختوم بآثار إطارات السيارات.. كلهم كانوا يشعرون بالامتنان لوجودهم.

كل شيءٍ كان يتم قبوله من الناس كما هو. في هذه الحال لم يكن يبقى لي شيءٌ لأفعله أو أسعى لأجله. بينما أنا هناك مرت من جانبي سيارة مسرعة. عندما التفتُ ونظرت إلى السيارة ظننت أنني أعرف الوجه الذي كان خلف الزجاج. بعد خمس أو عشرة خطوات توقفت السيارة وفُتح بابها. كان صاحب السيارة هو حمدي، أحد أصدقاء المدرسة. أطل برأسه، ثم دعاني.

مشيت بمحاذاة السيارة.

- «إلى أين أنت ذاهب؟» سألني حمدي.

- «لا مكان، أتمشى فقط»

- «تعال ، لنذهب إلى بيتي!»

أخلى لي مكاناً بجانبه دون أن ينتظر جوابي. أخبرني أنه كان عائداً من جولةٍ في مصانع الشركة التي كان يعمل بها.

- "أخبرتهم بالتلغراف أنني قادم، أعتقد أنهم تجهزوا لقدومي. وإلا لم أكن لأجرؤ على دعوتك!" قال حمدي، فضحكت.

لم أرى حمدي منذ فصلت من البنك. اعتدت أن أراه في الماضي كثيراً. كنت أعلم أنه يعمل كسمسار مكائن. وفي نفس الوقت كان مديراً معاوناً يتقاضى مرتباً جيداً جداً في شركة نشاطها يتعلق بالغابات والخشب. لم أطلب مساعدته أثناء بطالتي وبحثي عن العمل لأني ترددت خوفاً أن يظن أني جئت إليه لطلب المال وليس للبحث عن عمل.

- "هل لا زلت تعمل في البنك؟" سأل حمدي.

- "لا، تركت العمل هناك."

تعجب: «إلى أين ذهبت؟»

أجبته على مضض: "لا مكان محدد."

تفحصني بنظراته من رأسي إلى قدميّ، نظر إلى ملابسي، لا بد أن يكون قد ندم على دعوته إياي لمنزله. ربّت ودياً على كتفي مبتسماً وقال: "سنتحدث في المساء ونجد حلاً، لاتقلق!".

كان يبدو واثقاً من نفسه ومسروراً من حاله، ذلك يعني أنه وصل إلى درجة رفاهيةٍ تسمح له حتى بمساعدة معارفه.. حسدته. كان يسكن في بيتٍ صغير ولكنه لطيف، و له زوجة دميمةٌ قليلاً ولكنها قريبة من القلب، قبلوا بعضهم بجانبي من دون أي حرج. تركني بعدها حمدي

وحيداً وذهب للاغتسال. بقيت متسمّراً مكاني وسط غرفة الضيوف من دون أن أعرف ماذا علي أن أفعل لأنه لم يعرفني على زوجته. كانت زوجته تتفحصني خلسة وهي واقفةً بجانب الباب. فكرت لمدة، غالباً أنه غاب عن ذهنها قول "تفضل، اجلس" . لكنها خرجت بعد أن ارتأت أن لا لزوم لفعل ذلك.

فكرت في سبب إكرام حمدي لي. وهو نفسه حمدي الذي لم يكن مهملاً في يوم من الأيام، والذي كان اهتمامه وحرصه الزائدين سبباً كبيراً لمعظم نجاحاته. كان من أحد العادات الأساسية للرجال الذين ينتقلون لمواقع مهمة تجاهلهم لأصدقائهم القدامى، والأقل منهم درجةً بالذات. وحتى من كانوا يخاطبونهم في ذلك الزمان ب "أنتم" - احتراماً - صاروا فجأة يخاطبونهم بـ"أنت" . وبكل تواضع وود وحنان أبوي. يقاطعون جمل محدثيهم لطرح أسئلة عشوائية لامعنى لها. ويرون هذا التصرف طبيعياً جداً، بل يفعلونه مع ابتسامةٍ مليئةٍ بالشفقة والعطف. بسبب مواجهتي لكل هذا في الفترة الأخيرة واعتيادي عليه، لم يخطر على بالي حتى أن أغضب من حمدي. فكرت فقط في أن أنهض وأخرج من دون استئذان كي أنقذ نفسي من هذا الوضع. لكن فجأة، جاءت عجوز قروية متحجبةً ومتأزرةً بالبياض، ترتدي جوارب مرقعة وقدمت لي القهوة دون أن تصدر أي صوت. جلسْتُ على أحد الأرائك المطرزة بالزهور الذهبية ونظرت حولي. حتى على الجدار كانت هناك صور فنية وعائلية، وفي الركن كان على مايبدو أنه رف كتب للسيدة، بالإضافة إلى عدة مجلات موضة مع بعض الروايات الرخيصة. تحت قاعدة السجائر

كانت هنالك عدة ألبومات يبدو أنها بُعثرت بفعل بعض الضيوف. تناولت أحدها لأني لم أعرف ماذا أفعل، وقبل أن أفتحها ظهر حمدي عند الباب، وهو يسرح شعره المبلل بإحدى يديه وبالأخرى يقفل أزرار قميصه الإفرنجي الأبيض.

- "ها، لنر كيف حالك. احكِ لنا." سأل.

- "لاشيء.. أخبرتك يا رجل!".

كان يبدو مسروراً من مقابلته لي مصادفة. من المحتمل أنه كان مسروراً لقدرته على التباهي بالمناصب التي وصل إليها، أو أنه كان مسرورا لأنه لم يكن مثلي، وهو يراني على هذه الحال. لسبب ما، وعندما تحيق مصيبة بأحد الأشخاص الذين كنا نعاشرهم لفترة، ونرى أنواع البلاء والهموم التي وقعت عليهم، فإننا نشعر بارتياح لأنها لم تقع علينا نحن. كأننا بشكلٍ أو بآخر، نريد أن نبدي لهم الشفقة والعطف كنوع من أنواع الشكر، لما تحملوه مما كان من الممكن أن يحصل لنا. كان حمدي يبدو وكأنه يخاطبني بنفس الإحساس. سألني: «هل تكتب؟»

- "أحياناً.. قصيدة، أو حكاية!"

- "هل تعود عليك بفائدة على الأقل؟"

ضحكت مجدداً، قبل أن يقول: «اترك هذه الأشياء ياعزيزي! فشيء مثل الأدب يصبح تافهاً وربما ضاراً خارج صفوف المدرسة، لا يفيدك في حياتك العملية أبداً.» كان يتكلم وكأنه يعطي نصيحةً لطفل صغير، من دون أن ينتظر جواباً أو نقاشاً. لم يكن متردداً لأن يريني أن هذه الجسارة في الكلام هي أحد الأشياء التي اكتسبها من نجاحاته في الحياة، قابلته

بابتسامة بلهاء مناسبة ونظرات مليئة بالإعجاب والتشجيع.
"مرّ عليّ غداً صباحاً"، قال لي. "لنرى، سنفكر في شيءٍ ما. أنت ولدٌ ذكي، أعرف ذلك، لم تكن مجتهداً في عملك، لكن لا أهمية لذلك. الحياة وضروروياتها تعلم الإنسان الكثير. لاتنسَ، تعال مبكراً وقابلني!". كان يبدو ناسياً بينما يقول هذا الكلام أنه كان من أكسل الكسالى في المدرسة، أو أنه كان يتكلم براحةٍ تامةٍ لعلمه بأني لن أواجهه بهذه الحقيقة هنا.
تحرك كأنه على وشك النهوض، نهضت حالاً ومددت يدي:
- "اسمح لي!".
- "لماذا عزيزي؟ مازال الوقت مبكراً... لكن أنت ادرى! كما تريد."
نسيت أنه قد دعاني للطعام. تذكرت ذلك في هذه اللحظة، يبدو أيضاً أنه قد نسي ذلك. اتجهت بوجهي إلى الباب وأنزلت قبعتي وقلت: «تحياتي إلى السيدة!»
- "حسناً حسناً، مرني غداًا ولا تقلق عزيزي." قالها وهو يربّت على ظهري.
لم يكن الظلام شديداً عندما خرجت، كانت مصابيح الإنارة مشتعلة. أخذت نفساً عميقاً، مع أن الهواء كان مختلطاً بالغبار إلا أنني أحسست أنه كان نظيفاً جداً ومنعشاً. فمشيت ببطء.
في اليوم التالي، وقبل الظهيرة، ذهبت إلى شركة حمدي. رغم أنّي عندما خرجت من بيته البارحة لم أكن أنتوي العودة إليه مجدداً. لم يكن هناك وعد صريحٌ على أي حال. "لنر، سنفكر في شيء، سنفعل شيئاً!". أحسست به كأي ردٍ اعتدت أن أسمعه عندما كنت أبحث عن عمل. لكنني رغم ذلك ذهبت إليه. كان في داخلي أكثر من مجرد أمل. لسببٍ

ما، كانت عندي رغبة في أن أرى نفسي مُهاناً. كنت أريد أن أقول لنفسي: "مساء البارحة أنصتَّ دون أن تصدر أي صوت، وارتضيت لنفسك أن يعاملك كوليّ نعمتك. لنر ماذا سيجلب كل هذا، تستحق ذلك."

أخذني الخادم أولاً لغرفة صغيرة وجعلني أنتظر. عندما دخلت إلى حمدي وجدتني أبتسم نفس ابتسامة البارحة البلهاء وغضبت من نفسي أكثر. كان حمدي مشغولاً بكثير من الموظفين الداخلين والخارجين، والعديد من الأوراق الموضوعة أمامه. أشار لي برأسه إلى كرسيٍّ واستمر في عمله. جلست من دون أن أجرؤ على مصافحته. أصبحت أراه الآن كمديري فعلاً، بل أحسست وبدهشة أنه ولي نعمتي، وبأنني أستحق كل هذه المعاملة الوضيعة. صديق المدرسة القديم الذي أخذني في سيارته البارحة والموقف الذي حصل لنا خلال ما لا يزيد عن اثنتي عشرة ساعة! تلك العوامل المنظمة للعلاقات بين الناس، كم هي مثيرة للضحك وسطحية وفارغة، وعلاقتها بالإنسانية ضعيفة جداً.

لم نتغيّر أنا وحمدي عما كنا عليه من مساء البارحة، في الحقيقة كنا كما نحن في السابق. ورغم ذلك، ساقتنا الأشياء التي عرفها عني، والأشياء التي أعرفها عنه، وبعض الأشياء العائدة لبعض التفاصيل الصغيرة، إلى اتجاهاتٍ مختلفة. الغريب في الموضوع، أن كلانا كنا قابلين بهذا الإختلاف ونجده طبيعياً. غضبي لم يكن على حمدي، ولا على نفسي، بل على وجودي هنا فقط. عندما خف ازدحام الغرفة، رفع صديقي رأسه وقال: "وجدت لك عملاً!". ثم زاد وهو ينظر إليّ بتلك النظرات الواثقة: "أعني أني أوجدت لك عملاً، ليس بالعمل المتعب. ستتابع

بعـض الأعـمال في بنكنـا وفي بعـض البنـوك الأخـرى. مثـل موظـف الاتصـال بين الشركـة والبنـوك. وفي أوقـات فراغك تجلـس بالداخل وتقوم بأعمالك الخاصة، اكتب الشـعر كما تريد. لقد تكلمت مع المدير، وسوف نعيّنك. لكننا لن نعطيك الكثير في الفترة الحالية: أربع وخمسون ليرة. ستزيد مع الوقت طبعاً. هيا! بالتوفيق!".

مد يده إليَّ مصافحاً قبل أن ينهض. نهضت وشـكرته. كان هناك سرورٌ ودّي يتبدى في وجهه بسبب ما فعله لي. لم يكن حمدي بالشخص السيء، لكـن ربما كان مايفعلـه في الحقيقة من مقتضيات العمـل الذي يقوم به.

عندما خرجت وقفت في الردهة لمدة من الزمن، وترددت بين أن أدخل الغرفة التي أشـار عليّ بأن أذهب إليها وبين أن أترك المكان وأخرج. ثم ببطء، ورأسي منحنٍ للأمام، مشـيت عدة خطوات وسـألت أول خادم صادفتـه عن غرفة رائف أفندي. أشـار لي الخادم بيده إلى باب غير محدد وذهـب. توقفت مجدداً. لماذا لم أكن قـادراً على ترك المكان والخروج من المبنى؟ ألا أسـتطيع التضحية بأربع وخمسـين ليرة شـهرية؟ أو ربما لأني خائـفٌ أن يكـون تصرفي معيباً أمام حمدي؟ لا! كانت الشـهور الطويلة لبطالتـي، وعدم معرفتي أين أذهب إذا خرجت من هنا وأين سـأبحث عن عمل، ووقوعي الحالي ببراثن الإحباط.. كان كل ذلك هو ماجعلني أبقى في هذه الردهة المظلمة وأنتظر خادماً آخر.

أخيراً، وصلت إلى الباب ورأيت رائف أفندي في الداخل. لم أكن أعرفه من قبل. ورغم ذلك عندما رأيته منحنياً على مكتبه عرفت فوراً أنه هو. فكـرت لاحقاً بمصدر هذه القناعة. قال لي حمـدي: "وضعنا لك مكتباً

في غرفة مترجم الألمانية رائف أفندي، رجل بسيطٌ وهادئ، مشغول بنفسه، ولا يصيب ضرره أحداً". رغم أن الجميع يستخدم لقب سيد و سيدة هذه الأيام، إلا أنهم مازالوا يستخدمون لقب أفندي عندما يتحدثون عن رائف[1]. يحتمل أن يكون ذلك اللقب هو ماجعلني أتخيل رجلاً غير الرجل ذي الشعر المجعد، والنظارة الدائرية والذقن غير الحليقة الذي أراه امامي. وهذا ماجعلني أدخل من دون تردد. رفع رأسه ونظر إليَّ بعيون متفحصة.

- «أنتم رائف أفندي، أليس كذلك؟»، سألته.

نظر إليّ متفحصاً لفترة، ثم قال لي بصوت خفيفٍ ومرتبك:

- "نعم أنا هو! وأنتم الموظف الجديد؟ على كل حال تفضلوا. أهلاً وسهلاً."

جلست على الكرسي. بدأت بالنظر في بقع الحبر الباهتة والرسومات على مكتبي. وكما هو المعتاد عندما يجلس المرء مقابل شخصٍ غريب، بدأت وبعيون متلصصةٍ أدقق النظر في زميل غرفتي رغبةً في تكوين الإنطباع الأول والخاطئ بطبيعة الحال عنه. لكنه عندما لم يشعر بمرادي هذا، وعندما أطرق مجدداً وعكف على إكمال عمله، أحسست بأنه كان مشغولاً لدرجة أنه لم يحس بوجودي.

استمر الحال هكذا إلى الظهر. أصبحت الآن أسرح بعينيَّ بكل حريةٍ

---

(1) ألغي استخدام الكثير من الكلمات العثمانية مع إنشاء الجمهورية التركية الحديثة، وأفندي من بينها وهو لقب عثماني بمعنى السيد ويطلق على المتعلمين في الأغلب. - المترجم.

في الشخص المقابل لي. بدأ يزيل قبعته عن شعره القصير. كان يمد يده إلى تجاعيده، والتي تمتد من أسفل أذنيه الصغيرتين إلى نحره. يتمشى بأصابعه الطويلة والنحيلة بين الأوراق، ويقوم بالترجمة من دون كلل. بين الحين والآخر، عندما يفكر في كلمة لم يجدها ويرفع عينيه فتلتقي نظراتنا، كان يحدث شيء في وجهه يشبه الإبتسامة. ورغم أنه يبدو كبيراً في السن، إلا أنه عندما يبتسم كانت تبدو على وجهه تعابير طفولية بريئة. كانت شواربه الصفراء والمحددة من الأسفل تزيد من قوة هذه التعابير. عندما كنت ذاهباً لتناول الطعام قبل الظهر، ومن دون أن يصدر ضجة، أخرج من أحد أدراج مكتبه حافظة طعام وخبزاً ملفوفاً بالورق. قلت له "بالعافية" وخرجت.

رغم أننا كنا جالسين مقابل بعضنا لأيام، إلا أننا لم نتكلم في شيء. كنت قد تعرفت على كثير من الموظفين في الخدمات الأخرى، وبدأت في الخروج معهم إلى القهوة لنلعب "الطاولة". علمت منهم أن رائف أفندي أحد أقدم الموظفين في المؤسسة. وقبل تأسيس الشركة، كان مترجماً في البنك الذي ترتبط الشركة معه الآن، لا أحد يتذكر متى غيّر عمله. يُقال أنه يتقاضى ما بالكاد يكفيه ويكفي عائلته الكبيرة. وعندما يسأل أحد عن سبب عدم زيادة راتبه، رغم خبرته ومدة خدمته وعمله في شركة تتقاضى الكثير من عملائها، كانوا يقولون: "لأنه أحد الخرفين، لايُعرف حتى إن ما كان متقناً لأي لغة".

علمت لاحقاً بأن ألمانيته كانت جيدة للغاية وأن ترجماته كانت جميلة وممتازة. كان يستطيع ترجمة رسائل عن الرماد، وخشب التنوب، وأنواع

مكائن الحفر وقطع غيارها القادمة من ميناء يوغوسلافيا بسهولة. وكان مدير الشركة يضع الوثائق التي تخص الشروط والعقود التي ترجمها رائف من التركية إلى الألمانية في أماكنها، من دون أن يدقق فيها حتى. كان في أوقات فراغه يفتح درجه ويقرأ بكل تركيز كتاباً من دون أن يخرجه من الدرج، رأيته مرة وسألته "ماهذا؟ يارائف بك؟". غضب وكأنه ضبطني وانا أفعل شيئا قبيحاً وقال متلعثماً: "لاشيء... رواية ألمانية!" وأقفل الدرج فوراً. رغم كل هذا إلا أن لا أحد في الشركة كان يعطي احتمالاً حتى لمعرفة رائف بلغة أجنبية. ربما كان معهم حق، لأن حاله وتصرفاته لم تكن تدل على شخص يعرف لغة أخرى. لم يسمع أحد كلمة أجنبية تخرج من فمه، أو كلمة تدل على معرفته بلغة أجنبية. ولم يرَ أحد صحيفةً أو منشوراً أجنبياً، لا في يده ولا في جيبه. في الخلاصة، لم يكن ممن يصرخون معلنين بمثل جملة "أنا أعرف لغة إفرنجية!". تكتّمه على معرفته وعدم مطالبته بزيادة راتبه، وعدم بحثه عن عمل يدر له أجراً أكثر، قوّت هذه القناعة عنه.

***

يأتي صباحاً على الوقت تماماً. وفي وقت الراحة يأكل في غرفته. وفي المساء، يعود إلى بيته بعد أن يشتري بعض الأغراض البسيطة. ورغم دعوتي له مراتٍ عديدة إلا أنه لم يوافق على المجيء إلى المقهى. كان يقول "إنهم ينتظرونني في البيت!". فكرت في نفسي، لابد أنه أبٌ لأسرةٍ سعيدة، يقدّم الذهاب إلى أسرته وأطفاله على أي شيء. ثم عرفت بعد

ذلك أن الأمر لم يكن كذلك، لكنني سأشرح ذلك لاحقاً. لم يحمه جهده ومثابرته من أن يكون محتقراً في محيط عمله. فلو وجد حمدي خطأ مطبعياً صغيراً حتى، فإنه يستدعي رائف المسكين على الفور. وأحياناً يأتي إلى الغرفة وهو يغلي غضباً. صديقي الذي كان دائماً محتاطاً في التعامل مع الموظفين الآخرين، والذي بالتالي يخاف من تلقي رد سيء من أحد هؤلاء الشباب الذين لايحابون أحداً، يعامل رائف أفندي معاملةً سيئة لأنه يعرف عدم قدرته على الرد أبداً. لم أستطع الفهم من طريقة صراخ حمدي الذي يُسمعه كل من في المبنى، ووجهه المحمرَّ بسبب أن ترجمة ما تأخرت لساعاتٍ قليلة إلا التالي: ما المشكلة في أن يجرب إنسان قدرته وصلاحياته اللذيذة المسْكرة على أبناء جنسه؟ ولكن لكي ينال فرصة أداء مثل تلك الحركة، عليه عمل بعض الحسابات الدقيقة، وألا يمارسها إلا مع أشخاصٍ محددين.

كانت صحة رائف تعتلّ بين كل فترة وأخرى ولا تسمح له بالمجيء إلى العمل. غالباً ماتكون مجرد نوبات برد عادية، لكن الإلتهاب الرئوي الذي قال أنه أصابه قبل عدة سنوات جعله محتاطاً أكثر. فأصبح مع كل نزلة برد بسيطة يقفل على نفسه في البيت فوراً. وعندما يخرج كان يرتدي طبقات كثيرة من الملابس وعندما يكون في مقر العمل لا يدع أحداً يفتح النافذة أبداً، وفي المساء لا يخرج قبل أن يرفع ياقة معطفه إلى مستوى أذنيه. لكنه لم يكن يهمل عمله حتى في أوقات مرضه. فقد كان يأمر البواب أن يأتي له بالنصوص التي عليه أن يترجمها، ويبعث بالترجمة مع نفس البواب بعد عدة ساعات. ومع ذلك كنت أرى في

تعامـل حمدي مع رائف رسـالة يريد أن يقول فيهـا: "انظر، نحن ورغم مرضك ودلالك لم نطردك بعد!".

لم يترددوا يوماً بقذف هذه الجملة في وجهه مرةً بعد أخرى. وعند ظهوره في العمل بعد كل غياب يسـتمر أيامـاً، كانوا يقابلونه بـ" كيف حالك؟ إن شـاء الله هـذه آخر مرة يارجل؟!" على سـبيل التهكـم، يقصدون بها مضايقتـه. ومـع كل هذا، بـدأت أنا أيضـاً بالضجر من رائـف أفندي. لم أكـن أتواجـد في الشركة كثيراً. دائـماً ما تجولت حاملاً شـنطة أوراقي بـين البنـوك والدوائر الحكوميـة، وأحياناً أمـر بمكتبي لتنظيـم أوراقي وعرضهـا على المدير أو نائبه. اقتنعت بأن هـذا الجالس قبالتي، معدوم الحركـة لدرجة الشـك بكونه مخلوقاً حياً، الذي يترجـم أو يقرأ "روايته الألمانيـة" مـن درجه، اقتنعت بأنـه مخلوق ممل عديم المعنـى حقاً. كنت أفكـر بـأن لاشيء يحدث في داخله كالذي يحدث للأشـخاص الآخرين ويجعلهم يرغبون بالتعبير للناس، هناك كمية صمت وسكون في داخله تجعله لا يختلف عن أي نوع من النباتات، هكذا كنت أفكر. يأتي إلى هنا مثـل آلة. يـمارس عمله، وبعـادةٍ لاأفهمها يقرأ عدة كتب، ثم في المسـاء يشـتري بعـض الأغراض ويعود إلى منزله. يحتمـل أن يكون المرض هو الاختـلاف الوحيد الـذي يحصل في أيامه المتشـابهة، بل في سـنينه. على حسـب كلام الأصدقـاء، لم يتغير عن هذا المنوال منـذ عرفوه. لم يره أي أحد في يوم من الأيام مهتاجاً بأي شـكل من الأشـكال. كان يقابل كل اتهامات وافتراءات رؤسـائه بنفس النظرة الصامتـة الهادئة والخالية من أي تعبير. وفي أحيانٍ أخرى، كان يشكر ويبتسم نفس الابتسامة عديمة

المعنى عندما يستلم أو يسلّم ترجماته من وإلى الكاتب.

في يوم من الأيام، وبسبب عدم إعطاء طابعات الآلة الكاتبة لرائف أفندي أي أهمية أو أولوية، تأخرت كتابة أحد الترجمات، فجاء حمدي وصرخ بصوت عنيفٍ جداً:

- "إلى متى سننتظر؟ قلت لك سأكلفك بعمل مهم وأذهب. وإلى الآن لم تحضروا لي ترجمة الرسالة التي جاءت من الشركة المجرية؟!".

رفع رائف رأسه وهو على كرسيه وقال:

- "لقد أنهيتها ياسيد، لكن السيدات لم يكتبنها، لقد كُلّفن بأعمال أخرى!"

- "ألم أقل لكم أن ترجمة هذه الرسالة أهم من أي عمل آخر؟"

- "نعم سيدي، لقد قلت لهن ذلك."

صرخ حمدي بصوت أعلى:

- "انجز عملك بدل أن تجادلني!"

قبل أن يصفق الباب خلفه وهو خارج. ويخرج رائف أفندي بعده إلى الكاتبات ليرجوهن أن يكتبن ترجمته.

بالنسبة لي، فكرت في حمدي الذي كان وسط كل هذه المعمعة، لم يرَ أي حاجةٍ في أن يلقي عليّ ولو حتى نظرة. دخل مترجم الألمانية للمكتب مرة أخرى، جلس على مكتبه وأحنى رأسه كالعادة. كان في وجهه سكونٌ يقود الإنسان للحيرة والغضب. تناول قلم رصاص وبدأ في الخربشة على الورق. لم يكن يكتب، بل كان يرسم أشياء عديدة. لكن هذا لم يكن تصرف رجل غاضب يحاول إلهاء نفسه بأي شيء. كنت شبه

متأكد من أنني أرى في طرف شفتيه، وتحت شواربه الصفراء ابتسامة الواثق من نفسه. كانت يده تتحرك بسرعة فوق الورق، وبين الفينة والأخرى كان ينظر أمامه بتركيز. كنت ومن ابتسامته الغير واضحة أستنتج أنه راضٍ عن مايراه أمامه. أخيراً، ترك قلمه جانبا وبدأ ينظر في الورقة لمدة طويلة. كنت أراقبه دون أن أغمض جفني. تفاجأت هذه المرة عندما رأيت على وجهه تعابير جديدة مختلفة، في العادة كانت على وجهه تعابير من يتألم ويشفق على شخصٍ ما. لم أكن أستطيع البقاء في مكاني من الفضول. و عندما نويت الوقوف، نهض وذهب لغرفة الكتّاب مجدداً. قفزت بسرعة إلى مكتب رائف أفندي وأخذت الورقة التي كان يخربش عليها. وعندما ألقيت عليها نظرة، تجمدت من الذهول. كنت أرى حمدي مرسوماً ورقة بحجم الكف على الورقة. رسمة تبدو بسيطة لكنها تحمل هوية حمدي، رائعة وكأنها لفنان خبير. لم أكن أظن أن أحداً آخر كان ليلاحظ الشبه بينها وبين حمدي. حتى لو تفحصتها جيداً، فربما لا تجد أي شبه. لكن لم تكن هناك إمكانية أن يخطئ من رأى حمدي يصرخ أمامه في وسط الغرفة قبل قليل. هذا الفم المستطيل والمفتوح بحيوانية وحِدَّة، والعينان اللتان كانتا كعيني من يريد أن يحفر ما أمامه بنظراته، إلا أنهما مرسومتان وكأنهما مختنقتان بالعجز، الأنف ذو المنخرين المتدليين بشكل مبالغ فيه، يصبغ وجهه بوحشية أكبر.. نعم، كانت هذه رسمة تصف حمدي الذي كان قبل قليل هنا تماماً. لكن لم يكن هذا هو سبب ذهولي فقط: فأنا ومنذ بداية عملي في الشركة، أعني قبل أشهر، وأنا أصدر الأحكام على حمدي عندما كنت

أتحدث مع الآخرين.

كنت أحاول أن أعذره بعض الأحيان، لكن في مرات كثيرة كنت أستحقره وأستخف به. كنت أخلط بين شخصيته الأصلية وشخصيته التي أعطاها له منصبه في العمل، وأقع في مأزق عندما أحاول أن أفصلهما تماماً من جديد. هكذا، كان رائف أفندي برسمه وإخراجه لحمدي بهذه الطريقة هو رائف الذي كنت أتمنى رؤيته منذ زمن طويل ولكن لم أره. رغم وجهه البدائي والمليء بالوحشية إلا أن هناك جانباً فيه يثير الشفقة. لم يُعرض الظلم والبؤس معاً في أي مكان آخر بهذا الوضوح. وكأنني كنت أتعرف على صديقي لأول مرة.

في نفس الوقت، وضحت لي هذه الرسمة أيضاً حقيقة رائف أفندي. فهمت وقتها تماماً سبب سكونه الذي لا يتزعزع، وطريقة تحمله الغريبة لتصرفات الآخرين. هل هناك مايمكن أن يثير شخصاً يعرف مايدور حوله جيداً، ويرى ما يضمره الآخرون في دواخلهم بوضوح، لأن يغضب ويهتاج على أي أحد؟ رجل مثل هذا، ماذا كان يستطيع أن يفعل بكل هذه المعرفة غير الوقوف أمام المتشنجين مع كل صغرهم كصخرةٍ لا تهتز؟ كل استنتاجاتنا وانكساراتنا وغضباتنا كبشر هي من الجوانب الغير متوقعة والغير مفهومة للحوادث التي تحصل أمامنا. هل بالإمكان مفاجأة وهزُّ إنسان مستعدٍ لكل شيء ويعرف ما سوف يفعله أي أحد؟

بدأ رائف أفندي يأخذ طبيعة الرجل الذي يثير فيَّ الفضول مرة أخرى. بدأت، ورغم مسحة الضوء التي ظهرت قبل قليل، أشعر بوجود تباينات بشأنه. لم يكن يبدو أن يده هي من خلقت هذه الإصابة الدقيقة

والحماس في رسـومات الورقة التي أحملها في يدي كهواية. كان يلزم أن يكون من رسم هذه الرسومات شخصاً مارس الرسم لسنوات عديدة. لم تكـن مجـرد عينان تريان ما تنظران إليه فعـلاً، بل كانت له مهارة تضع كل التفاصيل الصغيرة التي تراها عيناه على الورق.

فُتـح البـاب. حاولت إعادة الورقـة بسرعة إلى مكتبـه، لكنني تأخرت. قلـت لرائف أفنـدي الذي يقترب نحـوي مباشرة حامـلاً ترجماته التي أنجزها بلهجةٍ اعتذارية:

" رسمةٌ جميلة جداً."

ظننت أنه سـيتفاجأ، أو يخاف من إفشائي لسره. لم يحدث ماتوقعته أبداً. قال وهو يأخذ الورقة من يدي، وبنفس الابتسامة الغريبة السارحة:

- "قبل سـنوات مضت، اشتغلت مدة بالرسم! أصبحت عادة لدي أن أخربـش على الورق بـين وقت وآخر. كما ترى يارجل، أشـياء عادية لا معنى لها. كسر للرتابة فقط."

جعد الورقة بيديه قبل أن يلقيها إلى سلة الورق. ثم تمتم بينه وبين نفسه: « يبـدو أن سـيدات الآلة الكاتبـة أنجزن عملهن بسرعـة! هناك أخطاء مطبعيـة بطبيعـة الحال، لكن حمدي سـيغضب لـو قرأتها لـه. معه حق. سآخذها له..»

خرج مجدداً. تابعته بعينيّ. كنت أردّد بتهكم: "معه حق! .. معه حق!" بعـد ذلك، بدأ رائف أفنـدي وبرغم كل حركاته المملـة وعديمة المعنى يثـير فضـولي من جديـد. أصبحت أحـاول انتهـاز أي فرصـةٍ تتاح كي أتكلم معه أو أعرف عنه شـيئاً يكشـف لي المزيد عن هويته. هو بدوره لم

يبد أنه كان يلاحظ ذلك. كان يعاملني بطيبة، لكنه كان أيضا يحافظ على تصرفاته التي تترك مساحة فاصلةً بيننا دائماً. على قدر ماتتطور صداقتنا ظاهريـاً، إلا أن داخله كان دائـماً مقفلاً بوجهي. ازداد اهتمامي وفضولي بـه جداً عندما رأيت عائلته ووضعهم بين بعضهم عن قرب. كان وبعد كل خطوة أقترب بها إليه يقابلني بمزيد من الغموض.

عندما دخلت بيته أول مرة، كنت ذاهباً إليه حين كان مريضاً بأحد أمراضه المعتادة. أراد حمدي إرسال ورقة مع الخادم ليترجمها رائف عاجلاً:

- قلت: "سأوصلها أنا، وأزوره بالمرة".

- "حسناً. انظر ماذا به.. لقد زاد الموضوع عن حده هذه المرة"

استمر مرضه لفترة طويلة هذه المرة حقاً. لم يمر على الشركة منذ أسبوع. أعطـاني أحد الخـدم عنوان بيته الذي يقع في حي عصمت باشـا. كنا في أواسط الشتاء. بدأت بالمشي في الأزقة المظلمة مبكراً. مررت في طريقي بأحياء ذات طرقٍ وأرصفةٍ ضيقةٍ ومهترئة لاتشـبه طرقات أنقرة المعبدة بالإسـفلت أبـداً، وخلـف بعضها منحـدرات ومرتفعـات. بعد طريق طويـل، وعند حـدود المدينـة، انعطفـت يمينـاً. وعند دخـولي إلى أحد المقاهـي في طرف الشـارع عرفت البيت. كان ذو دوريـن، يقف وحيداً بين أراض كلها حجارة وتراب، بناء ذو دهان أصفر. كان رائف أفندي يسـكن في الدور الأرضي على حد علمي. قمت برن الجرس. فتحت لي البـاب فتـاة عمرها اثنا عشرة سـنة تقريباً. وعندما سـألتها عن والدها، قالت مع اظهار وجهها لتعبير متكلفٍ وهي تبرز شفتيها تبرماً:

"تفضلوا"

لم يكن ما بداخل البيت كما توقعت أبداً. في الصالة التي كان يستخدمها كصالة طعام كما يبدو، كانت هناك طاولة من النوع الذي يُفتح ويُقفل، وفي الركـن كان هنـاك دولاب صغـير مـلـيء بأطقم الكريسـتال. وعلى الأرضية كانت سـجادة سيفاسـية[1] جميلة، كانـت رائحة الطعام تفوح مـن المطبـخ المجاور للصالة. أخذتنـي الطفلة إلى غرفـة الضيوف أولاً. حتـى هنـا الأشـياء جميلة، بـل وغاليـة أيضاً. أرائـك من قطيفـة حمراء، ومناضد سـجائر قصيرة مصنوعة من خشـب الجـوز، وفي الركن راديو كبـير يملـؤ الغرفـة. في كل الأطـراف، فـوق المناضد وخلـف الأرائك كانـت هناك لوحة معلقة عبـارة عن أركان الإيمان مخطوطة على شـكل سفينة على قماش من الدانتيل السكري اللون.

أحـضرت لي الطفلـة الصغـيرة القهـوة بعـد دقائـق قليلة. عـلى وجهها ولسببٍ ما، كان هناك تعبير مليء بالدلال. كأنها كانت تريد أن تُرى على أنها صغيرة وأن يُمزح معها.

- "أبي مريـض ياسـيدي، لايسـتطيع القيـام مـن فراشـه. تفضلـوا إلى الداخل!"، قالت.

كانـت وهي تقول ذلك كما لو كانت تريد أن تُفهمني بحاجبيها وعينيها أنني لا أسـتحق هذه المعاملـة المهذبة. تفاجأت تمامـاً عندما دخلت إلى الغرفـة التي يرقد بهـا رائف أفندي. هذه غرفة لاتشـبه بقية البيت. مثل مهجـع طلاب تقريبـاً، أو كمثل غرفة في عنبر مستشـفى. بها عدة أسرة

---

(1) نسبة إلى مدينة سيفاس. - المترجم.

بيض بجانب بعضها البعض. يرقد رائف أفندي على أحد هذه الأسِرة، تحت الأغطية البيضاء، كان يحاول إلقاء السلام عليّ من خلف نظارته وهو في وضعية النصف جالس ونائم. بحثت عن كرسي لأجلس. كان الكرسيان الموجودان بالغرفة ممتلئان بخرق من الصوف وجوارب نسائية، بالإضافة لألبسة حريرية مخلوعة وملقاة بعد لبسها. وفي الركن خزانة ملابس عادية بابها نصف مفتوح ومدهون بلون كستنائي، بداخله تنانير وملابس عُلقت بشكل عشوائي، وتحتها أقمشة مطرزة. كانت الغرفة تغمر نفس الإنسان بفوضى غير اعتيادية. وعلى الكومودينة التي بجانب السرير، كان هناك إناء حساء متسخ بقي من الغداء كما يبدو، وإبريق مكشوف داخل صينية مصنوعة من الصفيح، وبجانب كل هذا كانت هناك عدة زجاجات وقناني أدوية.

قال رائف أفندي وهو يشير إلى طرف السرير: "اجلس هنا عزيزي".

جلست. كانت على ظهره سترة ملونة بألوان زاهية، محبوكة من الصوف ومخروقة من المرفقين. رأسه مستند على الهيكل الحديدي الأبيض للسرير. ملابسه معلقة فوق بعضها على هيكل السرير، في الجانب الذي اجلس عليه.

ثم أردف بعد أن لاحظ تفحصي للغرفة:

- "أنام في هذه الغرفة مع أطفالي. يبعثرون الغرفة دائماً. البيت صغير، لا يسعنا.."

- "هل أنتم كُثُرْ؟"

- "نعم، جداً! لدي بنت بالغةٌ في الثانوية. ثم وكما ترون.. أخت

زوجتـي وزوجهـا، وصهرين. كلنـا في نفس البيت. هنـاك طفلا أخت زوجتي أيضاً. مشـكلة السـكن في أنقرة معروفةٌ لك على كل حال. فلا إمكانية لأن تسكن كل عائلةٍ بمفردها."

في هـذه الأثنـاء رن الجـرس مـرةً أو مرتـين، كان يُفهم مـن ضجيجهم وكلامهـم وتصايحهم ببعضهم أن أحد أفراد العائلة قد جاء. فُتح الباب بعـد ثوان. دخلـت البيت امرأة سـمينة في الأربعينات، يتهدل شـعرها المقصـوص حديثاً على وجههـا وأذنيها. انحنت عـلى أذن رائف أفندي وأسرّت له بشيء. بعدها أشار إليّ من دون أن يجيبها وعرفني بها:

- "إحدى ساكني المنزل. زوجتي".

ثـم قـال وهو يلتفت إلى زوجتـه: «خذيها من جيـب معطفي!». في هذه المـرة قالت من دون أن تهمس في أذنه: «يوه! لم آت من أجل النقود، من سيذهب ليشتري.. أنت لم تنهض من مكانك أبداً!»

- "ابعثي بنورتان. فالمكان لايبعد إلا ثلاث خطوات!"

- "كيـف أبعـث بطفلةٍ لم يتجاوز طولها سـاقي إلى البقّـال في هذا الليل والبرد؟! ثم هل تظن أنها ستطيعني وتذهب لو أمرتها؟"

فكر رائف أفندي قليلاً، ثم حرك رأسه كمن وجد الفكرة أخيراً:

- "نعم ستذهـب ستذهـب."، قالها ونظر أمامه.

إلتفت لي بعد أن خرجت المرأة وقال:

- "في بيتنـا حتـى شراء الخبـز يعـد مسـألة. مرضـت فلم يجـدوا رجلاً ليرسلوه."

وكأنها كانت مهمتي أن أسأل:

"هل أصهارك صغار؟". نظر إلى وجهي، ولم يجب؛ بل ترك على وجهه تعبير من لم يسمع سؤالي حتى. لكنه قال بعد عدة دقائق:

- "لا ليسو صغاراً! كلاهما يعملان. موظفان مثلنا نحن الإثنين. وظَّفهم أحدهم في الوكالة المالية لنسيبي. لم يدرسوا، فليس بحوزتهم شهادة مرحلة متوسطة حتى!" ثم قطع كلامه فجأة وقال:

- "هل أحضرتم شيئاً من أجل الترجمة؟"

- "نعم، يجب إنجازها بحلول الغد. سيرسلون خادماً ليستلمها صباحاً."

تناول الأوراق ووضعها بجانبه.

- "لقد قلقت عليك"

- "شكراً لك. طال مرضي هذه المرة بالفعل. لا أستطيع حتى أن أستجمع قوتي وأنهض!"

كان في عينيه فضولٌ غريب. كأنما كان يتحقق من صحة حجتي. ولإقناعه، كنت مستعداً لأن أفعل أي شيء، إلا أن عيناه اللتين رأيتهما مليئتان بالفضول قبل قليل سرعان ماعادتا إلى عادتهما. عينان لا تعبران عن شيء، تصحبهما ابتسامة فارغة من المعنى كالعادة.

استجمعت نفسي ونهضت. عدّل جلسته على الفور ومد يده مصافحاً:

- "شكراً على زيارتكم لي يابنيّ" قال لي.

كان في صوته دفء، وكأنه قد أحس بها في داخلي.

في الحقيقة، نشأت ألفةٌ بيني وبين رائف أفندي بعد ذلك اليوم. لا أستطيع أن أتحدث عن تغيرٍ كبير في تعامله معي. ولا يخطر لي أن

أدّعي أنه أصبح صديقاً حميماً لي حتى، أو أنه أفشى لي عمّا في صدره. كان هو هو، الهادئ الساكن، المنغلق على نفسه. رغم ذلك كنا في بعض الأَمسيات نخرج من العمل سويةً ونمشي حتى بيته، بل أحياناً كنا ندخل إلى غرفة الضيوف ذات الأثاث الأحمر ونشرب فنجان قهوة معاً. لكننا في تلك الأثناء لم نكن نتكلم أبداً، وإذا تحدثنا فإن محور حديثنا لا يتعدى الماء والطقس، أو غلاء معيشة أنقرة، أو سوء حال أرصفة حي عصمت باشا. لم يكن يتعرض في حديثه إلى بيته أو أبنائه إلا فيما ندر. بين حينٍ وآخر كان يقول: "نالت ابنتي أربعين درجةً في مادة الرياضيات مجدداً!" ثم يغير الموضوع فوراً. وأنا كنت أتردد في أن أسأله عن أي شيءٍ بهذا الخصوص. لم تترك أول زيارة لي إليه، ولا مقابلتي لأفراد عائلته أي تأثيرٍ عليّ.

بعد أن نهضت من جانب المريض، وأثناء مروري بالردهة، رأيت شابين كانا يجلسان حول طاولةٍ مع فتاة في الخامسة أو السادسة عشرة من عمرها. كانو يتهامسون ويضحكون حتى قبل أن أدير ظهري إليهم. كنت متأكداً من عدم وجود شيءٍ مضحكٍ بشأني. لكن هؤلاء، مثلهم مثل أي إنسان أجوف في أعمارهم، يعدُّون الضحك في وجه من يصادفونه نوعاً من التفوق عليه. حتى نورتان الصغيرة كانت تبذل جهداً لتحاول التشبه بأختها الكبيرة أو بأخوالها. بعد ذلك، أصبحت أرى نفس الشيء في كل مرةٍ أذهب للبيت. كنت ما أزال شاباً لم يشبع سنواته العشرين بعد، لكن العادة التي كنت أراها عند البعض من جيل الشباب، فضولهم تجاه من لا يعرفونه أو يرونه لأول مرة وكأنه شيء

غريب جدا تثير تعجبي. كنت ألاحظ أن وضع رائف أفندي لا يُعد جيداً جداً، وكونه أيضاً كما لو كان شيئاً زائداً أو لا لزوم له في بيته. بعد ذلك، مع زياراتي المتكررة للبيت، أصبحت صديقاً لكل من فيه من الأطفال. لم يكونوا سيئين أبداً. لكنهم كانوا مخلوقات فارغة وجوفاء فقط. كان ذلك هو سبب تصرفاتهم الغير لائقة. كل مايفعلونه في مواجهة هبوب فراغ دواخلهم هو إرضاء أنفسهم والتعرف عليها من خلال السخرية من الآخرين والاستخفاف بهم واستحقارهم. كنت أنصت لكلامهم. لم يكن لهم عمل في البيت غير اغتياب أصدقاء الموظفين في الوكالة الاقتصادية، جهاد ووداد وزميلات نجلاء ابنة رائف أفندي في المدرسة والتعليق على ملابسهم وغرابة تصرفاتهم وتقليدهم والضحك بشكل هستيري من دون أن يلاحظوا أن نفس التصرفات التي يسخرون منها موجودة فيهم أنفسهم.

- "أرأيتي الفستان الذي لبسته معلّا في حفل الزفاف؟ هاهاهاها!"
- "آه لو رأيتي فقط كيف تجاهَلَت أورهان.. هاهاهاهاي!"

لم يكن لفرهونده هانم، أخت زوجة رائف أفندي أي همّ إلا إيجاد أي فرصة لتترك ابنها ذو الثلاثة أو أربعة سنوات لأختها الكبيرة لتعتني به بدلاً عنها، ثم تتزين على عجل وترتدي فستانها وتخرج. لمحتها عدة مراتٍ وهي أمام المرآة تحاول إدخال شعرها المجعد من دون إفساد التسريحة تحت قبعتها ذات القناع الشفاف. رغم أنها في عز شبابها، وعمرها في الثلاثينات إلا أنها كان لها عددٌ لا يحصى من التجاعيد حول عينيها وفمها. كانت عيناها الزرقاوان كالخرز لا تثبتان على شيءٍ

لأكثر من ثانية، وكانتا أيضاً تعكسان الأرق الداخلي الذي صاحبها منذ الـولادة. كانت تكـره طفليها ذوي الملابس الغير مرتبـة دائماً، والأيدي المتسخة، والوجوه الشاحبة على الدوام، وكأنهم عقابٌ ألقاه على كاهلها عدوٌ لعين. لم تكن تعرف كيف تبعد صغارها كي لا يلمسـوها بأياديهم المتسخة بعد أن تتزين وهي تحاول الخروج.

كان نـور الديـن بـك، زوج فرهونـده هانم ومديـر أحد فـروع الوكالة الإقتصادية نوعاً آخر من حمدي. عمره في الثلاثين أو الواحد والثلاثين، شعره كستنائي مموج كثيف، وممشط بعناية إلى الخلف كمساعديه. كان حتـى بعـد أن يقول "كيف حالك؟" يضم شـفتيه لبعضهما ويهز رأسـه بخفـة وكأنه قد ألقى حِكَماً عظيمة. كان ينظر إلى أي إنسـانٍ وهو يتكلم بعيـون ثابتة، وبابتسـامة في عينيه تقول "يارجل، هـل ماتقوله معقول؟ أنت لا تعرف شـيئاً". بعد أن أنهى دراسـته في تخصص الفنون الجميلة، ولسـبب ما، أُرسـل إلى إيطاليا ليدرس صناعة الجلود، لكنه أيضا تعلم قليـلاً من الإيطالية وكيفية التصرف كرجـل مهم. بجانب ذلك، كانت لـه مزايا مهمة أخرى تفيده للنجاح في حياته: أحدها أنه كان وبكل ثقةٍ يرى المقامات العالية لائقة به، ويشـارك في كل موضوع سـواء كانت له خبرةٌ فيه أو لا، وبشكل مستخف بالجميع بلا استثناءٍ كان يجعل كل من حوله يؤمنون بقيمته، أعتقد أن عادة احتقار الناس انتقلت لأفراد البيت منـه. كان أيضـاً يعتني بمظهـره ومايرتديه: يحلق ذقنـه كل يوم، ويجعل بناطيلـه القديمـة تُكـوى تحت إشرافـه دائماً، ولإيجـاد أكثر حـذاء أناقةً وأجمل جورب، كان ينتظر يوم السبت بلا صبر ليتجول في الأسواق. في

الحقيقة، عرفت لاحقاً أن مرتّبه الذي كان يتقاضاه لم يكن بالكاد ليكفي كسوته هو وزوجته، ولأن الخمس وثلاثون ليرة التي يتقاضاها صهراه لم تكن مباركة، كان رائف أفندي وبراتبه القليل يتحمل كل مصاريف البيت. ورغم هذا كان لكل أفراد البيت كلمتهم المسموعة إلا العجوز المسكين.

كانت زوجة رائف أفندي مهرية هانم قد شاخت قبل أن يصل عمرها الأربعين، اتّحد لحمها المترهل وثدياها المتدليان إلى كرشها بسمنة عجيبة، رغم أنها تقضي كل يومها تطبخ الطعام في المطبخ، وفي أوقات فراغها ترقع جوارب الاطفال وتنتبه لابني أختها المشاكسان، إلا أنها لم تكن تستطيع إرضاء "ساكني البيت". لم يكن أي أحد فيهم يسأل عن كيفية إدارة البيت، لمجرد أنهم كانوا يرون أنفسهم يستحقون حياةً أرقى من تلك التي يحيونها. لم يكن يعجبهم الأكل، يعبسون ويطبقون شفاههم ويبدون عدم امتنانهم من كل شيء. "أي نوع من الطعام هذا!؟"، كان نور الدين بك بسؤاله هذا كأنه يريد أن يقول: "أين تذهب مئات الليرات التي أعطيك إياها؟ أجيبيني بحق الله!". بينما يقول الصهران اللذان يلف كل منهما شالا رخيصا حول الرقبة: "لاأحب هذا الطعام، اسلقي لي بيضة.". أو كلاماً من نوع: "لم أشبع، اقلي لي قطعة سجق على السريع!". لم يخجلوا أبداً من جعل مهرية هانم تذهب الى المطبخ لتحضّر لهم طعاماً آخر من جديد، ثم وعندما يحل المساء وتلزمهم عشرة قروش لشراء الخبز، ولكي لايدفعونها من جيوبهم، كانوا يوقظون رائف أفندي المريض المستغرق في نومه، زيادة على هذا كانوا يتململون ويغضبون من

عدم تحسن صحته وذهابه إلى البقالة بنفسه أيضاً.

في مقابل البؤس الذي كان في المنطقة التي لا يراها الضيوف من المنزل، كانت الردهة وغرفة الضيوف في غاية الترتيب بفضل نجلاء. يبدوا أنهم ارتأوا أنه من المناسب أن يكون هذا الجزء من المنزل كقناع يظهر به أمام أصدقائهم وضيوفهم. لهذا السبب، وبتشاركٍ منهم، أمضوا سنوات وهم يسددون الأقساط لمتاجر الأثاث. مروا بضائقة مالية شديدة، لكن الآن، أطقم القطيفة الحمراء تدفع الضيوف لهز رؤوسهم إعجاباً وتقديراً، والراديو ذو الاثني عشرة لمبة يغمر الحارة بالضجيج. أيضاً، زجاجات الشراب الكريستالية المذهّبة في الدولاب الزجاجي، والتي كان يحضرها نور الدين بك ويتسامر مع أصدقائه بالشرب منها كانت لا تخذله أو تنزل من قيمته بينهم.

رغم تحمل رائف أفندي لكل ذلك العبء، إلا أن وجوده كان مساوياً لعدمه. لم يكن هناك من يبدو أنه يلاحظ وجوده في البيت من أكبر شخص إلى أصغر شخص فيهم. لم يكونوا يتكلمون معه في أي شيء باستثناء حاجيات البيت وموضوع النقود، بل إنهم كثيراً ما يفضلون أن تتوسط مهرية هانم بينهم وبينه. كأنه آلةٌ بلا روحٍ تُترك خارجاً بعد أن تملى عليها الطلبات، وتعود في المساء وذراعها ممتلئة بالأغراض. نور الدين بك، الذي كان قبل خمس سنوات، وقت رغبة رائف بك الزواج بمهرية هانم، لا يترك رائف أفندي في حاله، و يحاول الظهور بمظهر حسن أمام نسيبه المستقبلي وفعل كل ما يرضيه، أصبح الآن وكأنه قد سئم من مجالسة إنسان لا أهمية له في نفس البيت. كانوا يغضبون منه

لعدم زيادة راتبه وتأمينه حياة مرفهة لهم، لكنهم وفي نفس الوقت كانوا يرونه صفراً لا قيمة أو أهمية له أبداً. نجلاء التي كانت تبدو رزينة جداً، ونورتـان التي كانت تدرس في الابتدائية، وباحتمال تأثيرٍ من أصهارهن وخالاتهـن و أخوالهـن شـاركوا أيضاً في نفـس المعاملـة لوالدهم. كان الحـب الـذي يحاولـون إظهاره لـه يبـدو كعمل شـاقٍ يريـدون إنجازه بسرعـة، وعندما يعتنون بـه أثناء مرضه كانوا يُظهرون وبتكلّفٍ شـفقةً مزيفة. لكن زوجته مهرية هانم، التي أصبحت شبه غبية بسبب اهتمامها بالأشغال الشاقة التي لا تخفّ ولو لثانية، وبهمّ لقمة العيش منذ سنوات عديـدة، تشـغل نفسـها في الإعتناء بزوجهـا قدر المسـتطاع، وتحاول أن تفعل ما بوسعها لكي تتفادى استصغار واستحقار أولادها لها.

عندمـا يكـون هنـاك ضيـف في وقـت العشـاء، كانت ولكـي لاتعصي أمـر إخوتـه أو نـور الدين وصراخهـم بصـوت عال:"ليذهب صهري ويشـتري!"، تذهـب إلى غرفـة رائف أفنـدي وبصوت مشـبع بالدلال تقـول لـه: "هيا أحضر لنا من البقّال ثمانية بيضات وزجاجة «راكي»[1]. لاداعي لأن نجعلهم يقومون عن السـفرة!"، لكنها لم تتساءل وزوجها عن سبب عدم جلوسهم في نفس السفرة. لم يفكروا حتى في سبب عدم إحـترام الآخرين لهم، ونظرهم إليهم بنظرات غـير مرتاحة، ولو فعلوا ذلك لأربعين سنة. ربما لم يكونوا يلاحظون ذلك حتى.

---

(1) الراكـي هـو المشروب الكحولي الأشـهر في تركيا منذ أواسـط القرن التاسـع عشر. وأصل كلمة راكي هي «عرق»

كان رائف أفندي يكنّ لزوجته مودة غريبة. بين وقت وآخر يقول مشفقاً على زوجته التي لم تجد منذ شهور وقتاً ترتدي فيه أي شيءٍ غير رداء المطبخ: "كيف حالك ياهانم، هل تعبت اليوم كثيراً؟"، وأحياناً يجلسها أمامه ويتحدثان عن مدارس الأولاد وعن مصاريف العيد المقترب. لكنه لم يكن يظهر في تعامله مع أعضاء الأسرة الآخرين أي علامة تدل على أن هناك مايربطه بهم. أحياناً كان ينظر الى ابنته الكبرى وكأنه ينتظر منها شيئاً جميلاً أو حميمياً. لكن هذه اللحظات كانت سريعاً ما تمر، كأن الفراغ بينه و بين دلالها وضحكها كان يظهر نفسه فجأة.

فكرت في وضع رائف أفندي كثيراً. رجلٌ مثل هذا - وأي رجل؟ لم أكن أعرف ولكني كنت متأكداً من أنه لم يكن كما يبدو -، نعم، رجلٌ مثل هذا لم يكن ليستطع الهرب من أقرب الناس إليه. كل المسألة، أن من حوله كانوا لايعرفونه. وهو أيضاً لم يكن يظهر أي حرص على تعريفهم بنفسه. من بعد ذلك لم تعد إذابة الجليد الذي يقبع بينهم وبالتالي حلّ الغربة التي كانوا يشعرون بها تجاه بعضهم ممكنة. ولأن الناس يعرفون مدى صعوبة تعرفهم على بعضهم، فإنهم بدلاً من التشبث بهذا العمل المرهق يفضّلون التجول عشوائياً كالعميان ولا يعرفون بوجود بعضهم إلا عن طريق التصادم.

لكن، وكما قلت، كان رائف أفندي يبدو وكأنه ينتظر شيئاً من ابنته الكبيرة نجلاء. كانت البنت التي تقلد في حركات وجهها، وفمها ويداها خالتها المطلية بالألوان، واستقت قوة شخصيتها من حذلقة زوج خالتها، رغم انطوائيتها.. إلا أنها كانت تحمل علاماتٍ تدل على

أن بها بقايا إنسـان. كانت أحياناً تنفعل بشـدةٍ موبخـةً أختها نورتان التـي كانت تحـاول الوصول بجرأتهـا في تعاملها مع أبيهـا إلى درجة الوقاحـة، وتقوم عن السـفرة عندما يُسـتخفُّ بأبيهـا وتصفق الباب خلفها. لكن هذه الحالة هي مجرد عن محاولة لما تبقى من الإنسـانية في داخلها، أن تأخذ نفسـاً لا أكثر، كانت الشخصية الزائفة التي أكسبها محيطها لها بعد صبر وعمل طويل قويةً لدرجة لاتسـمح لشـخصيتها الحقيقية بالظهور.

لكـن ربما أن تهوري في سـن الشـباب هو مـا كان يجعلنـي أغضب دائماً على السـكوت المخيف لرائف أفندي. سـواء في البيـت، أو في الشركة، كان دائـماً مـا يقابـل تجاهل الناس لـه وعدم اعتبارهم لـه كرجل بصدر رحـب، ويرى مايفعلـه تصرفاً مصيباً. رغم علمي بـأن الناس الذين لا يُفهمـون ممن حولهم، وتصـدر دائما بحقهم أحـكام خاطئة، يبدأون مع الوقت وبسـبب هذه الوحدة بالإحساس بالفخر والرضى المر، إلا أنني لا أتصور أن من حولهم سيرونهم محقين أبداً.

بطرق كثيرة، لاحظت أنه لم يكن رجلاً ماتت مشـاعره. بل على العكس من ذلك كان حساسـاً، دقيقاً ومهتماً بالتفاصيل. لم تكن عيناه المحدقتان أمامـه تفوّتـان أي شيء. في يوم مـن الأيام عندما سـمع بناته في الخارج وهـن يتجادلن بصـوت خفيض: «أنت حضّري القهوة»، لم يقل شـيئاً، لكنـه ومـن بعدها في المرتـين التاليتين التي ذهبت لزيارتـه فيهما قال لهم فوراً بصوتٍ عالٍ:» لا تحضروا القهوة، إنه لا يريد». هذا التصرف الذي فعلـه ليتجنب تكرار الحادثة التي كانت ثقيلـة عليه جعلني أكثر حميميةً

معـه وزاد ارتباطـي بـه. لم نكن قد تحدثنـا في شيءٍ بعد، لكـن هذا لم يعد يثير اسـتغرابي. ألم يكن في عيشـته الساكنة الهادئة، وتحمله، والرحمة التي يظهرهـا لضعف النـاس ونظرته المرحـة التي يقابل بها قلـة أدبهم إرادةً كافيـة؟ ألم أكـن أشـعر في الأوقات التي مشـينا فيها سـويةً بكون الذي بجانبي إنسـاناً؟ في هـذه الأوقات، فهمت لماذا يـرى الناس أنه ولأجل البحث وإيجاد بعضهم، ومشـاهدة مكنوناتهـم، أن التواصل لا يلزم أن يكـون في صورة الـكلام فقط. وفهمت لـماذا كان بعض الشـعراء، وفي مقابـل جمال الطبيعة، دائماً ما يبحثون عن شـخصٍ يرافقهم من دون أن يتكلم. كنت متيقناً أن ماتعلمته من هذا الذي يمشي بجانبي من دون أن يفتـح فمه، ويعمل أمامي من دون أن يصـدر صوتاً، أكثر بكثير مما كان من الممكن أن أتعلمه من أحدٍ يلقنني دروساً لسنوات.

كنـت أشـعر بأنه هو أيضـاً مسرورٌ من وجودي. لم يعـد به ذلك الخجل والـتردد الذي كان بـه في أول أيـام تعارفنا والذي يظهـره لكل الناس. لكنـه في بعـض الأيـام كان يتوحّش فجـأة، وتخسر عينـاه كل تعابيرهما وتصغـران. وعندمـا يخاطبـه أحـدٌ كان يرد بهـدوء وصـوت منخفض يمنـع من الإقتراب بأي شـكل. في مثل تلك الأوقـات كان يهمل حتى الترجمـة، وفي مـراتٍ كثيرةٍ كان يـترك القلم بجانبه ويتفـرج على الورق لساعات. أحسسـت بأنه الآن مسحوبٌ خلف كل المسافات والأزمان وبأنـه لن يترك أحداً يقترب منه هناك. حتى أنا لم تكن لي رغبةٌ بالتدخل والإقتراب. لكـن داخلي كان يجتاحه القلق، لأن أمراض رائف أفندي، وبتصـادف غريب، كانت تَعقُب هذه الأيـام في أغلب الأحيان. عرفت

سبب ذلك بسرعة لكن بطريقة محزنةٍ أيضاً، سأقول كل شيء في وقته.
يوماً ما، وفي أواسط شباط لم يأت رائف أفندي إلى العمل مجدداً. وعندما مررت بمنزله قبل حلول المساء فتحت لي الباب زوجته مهرية هانم.
- "تفضلوا، هذا أنتم؟" قالت. "استسلم للنوم قبل قليل... سأيقظه إن أردتم!"
- "لا، لا تزعجوه.. كيف هو؟" سألتها.
أدخلتني إلى غرفة الضيوف وقالت: «حرارته مرتفعة. هذه المرة بطنه تؤلمه أيضاً!» ثم أضافت بصوت شاكٍ: «آه عزيزي، لا يعتني بنفسه أبداً.. إنه ليس طفل.. يمرض فجأة رغم عدم وجود شيء في الجو. لاأدري ماذا يحدث.. لا يجالس أو يكلم أحداً أصلاً. يأخذ بعضه ويمضي. ثم وكما ترى .. يتمدد مريضاً.»
في هذه الأثناء جاء صوت رائف أفندي من الغرفة المجاورة خافتاً. هرعت زوجته إلى الغرفة، وجلست قلقاً. هل يمكن لرجلٍ يهتم بصحته الى هذه الدرجة، يرتدي كنزات الصوف ويلف نفسه داخل الأوشحة أن يكون غير محتاطٍ بأي حالٍ من الأحوال؟
قالت مهرية هانم وهي عائدةٌ من عنده:
- "استيقظ عند طرقكم للباب، تفضلوا."
هذه المرة وجدت حالته متدهورة بعض الشيء. وجهه مصفرٌّ جداً، ونفَسه متسارع. أما ابتسامته الطفولية المعتادة فكانت تبدو مُتعِبةً لعضلات وجهه. وعيناه ومن خلف النظارة، تبدوان وكأنهما هاربتان إلى الإعماق.

- " ماذا حصل لك هذه المرة رائف بك، شفاك الله. "، قلت له.
- "شكراً!"
كان في صوته بحةٌ خفيفة. ويهتز كل جسده عندما يسعل.
ولأشبع فضولي بسرعةٍ سألته:
- "كيف بردت؟ يبدو أنها حساسية من البرد!"
جلس مدة طويلة يحدق في أغطية السرير البيضاء، كان هناك موقد تدفئةٍ حديدي بين أسرّة الزوجة والأطفال جعل الغرفة أكثر دفئاً. رغم ذلك كان يبدو أن ما أصابه مجرد نزلة برد. سحب اللحاف إلى رقبته قائلاً:
- "صحيح، أخذت نزلة بردٍ على كل حال! أمس وبعد طعام العشاء خرجت قليلاً.."
- "هل ذهبت إلى مكانٍ معينٍ أم ماذا؟"
- "لا. أردت التجول قليلاً فقط. لا أعلم!!.. ربما شعرت بالملل."
كان مجرد قوله أنه قد شعر بالملل من شيءٍ ما مفاجئاً لي. "مشيت لمسافة طويلة بعض الشيء.. إلى ناحية المنشئات الزراعية.. وصلت إلى أسفل منحدر حي كشي أورين.. أمشيت بسرعةٍ ياترى؟ شعرت بالحر.. ففتحت عروة صدريتي. كان الجو عاصفاً قليلاً.. والثلج يتساقط بخفة.. أخذت برداً بطبيعة الحال.."
لم يكن خروج رائف أفندي في الليل في جوٍّ مثلجٍ وعاصفٍ ومشيه في طرقٍ فارغة وفتحه أزرّة صدريته بتصرفٍ متوقّعٍ منه أبداً.
- "هل أضجرك شيءٌ ما" سألته.
جاوب بتعجل:

- "لا يارجل. يحدث بين حين وآخر أن أرغب بالتنزه وحدي في الليل. من يدري، ربما ضجرت من ضجة البيت أو شيء آخر.."
ثم، قال بعجلةٍ وهو خائف من أن يكون قد أكثر في الكلام:
- "يحصل هذا عندما يشيب الإنسان على كل حال، ما السيء في أن يبقى أحدنا طفلاً للأبد؟!"

تعالت الضجة في الخارج، جاءت البنت الكبيرة من المدرسة وحين دخلت قبلت وجنتي أبيها قبل أن تسأله:
- "كيف أصبحت يا أبي العزيز؟"
وقبل أن تتلقى اجابته استدارت نحوي ثم صافحتني وقالت:
- "أهلا بك، هذا يحدث دائماً.. تخطر في باله مثل هذه الجولات بين حين وآخر، يقول أنا ذاهبٌ إلى المقهى قليلاً، ثم من يعلم أين يتلقفه البرد في القهوة أم في الطريق؟ ومن ثمَّ يمرض.. ليست أول مرة تحصل. ما الذي يحصل في القهوة؟ لاأدري!"
بعد ذلك طوت معطفها وألقته على أحد الكراسي، خرجت فوراً. يبدوا أنها اعتادت على حالات رائف أفندي هذه ولم تعد تعطها أهمية كبيرة.
نظرت إلى وجهه العليل. أدار عينيه نحوي، لم يكن بهما أي إيضاح أو تعجب. كنت مستغرباً، ليس لأنه كذب على أفراد المنزل، بل لأنه أخبرني بالحقيقة. لكني كنت أشعر بفخرٍ أيضاً، فخر من يشعر بأنه مقربٌ لشخص ما أكثر من الآخرين.
بمجرد أن خرجت من البيت وسلكت طريق العودة، استغرقت في التفكير. عجباً، هل كان رائف أفندي بسيطاً وفارغاً من الداخل

حقـاً؟ بلا أي شـغفٍ أو هدفٍ في حياته، لم يكـن له أي اهتمام بالناس، ولا حتـى أقرب الناس إليه.. ماذا كان يريد إذاً؟ ألم يكن فراغه النفسي وانعدام غاياته هو ما يخرجه للشـوارع في المسـاء؟. أثناء مشـيي رأيت أني قد وصلت الى الفندق الذي أقيم به. هنا، كنت أسـكن مع صديقٍ في غرفةٍ اتسـعت بالكاد لسريرين. كانت السـاعة قد تجاوزت الثامنة. فكرت بأن أقرأ كتاباً بدل أن أصعد الى غرفتي بما أني لم أجع بعد، لكنني تراجعت في الحال، لأنه وفي مثل هذا الوقت تماماً، يصدح الجرامافون بأعـلى صوتـه من المقهى الذي يقع في أسـفل الفنـدق، وجارتنا الفنانة السورية تغني أكثر الأغاني العربية إزعاجاً بينما تتزين وتتجهز لعملها. عـدت أدراجي ومشـيت على الطريق المسـفلت والمبقـع بالطين باتجاه حي كشي أورين.

في أول الطريق كان على جانبيه ورش سـيارات ومقاهٍ خشـبية منخفضة وبسـيطة. تأتي بعدها بيوت مرتفعة في الجانب الأيمن باتجاه التلة. ومن بعدها بدأت تظهر في منطقة منخفضة مزارع تساقطت أوراق أشجارها. رفعـت ياقة معطفي، كان يهب هواءٌ رطـبٌ وسريع، وفي داخلي، كانت هناك رغبةٌ رائعة في أن أمشي وأركض، كالتي تأتيني عندما أكون ثملاً. أحسسـت بأني أسـتطيع المشي لساعات، بل أيام. مشـيت مسافة طويلة ونسـيت أن أنظر إلى ما حولي. ومع اشـتداد هبوب الريح شعرت وكأن أحـداً يدفعنـي في صدري، أصبح المشي أكثر متعـة وأنا أقاوم هذه القوة الدافعـة. فكرت فجأةً بسـبب مجيئي إلى هنا. أبداً، لم يكن هناك سـبب. مشـيت مـن دون هدفٍ وجئت. كانت الأشـجار التـي بجانبَي الطريق

تنحني مع الريح، والسحب تجري وتمر بسرعةٍ كبيرة. كانت التلال الصخرية السوداء مازالت تلمع قليلاً في الأفق والسحب تبدو وكأنها تتسلقها وتترك قطعاً منها فيها. كنت أتقدم مغمضاً عينيّ وساحباً الهواء الرطب إلى جوفي.

عاد السؤال الذي رميته من رأسي إليه مجدداً: لماذا أتيت إلى هنا؟ كان الجو اليوم يشبه جو ليلة البارحة كثيراً، ربما بعد قليلٍ سيبدأ الثلج بالتساقط أيضاً. بالأمس كان هنا رجل آخر، نظارته مضببة، قبعته في يده وصدره مفتوح، يمشي بسرعة وكأنه يجري. النسيم يتخلل شعره القصير والمتناثر، من يعلم كيف كان رأسه المشتعل بالحرارة الآن، كان يبدي كل تلك البرودة. ماذا كان بدخل ذلك الرأس؟ لماذا قاد ذلك الرأس المريض ذو الجسد العجوز إلى هنا؟ كنت أحاول تصور شكل وجه رائف أفندي وهو يمشي في ذلك الظلام أثناء تلك الليلة الباردة. فهمت الآن سبب مجيئي إلى هنا: ظننت بأني أستطيع أن أرى رائف أفندي وأفهم ما يدور في رأسه هنا بشكل أفضل. لكنني لم أكن أرى غير السحب المتشكلة بأشكال كثيرة وأنا أركض هرباً من الريح التي تحاول الإطاحة بقبعتي، ومن هزيز الأشجار. أن أعيش في نفس المكان الذي عاش فيه لايعني أن أعيش ما عاشه هو، يجب أن يكون الشخص ساذجاً ومغفلاً مثلي حتى يظن ذلك. عدت إلى الفندق بسرعة. خمد صوت الجراموفون والمرأة السورية. كان صديقي ممدداً على السرير وهو يقرأ كتاباً. نظر إليّ بطرف عينه وقال:

- "ماهذا؟ هل كنت تجالس الفتيات؟"

أتساءل كيف يفهم الناس بعضهم جيداً إلى هذا الحد؟! حتى أنا كان بودّي لو أن لي هذه المهارة لأحلل مابعقل إنسان ما وأرى روحه المعتدلة أو المنحرفة. حتى أكثر الناس بساطة، وبؤساً، بل وحمقاً، لهم أرواح غريبةٌ ومعقدةٌ توقِع الإنسان من الدهشة! لماذا نهرب من فهم هذا ونظن أن فهم الإنسان والحكم عليه من أسهل الأشياء؟ لماذا نتهرّب من الحكم على نوع جبنةٍ رأيناه لأول مرةٍ بينما لانتورع عن إصدار حكمنا بشأن إنسان ما فور رؤيتنا له، وبضميرٍ مرتاح؟ لم أنم منذ وقت طويل. كان رائف أفندي نائماً يتلظى وسط نار الحمى على سريره ذي الأغطية البيضاء، وهو يشم الرائحة المنتشرة من أطراف بناته وزوجته المتعبة في الغرفة. عيناه مغلقتان، لكن من يعلم أين تكون روحه، وأين كان يتجول؟

استمر مرض رائف أفندي هذه المرة طويلاً. كان يبدو أنها نزلة بردٍ كالعادة. أوصى الدكتور المسن الذي أحضره نور الدين بك لرائف أفندي بمزيج الخردل وكتب له وصفة علاجٍ للسعال. كنت أمر به كل مساء، وفي كل مرةٍ كنت أجد حالته متدهورةً أكثر. لكنه لم يُقلق نفسه كثيراً ولم يبد لي أنه يعطي للمرض أية أهمية. ربما لم يكن يريد أن يثير قلق أفراد المنزل. فقد كان القلق يصيب نجلاء ومهرية هانم من أبسط الأشياء. المرأة التي كانت منذ سنوات لا تفكر إلا في أشغال البيت، كانت وبهلع كبير تدخل وتخرج من غرفة المريض، تُوقِع صحنا أو منشفة من يدها وهي تضع مزيج الخردل، كانت دائما ما تنسى شيئاً في الخارج أو الداخل وتبحث عنه باستمرار.

لا أزال أراهم يركضون بأحذيتهم البسيطة في كل الإتجاهات، وأشعر بنظراتهم التي كانوا يقابلون بها كل من يصادفونه كأنما يستجدون المساعدة المعلقة بي إلى الآن. كانت نجلاء فوق أنها مضطربةً كأمها، غارقةً في حزنٍ كبير. وفي آخر الأيام كانت تنتظر أباها ولا تذهب إلى المدرسة. وعندما أجيء لتفقده في المساء كنت ألاحظ أنّ عينيها متورمتان من بعد طول بكاء. لكن كأنما كان كل ذلك يسبب لرائف أفندي الضجر. كان يشكو لي ويعبر عن ضجره عندما نكون وحدنا. في إحدى المرات قال لي:

- "يارجل، مالذي يحدث لهم؟ هل أنا على فراش الموت؟ ولو متنا ما الذي سيحصل! ما شأنهم؟ من أنا بالنسبة لهم؟.." ثم أردف بمرارةٍ وشكوى:

- "أنا لاشيء بالنسبة لهم. لست ولم أكن. عشنا مع بعضنا في نفس المنزل سنواتٍ طويلة، لم يخطر ببالهم أن يفكروا من هذا الرجل. والآن يفزعون من احتمال ذهابه."

- "ماهذا يا رائف بك!"، قلت له وأتبعت :"وهل هذا كلام يقال؟.. صحيح أنهم بالغوا في قلقهم قليلاً، لكنك جانبت الصواب بتفسيرك هلعهم بهذه الطريقة.. أنت تتحدث عن زوجتك وابنتك!"

- "صحيح، زوجتي وابنتي. لاأكثر ولا أقل."

حوّل رأسه إلى الجهة الأخرى. لم أفهم ماذا كان يرمي بكلماته الأخيرة ولكنني كنت متردداً من أن أستفسره عن مقصده. وللتهدئة مِن روع مَن في المنزل، أحضر نور الدين بك استشاريّ باطنية. بعد فحص ومعاينة طويلين أعلن الطبيب بأن السيد رائف مصاب بوباء ذات

الرئة، وليهدئ من روعهم قال:

- "لا ياعزيزي، ليس هو بالشيء الخطير... ماشاء الله، بنيته مقاومة وقلبه سليم، يستطيع تجاوزه. لكن يجب أن تعتنوا به، حذار أن يبرد. سيكون من الأفضل لو أخذتموه إلى المستشفى."

بمجرد أن سمعت مهرية هانم كلمة مستشفى اعترتها دوخةٌ خفيفة وانهارت تبكي بصوت عالٍ على إحدى الكراسي الموجودة في الردهة. اعترض نور الدين بك عابساً وكأنه مُسّ في كرامته: «لا داعي إلى ذلك. سيلقى عنايةً في بيته أفضل من عناية المستشفى.»

هزّ الطبيب كتفيه ومضى.

في البداية أراد رائف أفندي الذهاب إلى المستشفى، كان يقول: "هناك أستطيع أن أريح رأسي على الأقل!". كان جلياً من كل حالاته أنه يفضل البقاء وحده، لكنه وبعد أن قوبل طلبه برفضٍ شديد سكت ولم يعد يصدر صوتاً. تمتم بابتسامةٍ ملؤها اليأس: "حتى لو ذهبت إلى هناك فلن يتركوني على راحتي!"

يبقى هناك يوم من الأيام مازالت تفاصيله في ذاكرتي. كنت جالساً على كرسي بجانب سريره، وبصمت تام، كنت أشاهده نائماً وهو يتنفس بصفيرٍ خفيف. كانت هناك بين زجاجات العلاج التي على الطاولة بجانب مرقده ساعةٌ تملأ الغرفة بصوت جرس معدني. قال وهو يفتح عينيه الهاربتين إلى داخل جمجمته:

- " أشعر اليوم بتحسن!"

- "بالتأكيد... لن يستمر هذا الحال إلى الأبد طبعاً."

في تلك اللحظة، سأل بصوت حزين:
- "حسناً ولكن، إلى متى سيستمر هكذا؟"
أدركت المعنى الحقيقي لسؤاله واحترت. كان السأم الذي في صوته يفصح عن ماكان يقصد.
قلت: "ماذا يحدث لك يا رائف بك؟"
سألني بإصرار وهو يثبت عينيه في عيني:
- "حسناً ولكن، مالزوم كل هذا؟ ألا يكفي بعد؟ .."
دخلت مهرية هانم وقالت وهي تجلس بجانبي:
- "اليوم أفضل! برء من مرضه بإذن الله."
ثم التفتت إلى زوجها قائلة:
- "سنغسل الملابس يوم الأحد، لو يُحضر هذا السيد منشفتك!"
هز رائف أفندي رأسه موافقاً. خرجت المرأة مجدداً بعد أخذ شيءٍ بحثت عنه في الخزينة. أزال تحسن رائف أفندي الطفيف كل قلق زوجته واضطرابها وأخفاه. عاد عقلها إلى الإنشغال بمشاكل البيت كعادته القديمة، من أكل وغسيلٍ وغيره. كانت تتحول من الكدر إلى السرور، ومن الهلع إلى السكون، ومثل كل النساء تنسى كل شيء بسرعة. كان في وجه رائف أفندي نظرات مليئة بالحزن وابتسامة عميقة. قال مشيراً إلى معطفه المعلق على طرف السرير:
- "في جيب المعطف الأيمن هناك مفتاح، خذه. افتح درج مكتبي الأول، وأحضر المنشفة التي تحدثت عنها السيدة. سأتعبك معي لكن .."
قاطعته: «سأحضرها غداً مساء».

صمت لمدة طويلةٍ محدقاً في سقف الغرفة. واستطرد فجأة:
"أحضر كل ماتجده في الدرج، أياً كان! يبدو أن سيدتنا عرفت بحدسها أنني لن أذهب إلى الشركة مرة أخرى، فهذه المرة ستكون رحلتي إلى مكان آخر."

ودفن رأسه في الوسادة مجدداً.

في اليوم التالي ذهبت إلى مكتب رائف أفندي قبل أن أخرج من الشركة. كان في جنبه الأيمن ثلاث أدراجٍ فوق بعضها البعض. بدأت بفتح السفلي أولاً، كان خالياً، والذي يليه كان ممتلئاً بأوراقٍ ومسودات ترجمة. شعرت بقشعريرةٍ وأنا أدير المفتاح في قفل الدرج الأول؛ أدركت أنني أجلس في المقعد الذي كان يجلس فيه رائف أفندي منذ سنوات طويلة وأمارس نفس تصرفه الذي كان يكرره كل يومٍ لعدة مرات. فتحت الدرج على عجل، وقد كان يبدو خالياً. عدا أن في زاويته البعيدة كانت هناك منشفةٌ متسخةٌ جداً وقطعة صابون ملفوفة بورق صحيفة وسفرطاس -حافظة طعام- وشوكة وسكين صغيرة. لففتهم كلهم داخل ورقة سريعاً، ثم دفعت الدرج إلى مكانه ونهضت، لكنني أردت التأكد من أني لم أترك شيئاً خلفي ففتحت الدرج مجدداً وفتشت داخله بيدي. في الواقع كان هناك شيء أشبه بالدفتر. تناولته هو أيضاً ووضعته بجانب الأغراض الأخرى ونهضت خارجاً. لم يكن احتمال عدم جلوس رائف أفندي على هذا المقعد مرة أخرى أو استعماله للدرج يفارق تفكيري.

استُقبِلت في المنزل باضطرابٍ وهلعٍ من جديد. عندما فتحت نجلاء

البـاب هزت لي رأسـها قائلـة: "لاتسـألوا، لاتسـألوا!". بحلول ذلك الوقت كنت قد أصبحت كأحد أفراد المنزل ولم يعد أي منهم يستقبلني كضيـف غريب. تابعت الفتاة: "سـاءت حالة أبي مجدداً! تدهور وضعه اليـوم مرتين، خفنا كثـيراً. أحضر صهري الطبيب وهو بجانبه الآن. إنه يقوم بإعطائه حقنة." وأسرعت إلى غرفة المريض.

لم أدخـل إلى الغرفـة. جلسـت عـلى أحد كـراسي الردهة واضعـاً حزمة الأغراض بجانبي. ورغم أن مهرية هانم خرجت من الغرفة عدة مرات إلا أني خجلت من أن أناولها الكيس وهي في ذلك الحال. سيكون تصرفاً غير لائقٍ حقاً أن أعطيها منشـفةً متسخة وشوكة طعامٍ قديمة بينما ينازع إنسـان مع روحه بالداخل. نهضت وبدأت بالتجول حول الطاولة التي في المنتصـف، لكني انشـدهت عندما رأيت نفسي في المرآة، فقد شـحب لوني إلى الأصفر تماماً. بدأ قلبي بالخفقان بشدة. ليكن من يكن، فمعاناة إنسـان يراوح في جسرٍ بين الحياة والموت لشيء مرعب حقاً. بعد ذلك، فكرت بأنه لاحق لي في أن أظهر حزناً وتأثراً كبيراً في ظل وجود زوجته وبناته وأقربائه.

في تلـك الأثناء، نظرت إلى بـاب غرفة الضيوف المـشرع قليلاً. وعندما اقتربـت رأيـت إخوة زوجـة رائف أفنـدي جهاد ووداد وهما جالسـان عـلى أريكةٍ جنباً إلى جنب يدخنان السـجائر. كان باديـاً عليهم الضجر والإنزعاج لعدم قدرتهم على ترك المنزل. بينما كانت نورتان جالسة على أحد المقاعد، مطرقة برأسها على ذراعها، تبكي، أو ربما نائمة. وبجانبها كانت فرهونده جالسة تحاول إلهاء طفليها اللذان كانا في حضنها بهمهمة

أشياء عشوائية، لكنهما كانا يبدوان مدركين أن في الموضوع خدعة.

فُتح باب غرفة المريض وخرج الطبيب يتبعه نور الدين بك. ورغم كل لباقته إلا أنه لم يبد مرتاحاً.

- "لا تتركوه وحده، وإذا تكررت النوبة احقنوه بهذه الإبر.".

سأل نورالدين بك رافعاً حاجبيه:»هل وضعه حرج؟»

أجاب الطبيب كما اعتاد كل الأطباء أن يقولوا في مثل هذه الحالات:"لست متأكداً!"

وكي لايتعرض لمزيد من الاستجواب، أو المضايقة من زوجة رائف، ارتدى معطفه وقبعته على عجل وتناول الثلاث ليرات الفضية من نور الدين مقطباً وجهه وترك المنزل.

دلفت إلى غرفة المريض بهدوء. نظرت إلى الداخل. كانت السيدة مهرية ونجلاء يتفرجان على النائم المريض بفضولٍ وقلق. أشارت لي الفتاة بإصبعها منادية عندما رأتني. كانوا يريدون أن يشاهدوا تأثيري الموقظ للمريض. ولأني أدركت رغبتهم حاولت بكل قوتي أن أسيطر على نفسي. هززت رأسي بشكل خفيفٍ وكأنني مطمئن مما أراه. ثم إلتفت لهنّ وهنّ واقفات وقلت بابتسامة مصطنعة:

- "لايوجد مايقلق! .. سيُشفى إن شاء الله!"

فتح المريض عينيه بثقل، ونظر إليّ لمدةٍ كأنه لم يعرفني. ثم وبجهدٍ فائقٍ استدار بوجهه إلى زوجته وابنته، وتمتم عابساً بكلمات غير مفهومة.

تدخلت نجلاء:

- "هل أردت شيئاً يا أبتِ؟"

- "هيا، أخرجوا قليلاً!"
كان صوته خفيفاً جداً ومتقطعاً.
أشارت إلينا مهرية هانم، لكن المريض لاحظ ذلك فأخرج ذراعه من تحت اللحاف وسحبني من خصري وقال:
- "ابق أنت!"
تفاجأت السيدات بعض الشيء. قالت نجلاء:
- "أبتي، لاتخرج يدك! .."
هز رائف أفندي رأسه بسرعة وكأنه يقول «أعرف، أعرف!» وأشار لهم مجدداً بأن يخرجوا. غادرت السيدتان الغرفة وهن تتابعنني بنظراتٍ مستفسرة. عند ذلك أشار رائف أفندي إلى الكيس الذي نسيته تماماً:
- "هل أحضرت كل شيء؟"
في البداية نظرت إليه مستوضحاً. هل كنت أفعل كل ذلك ليسألني هذا السؤال فقط؟ كان المريض مازال ينظر في وجهي وعيناه تلمعان في فضولٍ شديد. تذكرت الدفتر الأسود في هذه اللحظة لأول مرة. لم يكن قد انتابني فضولٌ لأفتحته ولو لمرة قبل أن أجيء. ولم أحزر أبداً أن هذا الدفتر قد يكون شيئا ذا قيمة خاصة لرائف أفندي. فتحت الكيس بسرعة ووضعت المنشفة على كرسي خلف الباب. وعندما وجدت الدفتر عرضته على رائف أفندي:
- "هل هذا ما كنتم تريدونه؟"
- أومأ برأسه: "نعم".
قلبت صفحات الدفتر على مهل. أحسست بداخلي فضولاً يتضخم

ولايقاوم. في بعض الصفحات كانت هناك أسطرٌ مكتوبةٌ بأحرفٍ كبيرةٍ وغير متناسقة، بدا لي أنها كُتبت على عجل. ألقيت نظرة سريعةً على أول صفحة، لم يكن هناك عنوانٌ أو شيءٌ من هذا القبيل. في جانب الصفحة الأيمن سُجّل تاريخ 20 حزيران 1933 تتلوه هذه الأسطر:

" حصل لي البارحة حادثٌ غريبٌ جعلني أعيش ذكرياتٍ حصلت لي قبل عشرة سنواتٍ من جديد."

لم أستطع إكمال القراءة. أخرج رائف أفندي يده مجدداً ممسكا بيدي: "لاتقرأ!" قالها ثم أشار برأسه إلى الطرف الآخر من الغرفة قائلاً بصوت خافت:

- "ألق به هناك!"

نظرت إلى ماكان يشير اليه. من خلف لوحات الميكا ،كان هناك موقد تدفئةٍ يلمع بعيونٍ حمراء.

- "إلى النار؟"

- "نعم!"

في هذه اللحظة تضاعف فضولي أكثر. كان إحراق دفتر رائف أفندي بيدي شيئاً مستحيلاً:

- "ماالسبب يا رائف بك!" قلت مردفاً: " أليس هذا مؤسفاً؟ هل يليق أن تحرق دفتراً كان صديقاً لك لزمنٍ طويل وكأنه لايعني لك شيئا؟"

- "لم يعد له ضرورة!"

أدركت بأنني لن أستطيع ثنيه عن رأيه. يبدو أنه يريد الرحيل مع دفتره الذي يحتمل أنه سكب فيه روحه التي كان يخفيها عن كل الناس.

استيقظ بداخلي إحساس بالعطف وشفقة لامتناهية تجاه الرجل الذي كان حتى وهو في طريقه إلى الموت يفضّل أن يأخذ وحدته معه ولا يترك شيئا منها للناس.

قلت: "أتفهمكم يارائف بك!.. نعم، أفهم جيداً. لكم حق في الغيرة على أشيائكم من الناس. وقراركم بإحراق الدفتر أيضا قرارٌ مصيب.. لكن ألا تبقي عليه لمدة بسيطة، على الأقل ليوم واحد؟"

رمقني بنظرةٍ تستفهم عن السبب. دنوت منه محاولاً تجميع كل المحبة والمودة التي أكنها له في عينيّ لأكمل مابدأته وأجرب الحيلة الأخيرة:

- "ألا تتركون لي هذا الدفتر لليلة، لليلة واحدة فقط؟ رغم طول فترة صداقتنا إلا أنكم لم تخبروني بأي شيءٍ عنكم. ألا ترون اهتمامي وفضولي شيئاً طبيعياً؟ أنتم بالنسبة لي أهم إنسان في هذه الدنيا.. هل تريدون رغم هذا بذهابكم وترككم لي بأن تخبروني بأنني لا أعني لكم شيئاً كالآخرين؟"

أدمعت عينيّ. أكملت رجائي وصدري يرتجف. كأنما كنت في هذه اللحظة أسكب كل ماتجمع في روحي من ضيم تجاه الرجل الذي كان يهرب من محاولات تقربي له منذ أشهر.

- "ربما أنتم محقون في سحب ثقتكم من الناس. لكن ألا يوجد استثناءات؟ أمستحيل ذلك؟ لاتنسوا أنكم أنتم أيضاً أحد هؤلاء الناس، قد يكون ماتفعلونه هو قمة الأنانية."

صمتّ عندما استدركت عدم ملائمة إلقائي مثل هذه الكلمات الثقيلة على مريض. كان هو صامتاً أيضاً. أخيراً قلت بآخر جهد:

- "يـا رائف بك، أرجوكـم تفهّموني أنا أيضاً! فأنـا في بدايات الطريق الذي أنتم في نهايته. أريد أن أتعلم وأفهم الناس، وعلى الخصوص أريد أن أعلم ماذا فعل الناس لكم.."

هـز المريض رأسـه بعنـفٍ مقاطعاً كلامـي. كان يتمتم بـشيء، انحنيت مقترباً منه، شعرت بحرارة أنفاسه في وجهي، كان يقول:

"لا، لا!.. لم يفعل الناس لي شيئاً.. لاشيء أبداً.. لكن أنا.. أنا.."

أطرق فجأة ووقع رأسـه على صدره. كان يتنفس بسرعةٍ أكبر. مؤكدٌ أن هذا المشهد أتعبه. بدأت أنا أيضاً أشعر بتعب نفسي كبير.

- "لا ذنب لأحد، ولا حتى لي أنا!"

لم يستطع إكمال كلامه. كان يسعل. قال أخيراً مشيراً بعينيه إلى الدفتر:

- "اقرأ، سترى بنفسك!"

دسسـت الدفـتر ذي الغـلاف الأسـود بجيبـي بسرعة كمـن لم يصدق الفرصة.

- "سأحضره غداً صباحاً وأحرقه أمامكم!".

هز المريض كتفيه بلا اكتراثٍ كأنه يعني «افعل ماشئت!».

فهمـت الآن سـبب قطـع علاقتـه بهـذا الدفـتر الـذي يحتوي عـلى أهم فصـول حياتـه. قبلـت يـده مودعـاً. وعندمـا أردت الإعتـدال واقفاً لم يتركني وسحبني إليه، قبل جبهتي أولاً ثم خدّي. وعندما رفعت رأسي وجـدت دموعه قد إنهمرت عـلى صدغيه. لم يكن رائـف أفندي يحاول فعـل أي شيءٍ ليمسـح دموعه أو يداريهـا، كان يحدق فيّ بعينيه من دون أن يرمش. لم أستطع أن أمسك نفسي عن البكاء أيضاً، كان بكاءاً شديداً

وصامتاً بلا شهيق، كالذي يصدر في أوقات الحزن والهم. كنت أعرف أن وداعي ومن ثمّ تركي له سيكون عسيراً. لكنني لم أتصور أنه سيكون مؤلماً وقاسياً بهذا القدر.

حرك رائف أفندي شفتيه مرة أخرى، وقال بصوتٍ بالكاد سمعته:

- "لم نجلس معكم ونتحدث كما يجب، يا للأسف يابنيّ!"، ثم أغمض عينيه.

كان يعتبر هذا وداعاً. ولأجل ألا أظهر وجهي للمنتظرين بالخارج، انطلقت بسرعة ماراً بالردهة وخارجاً من المنزل. في الطريق جفف النسيم البارد وجنتي. كنت أردد بيني وبين نفسي بلا توقف: «ياللأسف! .. ياللأسف!». وعندما وصلت إلى الفندق وجدت زميلي يغط في نومه. إستلقيت على السرير وأشعلت المصباح الذي بجانبه، ثم بدأت في قراءة الدفتر ذي الغلاف الأسود:

20 حزيران 1933

"مرّت بي البارحة حادثةٌ غريبةٌ أعادت إلى ذهني أحداثاً عشتها قبل عشر سنوات وجعلتني أعيشها من جديد. أعلم أن هذه الذكريات التي كنت أظن بأني نسيتها وقد ذهبت لن تتركني بعد الآن أبداً.. أي صدفةٍ غادرةٍ أخرجتها لي من جديدٍ وأيقظتني من نومي الذي كنت أغط فيه، ومن الخدر مسلوب الحس الذي تعودت عليه تدريجياً. أكون كاذباً لو قلت بأني سأجنّ أو أموت. فالإنسان يعتاد سريعاً ويصبر على الأشياء التي كان يظن بأنه لن يتحملها أبداً. سأعيش، لكن كيف سأعيش! من اليوم فصاعداً ستكون حياتي عذاباً لا يطاق!

لكني سأتحمل.. كما تحملت إلى الآن.

لكن التحمل والصبر لم يعد بشيءٍ ممكنٍ بالنسبة لي: لن أستطيع أن أكتم كل شيءٍ في صدري وحدي. أريد أن أسرّ لأحد ما بما في نفسي وأخرج ما أحبس في داخلي. لكن لمن؟ هل هناك في هذه الدنيا الكبيرة إنسان آخر بقدر وحدتي ياترى؟ لمن؟ وماذا سأحكي؟ لا أذكر أني أخبرت أي أحدٍ بأي شيءٍ طيلة عشر سنوات. هربت من الناس وأبعدتهم عني بلا فائدة. لكن هل أستطيع أن أتغيّر بعد هذا؟ لم يعد هناك إمكان لتغيير أي شيء، ولاضرورة لذلك. يبدو أن هذا الأمر يقتضي ذلك. فقط لو أستطيع أن أقول.. أن أبوح بما في داخلي لأحدٍ ما... حتى لو أردت ذلك حقاً فمن غير الممكن أن أعثر على شخص كذلك. لم تعد بي طاقةٌ للبحث. حتى لو بقيت، فلم أكن لأبحث.. لأي سببٍ اشتريت هذا الدفتر أصلاً؟ لو كان عندي ذرة أملٍ بسيط، هل كنت سأقرر أن أكتب وأنا الذي أكره الكتابة أكثر من أيِ شيءٍ في هذه الدنيا؟ إنه لشيءٌ ضروريٌ للشخص أن يخبر عما في نفسه. لو لم يحصل ماحصل بالأمس.. آه لو لم أعلم.. لربما كانت حياتي القديمة المريحة ستستمر.

بالأمس وأنا ذاهبٌ في طريقي صادفت شخصين. أحدهما كنت أراه لأول مرة، أما الثاني فربما أستطيع قول أنه كان من أبعد الناس عني. هل كان ليخطر على بالي حتى بأنه سيكون لهما هذه التأثيرات الهائلة على حياتي؟

لكن وبما أنني قررت أن أكتب مرةً، فسأسرد كل شيءٍ على مهل ومن البداية. لذلك، عليّ الرجوع اثنتي عشرة سنةٍ إلى الوراء. ربما خمسة

عشرة سنة. سأكتب من دون كلل.. فربما بسردي لكل التفاصيل والجوانب الغير مهمة أستطيع أن أخلّص نفسي من هذا التأثير. وربما يكون ما سأكتبه أقل مرارةً مما عشته في الحقيقة فأسعد قليلاً. من يدري، ربما أخجل من انفعالي عندما أرى أني كنت مبالغاً وأنني أعطيت أشياء سخيفة أكبر من حجمها الحقيقي.

كان أبي من هاوران[1]. ولدت وترعرعت وتلقيت تعليمي الإبتدائي هناك، بعد ذلك ذهبت إلى مدرسة اديرميت الإعدادية اللي كانت تبعد ساعةً عنّا. وفي آخر سنوات الحرب العالمية الأولى أُخذت إلى الجيش، وقد كان عمري تسعة عشرة سنة. لكنهم ما لبثوا أن أعلنوا الهدنة[2]، فعدت إلى البلدة. لكنني لم أعد إلى إكمال الإعدادية. لم يكن عندي شغف للدراسة أصلاً. فانقطاعي عن المدرسة لسنة والأحوال السيئة التي كانت تدور في البلاد جعلتني أنفر من الدراسة. تفككت كل الروابط من بعد الصلح، فلم تبق حكومة جيدة يمكن الوثوق بها، ولا هدف أو فكرة واضحة. كانت بعض المناطق محتلةً بواسطة قواتٍ أجنبية، وفجأةً بدأت عصاباتٌ كثيرةٌ بالتشكّل، تحت أسماء مختلفة وكثيرة. كانت أحياناً تنشط في تشكيل جبهات لمقاومة العدو، وأحياناً أخرى تقوم بنهب القرى. لم يكن غريباً أن البطل الذي كانت تلوك اسمه أفواه الناس بالأمس، تسمع بعد أسبوع عن إعدامه شنقاً

(1) Havran مدينة صغيرة في غرب تركيا – المترجم

(2) تم التوقيع على الهدنة في 11 نوفمبر من عام 1918.

في ميـدان أدرميـت بعد تعذيبه والتنكيل به في قسـم الشرطة. في أوقاتٍ مثـل هذه، لم يكن حبس نفسي بين أربعة جدران وقراءة التاريخ العثماني أو كتـب الأدب والأخـلاق بـشيءٍ جذابٍ بالنسـبة لي. لكـنّ أبي الذي كان أحـد أفراد المنطقـة الموسرين كان ولسـببٍ ما مهتـماً بتعليمي. على الأغلب أنه عندما رأى أن كثيراً من أقربائي الذين يتحزمون بالرصاص وينضمون للعصابات كان ينتهي بهم مصيرهم إلى القتل على يد الشرطة أو عصابـاتٍ أخـرى بدأ بالخوف على مسـتقبلي. في الحقيقـة كنت أتجهز بسريـةٍ أيضـاً، لأنني مللت مـن الفراغ. لكـن في غضـون ذلك جاءت قـوات الإحتلال إلى القرية، وأجبرتني عـلى أن أبتلع حماسي وطموحي في أن أكون بطلاً.

تسـكعت عدة أشهر كشـابٍ متشرد. اختفى أكثر أصدقائي مع الوقت، فقرر أبي إرسـالي إلى إسـطنبول. لم يكـن يعرف حتى إلى أين سـأذهب، كان يقول: «جد لنفسـك مدرسـةً، وتعلم!». ورغم كوني عديم الفائدة وخجـول دائـماً، إلا أن قـول أبي هـذا لي كان كافياً ليثبـت لي بأنه لم يكن يعرفنـي بـما فيه الكفاية. مهـما يكن، كنت أحس في داخـلي بميولٍ خفيةٍ لبعـض الاتجاهات. في المدرسـة كان هناك درس واحدٌ أنال فيه الدرجة الكاملـة، ألا وهـو الرسـم. فقد كنت أرسـم بشـكلٍ ممتـاز. كنت أفكر بـين الحين والآخر في دراسـة الفنون الجميلة بإسـطنبول وأخلق لنفسي أحلامـاً جميلة. في الواقع، كنت ومنـذ صغري طفلاً هادئاً يعيش في عالم الخيال. في طبعي خجل وتردد مبالغٌ فيهما لدرجة أنهما يتسببان في إساءة فهـم من حولي لي ويضعني في مواقف سـخيفة ومحرجة، مما كان يحزنني

كثيراً. حتى عندما كان زملائي في المدرسة يسيئون إليّ لم أكن أجرؤ على أن أدافع عن نفسي ولا حتى بكلمة، وعندما أعود إلى البيت كنت أجد لنفسي زاوية أجلس فيها وأنتحب. أتذكر ترديد أمي وأبي بالذات على أسماعي قول: »ياإلهي! كان من المفترض أن تولد أنثى ولكن حصل خطأ ما!«. كان أكثر شيء يمتعني هو الجلوس وحيداً في حديقة المنزل أو على حافة الجدول والغوص في خيالاتي. كانت خيالاتي وعلى العكس من شخصيتي: واسعةً وجريئة، مثل أبطال الروايات المترجمة الكثيرة التي قرأتها: كنت أتخيل نفسي متحزماً بمسدسين ومرتدياً لقناع، أهرب مع الفتاة التي تسكن في الحي المجاور. فخرية، والتي أحمل تجاهها الكثير من المشاعر اللذيذة والتي لم أستطع تحديد ماهيتها، إلى مغارة في الجبل متحدّين كل شيءٍ ومنقلبين عليه. أتخيلها بعد أن كانت مترددةً خائفة، كيف رأت أتباعي مرعوبين وهم يرتعدون خوفاً مني، وشاهدت الكنوز التي لامثيل لها في المغارة، وحينما أكشف القناع عن وجهي تقفز صارخة ومتعلقة برقبتي بسرورٍ لايمكن كتمانه. أحياناً كنت أصبح مثل كبار المستكشفين. أتجول في إفريقيا، وأمر بمغامراتٍ عجيبةٍ بين آكلي لحوم البشر، وأحياناً أخرى أكون رساماً وأتجول في أوروبا. كل الكتب التي قرأتها، كتب ميشال زيفاكو وجول فيرن وألكسندر دوما وأحمد مدحت أفندي و وجهي بك تركت في رأسي أثراً لا يُمحى.

كان أبي يستاء ويغضب من قراءتي، لدرجة أنه كان في بعض الأحيان يأخذ الروايات ويتخلص منها، وأحياناً يحرم غرفتي من نور المصباح في الليل. لكنه كفّ عن مضايقاته عندما رآني مرةً، أنا الذي كنت أجد حلاً

لكل شيء، أصنع من فتائل الخيط الصغيرة مصباحاً وأهرب من نفسي إلى قراءة «أسرار باريس» أو «البؤساء». كنت أقرأ كل شيءٍ تقع عليه يدي، وأتأثر بها جميعاً، سواءً كانت مغامرات مسيو لوكوك أو تاريخ مراد بك.

عندما كنت أقرأ في تاريخ روما القديم عن مفوّض اسمه ميوكوس سكيفولا، وجدت أنه وفي أثناء عقد مفاوضة صلحٍ، وكَرَدٍّ على تهديد له بالقتل في حال عدم قبوله بشروط المعاهدة، وضع ذراعه في النار المشتعلة بجانبه وأكمل بكل هدوءٍ إجراءات التفاوض. عندما قرأت كيف أنه بفعله هذا أثبت لهم أن التهديدات لا تخيفه، أردت أن أضع يدي في النار وأجرب مامرّ به بكل عزم وقوة، فأحرقت أصابعي بشكل بالغ. لم تترك صورة هذا الرجل الصامد الذي حافظ على ابتسامته في وجه أكبر الآلام مخيلتي أبداً. في بعض الأحيان، كنت عندما أشرع في محاولة الكتابة ونظم أشعار قصيرة سرعان ماكنت أتراجع عن ذلك، إذ كان خوفي من إخراج ما بداخلي بأي شكلٍ كان وترددي الذي لا أملك له سبباً يمنعاني من الكتابة على الدوام. لكنني تابعت الرسم فقط. لم أكن أشعر بأن الرسم هو طريقةٌ أخرى للتنفيس عما في داخلي. كان يبدو لي عبارةً عن وسيطٍ لعكس ما أراه على الورق فقط. ولكن عندما اكتشفت أنه ليس كذلك توقفت عن ممارسته أيضاً. كل هذا بسبب ذلك الخوف. أدركت بنفسي ومن دون مساعدة أحد كون الرسم شكلاً من أشكال التعبير عن النفس بينما كنت أدرس في معهد الفنون الجميلة بإسطنبول، ولم أكمل بعدها دراستي. لم يكن المدرسون يجدون فيّ شيئاً على أية حال.

كنت أعرض أكثر رسوماتي فراغاً. الخالية من المعنى والتي لاتعبر عن أي شيء وأخفي و أتحرج من إظهار أي رسمةٍ بها مايعبر عني أو يعرض أي شيءٍ مني بحرصٍ شديد. وعندما كانت إحداها تقع بيد أحدٍ ما كنت أفزع وكأنني امرأة ضبطت وهي عاريةٌ في وضع مخلٍ وأولّي هارباً. تسكعت في إسطنبول لمدةٍ طويلةٍ من دون أن أعرف ماذا أفعل. في سنوات الهدنة، أضحت المدينة عديمة الحياء ومضطربةً إلى حد لا أحتمله. طلبت من أبي مالاً لأعود إلى هاوران. وبعد عشرة أيام تلقيت مكتوباً طويلاً منه. وجد أبي حلاً أخيراً ليجعل مني رجلاً ذا فائدة. أخبرني فيه بأنه سمع بأن قيمة العملة في ألمانيا هبطت لدرجة أن المعيشة هناك أصبحت رخيصة جداً للأجانب، بل وأرخص منها في إسطنبول. وأنه بناءً على ذلك أرسل لي بعض المال لمصاريف السفر إلى ألمانيا لأتعلم حرفة صناعة الصابون هناك. سررت لدرجة هائلة. ليس بسبب محبتي وشغفي بهذه الحرفة أو ما يشابه ذلك. كان ابتهاجي بسبب ظهور فرصةٍ كهذه ومن دون أي جهدٍ أو توقعٍ مني، لزيارة أوروبا التي كانت موضوعاً لجلّ أحلامي وخيالاتي المتشكّلة بآلاف الأشكال. كان يقول في مكتوبه «تتقن الحرفة في غضون سنة أو سنتين وتعود، عندها سأوسع مصنع صابوننا وأصلحه ومن ثم أسلمه لك، وبالتالي تدخل أنت أيضاً إلى عالم التجارة وتسعد وتفرح بأطقم الذهب». لكنني لم أكن أفكر في هذا الجانب حتى.

كان توقعي هو أنني سأتعلم لغة اجنبيةً ثم أقرأ بها كتباً، وسأجد الشخصيات التي كنت أصادفها في الروايات فقط في أوروبا على

الحقيقـة. ألم يكن أحد أسـباب ابتعـادي عن محيطـي وتوحشي هو عدم إيجادي للشخصيات التي تعرفت عليها في الكتب وتقمصها؟

تجهـزت في غضون أسـبوع وتحركت بالقطار إلى برلين مـاراً ببلغاريا. لم أكـن أعرف أية لغـة. وبفضل بعـض الكلمات التي حفظتهـا من كتاب المحادثات في خلال أيام الرحلة الأربع، إسـتطعت أن أصل إلى المهجع الذي سجلت عنوانه لدي وأنا في إسطنبول.

مرّت أول أسابيعي هناك وأنا أتعلم الألمانية بما يكفيني لأدير أموري، وأتجـول في المدينـة مشـاهداً ما حـولي بذهـولٍ وإعجابٍ كبـير. لكن دهشـة الأيـام الأولى لم تسـتمر طويلاً. كانـت برلين أقـصى ما يمكن أن تكونـه مدينـة في زمانها. شـوارعها أوسـع بعض الـشيء، وأنظف بكثير، وأناسـها شـقرٌ أكثر. لكن لم يكن بها مايذهل الإنسان ويسوقه للدهشـة. لم أكن أعـرف ماهية أوروبا التي كانـت في خيالي بالضبط، بالتالي لا أسـتطيع أن أقيس برلين التي أعيش فيها الآن عليها وأعرف ماينقصها. أدركت وقتها أن الأشـياء الرائعة التي نحلم بها لا تتحقق كما هي في أحلامنا أبداً.

وتحت ظن بأنني لن أستطيع أن أجد عملاً قبل أن أتعلم اللغة، بدأت في تلقي دروس خصوصية في اللغة الالمانية من ضابطٍ ألمانيٍّ متقاعد كان في تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وتعلم خلالها قليلاً من التركية. كانت السـيدة صاحبة المهجـع أيضاً تثرثر معي في أوقات فراغها وتسـاعدني. نـزلاء المهجع الآخـرون كذلك كانوا لا يضيّعون فرصـةً لتبادل الكلام وتصديـع رأسي بأسـئلةٍ سـخيفة. على سـفر طعام العشـاء كان الحشـد

هجيناً متعدد الألوان. من بين أصدقائي كانت أرملةً هولندية اسمها فراو فان تيدمان، وتاجرٌ برتغاليٌ اسمه هير كامرا يستورد البرتقال من جزر الكناري إلى برلين، وهير دوبكه العجوز. آخرهم هذا كان يمارس التجارة في كينيا، والتي كانت تخضع للاستعمار الألماني، لكنه ترك كل ما يملك بعد الهدنة وعاد إلى وطنه. وبالمال البسيط الذي استطاع أن ينفذ به أصبح يعيش حياة متواضعة جداً. يقضي يومه في الذهاب وحضور الإجتماعات السياسية التي كانت تغص بها برلين في ذلك الوقت، ثم يعود في المساء ليحكي لنا عن انطباعاته. كان يحضر معه في مرات كثيرة أحد الضباط الألمان العاطلين والذين تعرف عليهم ويتناقش معهم لساعاتٍ طويلة. كانوا على حسب فهمي القاصر، يرون خلاص ألمانيا في تعيين رئيس بقيادةٍ حديديةٍ كبسمارك والبدء بالتسلح فوراً لخوض حرب عالمية جديدةٍ ورفع الظلم الذي حصل.

أحياناً كان أحد نزلاء المهجع يتركه، فتُخلى غرفةٌ سرعان ماتمتلئ بشخصٍ أخر. لكنني مع الوقت بدأت بالإعتياد، بل بالسأم من هذه التغيرات، ومن الثريا الحمراء التي كانت تضيء لنا صالة الطعام المظلمة على الدوام، ومن روائح أنواع الملفوف المختلفة التي كانت لا تختفي من السفرة أبداً، ومن المجادلات والمناقشات السياسية لأصدقائي. في هذه المجادلات، كان لكل واحدٍ منهم رأيٌ مختلف لخلاص ألمانيا. لكن كل هذه الآراء في الواقع لم تكن مرتبطة بمصلحة ألمانيا، بل بالمصالح الشخصية المرتبطة بكل واحدٍ منهم. فالمرأة التي خسرت ثروتها بسبب هبوط قيمة العملة كانت تحنق على الضباط، وتلوم الجنود الذي لم

يرغبوا في الاستمرار في الحرب، وتاجر المستعمرة كان يسب ويشتم في من أعلن الحرب على الإمبراطورية بلا توقف. حتى الفتاة التي كانت توظّب لي سريري في الصباح كانت تحاول الحديث معي عن السياسة، وفي أوقات فراغها تتصفح الجرائد. حتى هي كانت لها قناعاتها الملتهبة، وعندما تتحدث عنها كانت تلوح بقبضتها في الهواء ووجهها محتقن.

كنت وكأنني قد نسيت الهدف من مجيئي إلى ألمانيا. في كل مرة يصلني مكتوبٌ من أبي يذكرني بموضوع الصابون، كنت أكتب له في ردي بأنني مشغول حالياً بتعلم اللغة، وبأنني قريبا جداً سأتقدم للحصول على وظيفةٍ في شركة محترمة؛ أغافل نفسي وأغافله. أيامي تمرّ برتابةٍ شديدة وتشبه بعضها تماماً. تجولت في كل أنحاء المدينة، زرت كل حدائق الحيوان والمتاحف. كان مخيباً لأملي أن هذه المدينة المليونية تنتهي في خلال أشهر قليلةٍ فلا يبق فيها مكانٌ للزيارة. كنت أقول بيني وبين نفسي متهكماً: «هذه هي أوروبا! مالذي هنا ياترى؟» وأحكم على الدنيا كلها بأنها مملةٌ جداً. كنت في أغلب الأماسي أتجول وسط الزحام، وأتفرج في وجوه الناس وهم عائدون إلى بيوتهم. أناسٌ تعلو وجوههم نظراتٌ جديةٌ توحي بأنهم يمارسون أعمالاً مهمة، ورجالٌ مازالوا يحافظون على رتم خطواتهم العسكرية وهم يمشون وأذرعهم متشابكة مع سيدات ضحوكاتٍ مستندات عليهم.

وكي لا أكون قد كذبت على والدي، وبمساعدة بعض أصدقائي الأتراك، تقدمت للحصول على وظيفةٍ في شركة لصناعة الصابون. استقبلني الموظفون الألمان في الشركة التابعة لمجموعةٍ سويديةٍ بحفاوة

مـن لم ينسـى رفيقـه في الحرب، لكـن كان يبـدو لي أنهم يـترددون من إفشاء الجوانب العميقة لهذه الحرفة. ربما باعتبار أنها سر صنعتهم. ربما أخفوها عني لأنني لم أكن أبدِ شغفاً بهذه المهنة أصلاً، فلم يروا ضرورة لإضاعـة وقتهـم في تعليمي. ومع مرور الأيـام أصبحت لا أذهب إلى الشركة أساسـاً، ولم يسـأل الموظفون عني، وأبي لم يعد يراسلني كثيراً، فأكملت العيش في برلين من دون أن أفكر في سبب مجيئي الأولي إليها، أو بماذا سأفعل.

كنـت أتعلـم الألمانية ثلاث مراتٍ في الأسـبوع على يـد الضابط الألماني في المسـاء. وفي النهار أتجول زائراً المتاحف والمعارض الجديدة لأشـاهد اللوحـات، وفي المسـاء وقبل مئة خطـوة من وصـولي إلى المهجع كانت رائحة الملفوف تغزو أنفي. لم أعد أضجر كما كنت في السابق. شيئا فشيئا كنت أحـاول قراءة الكتب، ومـع الوقت بدأت بالاعتياد والاسـتمتاع بهـذا العمـل. لكنه بعد مدة تحول إلى مايشـبه الابتـلاء. فقد كنت أقضي السـاعات الطويلـة مضطجعـاً عـلى بطنـي، والكتـاب مفتـوح أمامـي وبجانبـه معجم لغاتٍ قديم قائم. كنـت في مراتٍ كثيرة لا أكلف نفسي عناء البحث عن معنى كلمةٍ ما في المعجم، فأنظر إلى سـياقها وأتجاوزها معطيـاً لهـا معنى من رأسي. كنت في حالٍ كأن دنيا جديدة تتفتح أمامي. في هـذه المرة لم تكن الكتب التي أقرأهـا تتحدث عن مغامرات لم تر من قبـل وأبطال وشـخصيات خارقةٍ كتلك الكتب المترجمـة أو المؤلفة التي كنت أقرأها في طفولتي وبداية شـبابي. ففـي جلّها كنت أجد أجزاء من نفسي وبيئتي، ومشاهداتي وأحاسيسي. كنت أستذكر الأشياء التي كنت

لا أفهــم كنهها مع أننــي كنت أعيش فيها ومعهــا وأعطيها ماكنت أظن أنــه معناها الحقيقي. كان الكتّابُ الــروس أصحاب التأثير الأكبر علي. كنت أقرأ حكايات تورجينيف الطويلة أكثر من مرةٍ في بعض الأحيان. واحدةٌ منها بالذات سـلبت لبّي لأيام. إحدى أبطال حكاياته فتاة بإسم كلارا ميليتـش تقع في حب تلميذ أخرق جداً. لكنها من دون إخبار أي أحد، وبسبب حرجها من حبها لأحمق مثله، ذهبت ضحيةً لهذا الابتلاء العجيب. لسـببٍ ما وجدت تلك الفتاة قريبة مني جداً، شـبهتها بنفسي مـن ناحية عدم اخبارها أي أحدٍ بما يجول في خاطرها، وتخبئتها لجوانب شخصيتها بغيرة مدهشةٍ وعدم الثقة بأحدٍ ما.

كان فنانــوا الرسـم القديم البارعين يوفـرون لي إمكانية عيش حياة بغير ملـلٍ أو سـأم. أحيانـاً كنـت أتفرج عـلى لوحة مـا في المعـرض الوطني لسـاعات، وفي الأيـام التالية أسـتحضر الوجـه أو المنظر الـذي كان في اللوحة في مخيلتي وأعيده للحياة.

كان قـد مر عـلى إقامتي في ألمانيا مـا يقارب العام. أتذكـر ذلك اليوم جيـداً، كان يومـاً مظلماً وممطراً من أيام تشريـن الأول. كنت أتصفح الصحف عندما لفت نظري مقال نقدي يناقش معرضاً افتتح مؤخراً لبعض الرسـامين الحداثيين. لم أكن أفهم أعـمال الفن الحديث كثيراً. ربـما كانت مبالغتهم وميلهم للتباهـي ومحاولتهم لجذب الأنظار بأي طريقـة هـي ماجعلني لا أعجب بأعمالهم، لذلـك لم أقرأ المقال حتى. لكـن بعد عـدة سـاعات، عندما كنت أجوب الشـوارع عشـوائياً في جولتـي اليومية، اكتشـفت أنني كنت واقفاً أمـام المكان الذي يقام به

المعرض تماماً. لم يكن هناك شيءٌ أفضل لأفعله، فقررت الدخول استسلاماً للمصادفة وتجولت لمدة طويلة وأنا أتفرج على اللوحات الكبيرة والصغيرة بلا اهتمام كبير.

كانت معظم اللوحات تثير على الأقل في المرء الرغبة في الابتسام: أكتاف ورُكب مربعة، رؤوس وأثداء غير متناسبة، ومناظر طبيعيةٍ بألوان صارخة وكأنها صنعت بواسطة ورقٍ لماع، ومزهريات كريستالية بلا شكل كأنها طوبٌ محطم، وورودٌ بلا روح كوردةٍ سُجنت بين صفحات كتابٍ لسنوات. وأخيراً، رسومات مخيفة كأنها أُخذت من ألبوم صور المجرمين المطلوبين للعدالة. لكن مهما يكن، فقد كان شيئاً ممتعاً. ربما كانت محاولتهم لخلق تأثير كبير بواسطة أبسط جهد يبذلونه هو ما أوجب الحنق عليهم. لكن لم يكن هناك بد من أن أشعر بالشفقة عليهم عندما أفكر بأنهم يعرفون أن أعمالهم ستُفهم خطأ وسيُستخف بها، بل وأن ذلك كان يعجبهم و يرضي ذوقهم المريض.

توقفت فجأةً مقابل حائطٍ قريبٍ من باب الصالون الكبير. لم يكن باستطاعتي، ورغم مرور كل هذه السنين، أن أعبر عما شعرت به في تلك اللحظة. كل ما أتذكره أنني وقفت متسمراً أمام لوحة امرأةٍ ترتدي معطف فرو. كان الناس يشاهدون اللوحات ويمرون بسرعةٍ وهم يدفعونني يميناً وشمالاً، لكني لم أستطع التحرك من مكاني. ماذا كان في اللوحة؟ .. أعرف أني لن أستطيع إيضاح ذلك، كان في وجه المرأة تعابيرٌ قوية - عبارة عن خليطٍ غريبٍ من الوحشية وقليلٍ من الغرور والاستعلاء. لكن وبالرغم من علمي بأني لم أر شبيهاً لهذا الوجه في أي

زمانٍ أو مكانٍ من قبل، إلا أنه انتابني احساسٌ بألفةٍ، وكأن بيننا معرفة مسبقة. هذه البشرة الشاحبة، هاتان العينان السوداوان تحت الحواجب السوداء، والشعر الكستنائيّ القاتم.. والأهم من ذلك، تلك التعابير الجامعة بين البراءة والحزم، والحزن اللانهائي والشخصية القوية؛ وجهٌ مثل هذا ليس بغريبٍ عليّ أبداً. كنت أعرفها من الكتب التي كنت أقرأها مذ كان عمري سبعة أعوام، ومن الخيالات التي كنت أنسجها مذ كان عمري خمساً. كان بها صفاتٌ من نهالِ ضياء خالد أوشاك غيل [1]، ومهجورةٍ وجيهي بك، وحبيبة تشيفالير، وكليوباترا التي قرأت عنها في كتب التاريخ، بل كان بها أيضا شيءٌ من السيدة آمنة أم الرسول محمد، التي كنت أتخيلها عندما أستمع في احتفالات المولد النبوي إلى الأناشيد الدينية. كانت امرأة مركبة من كل نساء خيالي، مزيجٌ منهم. داخل معطف من فرو السنّور البري، وجزءٌ بسيطٌ باهتٌ يظهر من رقبتها البيضاء رغم جلوسها في الظل، وفوق الرقبة وجهٌ بيضاوي ملتفتٌ إلى اليسار قليلاً. عيناها السوداوان تنظران إلى الأرض وكأنها مستغرقةٌ في تفكيرٍ عميق، تريد البحث عن شيء ما بأملٍ أخير، رغم تأكدها بأنها لن تجده. رغم ذلك كان الحزن الذي يكتنفها مختلطاً بالإستغناء. كأن لسان حالها يقول: «أعرف، لن أجد ما أبحث عنه.. ماذا في ذلك؟». كان تعبير اليأس هذا يُرى بوضوح على شفتيها الممتلئتين، الشفة السفلى بالذات. أجفانها منتفخةً قليلاً.

---

(1) شخصية في رواية "العشق الممنوع" لكاتبها ضياء خالد أوشاك غيل.

وحواجبها ليست بالغليظةُ ولا بالخفيفة، لكنها قصيرة قليلاً. وشعرها الكستنائي الغامق يتهدل مغطياً أجزاء من جبهتها الواسعة وينسدلُ في النهاية ملامساً زغب الفرو. ذقنها حادُ ومائلُ إلى الأمام قليلاً. أنفها دقيق وطويل مع خنّابتين ممتلئتين بعض الشيء.

ارتجفت يداي وهما تتصفحان الألبوم أملاً في إيجاد مزيد من التفاصيل عنها. في النهاية، وفي الطرف الأسفل من أحد الصفحات الاخيرة، وبجانب رقم اللوحة قرأت هذه الثلاث كلمات: ماريا بودر، سيلبسبورتريت. لم يكن هناك شيءٌ آخر. كانت هذه اللوحة هي الوحيدة التي عرضها الفنان، يُفهم من ذلك أنها كانت لوحة شخصية (Self Portrait). كنت سعيداً بذلك. فربما لو كانت لها أعمال أخرى لما كان لها كل هذا التأثير علي، بل ولربما قل إعجابي باللوحة كثيراً. بقيت بالداخل لوقتٍ متأخر. أتجول أحياناً بين لوحات المعرض، أنظر إليها من دون تدقيقٍ. لكنني سرعان ما أعود إلى نفس اللوحة وأعيد تأملها لوقت طويل. في كل مرةٍ كنت أرى فيها تعابير جديدة، كأنني أرى حياةً تُظهر نفسها أكثر فأكثر. بدأت أظن بأن العينين المحدقتين إلى الأسفل كانتا تختلسان النظر إليّ، وبأن الشفتين تتحركان بخفة.

لم يتبق أحدٌ في الصالون. الغالب أن الرجل الطويل الواقف بجانب الباب كان ينتظر خروجي. جمعت نفسي بسرعةٍ وخرجت. كان المطر هتاناً. وعلى عكس كل ليلة، عدت إلى المهجع مباشرةً من دون تسكع. كان كل ما أريده هو أن أتناول عشائي بسرعة، وأذهب لغرفتي لأجلس وحيداً وأستحضر وجهها أمامي من جديد. لم أنطق بشيءٍ على طاولة

العشاء. سأل صاحب المهجع فراو هيبنر:
- "إلى أين ذهبتم اليوم؟"
أجبت: «تجولت فقط، ثم ذهبت إلى معرضٍ للفن الحديث.».
بدأ كل من في الصالة يتكلم عن الفن الحديث، وتسللت أنا إلى غرفتي. بينما كنت أخلع ملابسي سقطت من جيب معطفي صحيفةٌ على الأرض. تناولتها وعندما وضعتها على الطاولة بدأ قلبي في الخفقان سريعاً. كانت هذه هي الصحيفة التي اشتريتها في الصباح والتي لمحت بها المقال عن المعرض بينما كنت أقرأها وأنا في المقهى. وبنيّة معرفة أي معلومة عن اللوحة أو الرسامة فتحت الصفحات بتعجلٍ لدرجة أني كنت أجعدها وأنا أبحث عن المقال. حتى أنا نفسي كنت متعجباً من هذا الاضطراب والحماس وهو يصدر من شخصٍ متأن وهادئٍ مثلي. ألقيت نظرةً على المقال من بدايته، وعندما وصلت إلى وسط المقال تسمّرت عيناي فجأةً على كلمات بين السطور: ماريا بودر.
كان المقال يتحدث بإسهابٍ عن هذه الفنانة التي عرضت عملاً لها لأول مرةٍ في هذا المعرض. الرسامة التي يبدو أنها تريد المضي في طريق الفن الكلاسيكي أكثر، صاحبة الملَكة المذهلة في التعبير. يقال أنها ليست كمثل الكثير من زملائها رسامي اللوحات الشخصية -بورتريه - صاحبات الميل لـ(تجميل) أنفسهم أو (تقبيحها) عناداً. يذكر المقال أيضاً أنهم وبعد دراسة فنيةٍ طويلة توصلوا من خلال النظر إلى وضعية وتعابير وجه المرأة في اللوحة، إلى اعتقاد بأنها وبتصادف فريد، تشبه

مريـم العذراء في لوحة أندريه ديل سـارتو (مادونا الهاربيز)[1]، وأكمل كلامه شبه مـازحٍ متمنيـاً التوفيـق لـ(مادونـا معطف الفـرو) ومنتقلاً للحديث عن رسامٍ آخر.

أصبـح عـلى سـلمٍ أولويـاتي في اليوم التـالي الذهـاب إلى تاجرٍ مشـهور بالنسـخ وبيع النسـخ، والبحث عن لوحـة (مادونا الهاربيـز). وجدتها وسـط ألبوم كبير لسارتو. ورغم أن الطباعة كانت رديئةً ولم تكن تُظهر شيئاً كثيراً، إلا أن صاحب المقال كان محقاً: تلك المادونا الجالسة في مكان عالٍ وبيدها الطفل المقدس - يسوع - وكأنها غير واعيةٍ بوجود الرجل الملتحي والشاب بجانبها، كان هناك مللٌ وكدرٌ بادٍ في نظراتها وشفاهها وإلتفاتة رأسها هو عينه الذي رأيته في اللوحة باالأمس. ولإمكانية شراء الصفحـات متفرقة لديهم، اشـتريتها وعدت إلى غرفتـي. عندما دققت فيها متأملاً حكمْتُ من وجهة نظرٍ فنية أن بها شـيئا فريداً يميزها. لأول مرة في حياتي أرى مادونا[2] بهذا الشكل، ففي كل تصاوير ورسوم مريم العذراء التي رأيتها إلى الآن، كانت هناك براءةٌ ونقاءٌ بارز بشـكلٍ مبالغ فيـه وزائدٍ عـن اللزوم؛ كأنها تريد أن تقول للأطفـال الذين ينظرون إلى الرضيـع الذي في حضنهـا:» أرأيتم؟ كيف أحسـن إليّ ربي!»، أو كانت تشـبه الخادمات الصغيرات الذين ينظرون إلى طفلٍ لا يسـتطيعون ذكر اسم أبيه ويبتسمن بذهول.

(1) Madonna of the Harpies

(2) كلمة مادونا نفسها تعني: "مريم العذراء".

بينما كانت مريم التي في لوحة سارتو تبدو وكأنها تعلمت التفكير، وأصدرت أحكامها بحقّ الحياة وأصبحت تستخفّ بها. لا إلى الراهبين الواقفين بجنبها، ولا إلى المسيح، ولا حتى إلى السماء، بل إلى الأرض كانت تنظر و ترى شيئاً ما بالتأكيد.

تركْتُ الرسمة على الطاولة. أغمضت عينيّ، حاولت التفكير في لوحة المعرض. لم يخطر على بالي أن المرأة المرسومة في تلك اللوحة موجودةٌ في الحقيقة إلا الآن. هذا هو الواقع، فنظراً إلى حقيقة أن الفنانة قد رسمت نفسها في تلك اللوحة، فهذا يعني أن هذه المرأة الرائعة موجودةٌ على قيد الحياة، تتجول وسطنا، تنظر بعينيها السوداوين العميقتين إلى الأرض أو إلى مايقابلها، تفتح فمها ذا الشفة السفلى المكتنزة وتتكلم. هناك احتمالٌ بأن أراها في أي مكان. عندما فكرت في هذا الإحتمال، كان أول شعورٍ ينتابني هو الخوف. فمقابلة شخص لم يخض أي مغامرةٍ في حياته مثلي لامرأةٍ مثلها سيكون شيئاً مرعباً.

رغم أن عمري أصبح أربع وعشرين سنة، إلا أنه لم يكن لي أي مغامرة مع أي امرأة من قبل. لم تكن المغازلات التي فعلناها في هاوران بإرشاد بعض أصدقاء الحي الأكبر سناً أكثر من مجرد مغامراتٍ عابرةٍ تحت تأثير السكر. كان الملل السريع في طبعي كافياً لمنعي من تكرارها. فالمرأة التي كانت بالنسبة لي منشط خيالي، وتشغل أحلامي عندما كنت أتمدد مستلقياً تحت أشجار الزيتون في أيام الصيف القائظة وتجعلني أعيش مغامراتٍ لانهائيةٍ معها، كنت أراها مخلوقاً بعيداً عن المادة، مخلوقاً لا يُقترب منه. جارتنا فخرية التي كنت أعشقها لسنوات طويلة من دون

علـم أحـد، ورغم أني عشـت معهـا في خيـالاتي مغامرات كثـيرة مليئة بقلـة الأدب والحيـاء، كنـت عندمـا أواجهها في الشـارع صدفـةً تهجم علي أزمة تسـارع نبضٍ تكاد من شـدتها أن تطرحني أرضاً، فأبحث عن مفـر ووجهي يلتهب نـاراً. وفي ليالي رمضان، كنـت أختبئ مقابل باب بيتها لأشـاهدها خارجة مع أمها وبيدها فانوس وهما ذاهبتان إلى صلاة التراويـح، لكن ما أن يكاد الباب يُفتـح وتظهر تحت النور المتسرب من الداخل أجسـاد متجلببة حتى أسرع بإشـاحة وجهي وأبدأ في الارتعاد خوفاً من أن يروني.

عندما كنت أعجب بأي أنثى وبأي شكل كان، كان أول شيءٍ أفعله هو الهرب منها. عندما نتصادف في مكان ما كنت أخاف من أن تبوح حركة من حركاتي أو نظرة من نظراتي بسري وينتابني شعورٌ لا يمكن وصفه، خجلٌ خانق يجعلني أشـعر بأنني أكثر الناس بؤسـاً. لا أذكر أني حدّقت في عـين أي امرأةٍ في حياتي كلها، حتى عين أمي. في السـنوات الأخيرة، وفي ظرف المدة التي كنت فيها في إسطنبول بالذات، عزمت التغلب على حـس الخجل الزائد هذا، وحاولت التـصرف طبيعياً مع بعض الفتيات الـلاتي تعرفت عليهنّ بواسـطة بعـض الأصدقاء. لكـن سرعان ماكان عزمـي وقراراتي تطير، وتهرب اللحظة التي كنت أبدأ فيها بالإحسـاس بالألفـة تجـاه إحداهنّ. لم أكـن إنسـاناً بريئاً أبـداً: فالنسـاء الذين كنت أُحْبِبهـنّ في مخيلتي عندمـا أكون وحيداً، كنت أعيـش معهن لحظاتٍ لا تخطر على ذهن أكثر العشـاق فحولة. أحس بضغط شـفاههن السـاخنة والمُسْـكرة عـلى فمي. كان إحسـاسي بهـا أكثر ممـا هو ممكـنٌ في الحقيقة

بأضعـاف. لكـن مادونا التي رأيتها في المعرض شـغلت عقلي لدرجة لا تسمح لي بالمساس بها حتى بخيالي. لم تكن الصعوبة في تخيّل مشهد حب بينـي وبينها، بل حتـى في التفكير بالجلوس مقابلهـا كصديق. في مقابل ذلـك، كانت رغبتي في الذهـاب إلى المعرض لأتأمـل اللوحة وأغوص في عينيهـا، اللتان بت متأكداً أنهما لم تكونـا تتابعاني، تزداد وتتضخم مع مـرور الوقت. ألقيـت بالمعطف على ظهري وسـلكت طريق المعرض، واستمر هذا الحال أياماً متتالية.

كنـت أذهـب إلى المعرض في ظهيرة كل يوم، وأتظاهر بمشـاهدة وتأمل اللوحـات المعلقة على جانبي الرواق بتـأنّ، بينما في داخلي كنت لا أطيق الانتظـار حتـى أصـل إلى هـدفي الحقيقـي وأتجـول وأنـا بالـكاد أضبط خطواتي المتعجلة، حتـى إذا وصلت إلى (مادونا صاحبة معطف الفرو) تظاهرت بأني قد وصلت إليها صدفة، فأبقى متأملاً ومتفرساً فيها حتى موعد إغلاق المعرض. أدركت في هذا الوقت أن حراس المعرض وكثير من الفنانين لاحظوا تواجدي هناك بشـكل يومـي. فبمجرد دخولي إلى المعـرض تبدأ وجوههـم بالإبتسـام وعيونهم بمتابعة مهـووس اللوحة العجيـب. في آخـر الأيام تركت الـدور التي كنت أمثلـه في الأيام قبلها في تصنـع الاهتـمام باللوحات الأخرى. فأصبحت أتوجـه مباشرةً أمام (مادونا صاحبـة معطف الفرو)، وأجلس على أحد المقاعد متفرجاً على اللوحة لفترة، وناظراً أمامي عندما تصاب عيني بالتعب.

كان من المؤكد أن وضعي هذا سيوقظ فضول المتواجدين في المعرض. في يومٍ من الأيام حصل ما كنت أخشـاه. جاءت إحدى الفنانات الشابات

اللاتي كنت أصادفهن في المعرض ووقفت بجانبي سائلةً: «هل أثارت اللوحة فضولك كثيراً؟ كل يوم تأتي لمشاهدتها!»

رفعت عينيّ وخفضتها بسرعة. ضايقتني لهجتها اللامبالية وضحكتها المستهزئة جداً. كان يبدو أن صاحبة الحذاء ذو المقدمة الطويلة الواقفةً أمامي المحدقة في وجهي، تنتظر جواباً. كانت ساقاها العاريتان أسفل تنورتها القصيرة، ولا أنكر بأنهما كانتا جميلتان، تهتزان بين حين وآخر فتعطيان جسدها موجات تمتد حتى جواربها مارةً بركبها المستديرة. عندما رأيت بأنها لا تنوي الذهاب من غير جواب أجبتها: «نعم، لوحةٌ جميلة!». ثم لا أدري، شعرت بأن علي أن أكذب وأعطي إيضاحاً فهمهمت مستطرداً:

- "إنها تشبه أمي."
- "آها، معنى ذلك أن هذا هو سبب مشاهدتك لها بالساعات!"
- "نعم!"
- "هل أمك متوفية؟"
- "لا!"

انتظرت وكأنها تريدني أن أكمل كلامي. أكملت مطأطئاً من دون أن أحرك رأسي:

- "تعيش في مكانٍ بعيد."
- "صحيح؟..أين؟"
- "في تركيا!"
- "أنت تركي؟"

- "نعم!"
- "خمنت كونك أجنبياً!"

أطلقَت ضحكةً خفيفة، وبراحةٍ ومن دون كلَفةٍ جلست بجانبي. عندما وضعت ساقاً على ساق ارتفعت تنورتها إلى مافوق الركبة فشعرت بالنار تشعل وجهي كالعادة. كان يبدو أن حالي هذا مسلٍّ بالنسبة لها. سألَت مجدداً:

- "أليس لديك صورة لأمك؟"

كان يزعجني فضول هذه المرأة الزائد. أدركت أنها كانت تفعل ذلك للتسلية فقط ليس إلا. والرسامون الآخرون ينظرون إلينا ويتضاحكون بالتأكيد.

- "عندي ولكن.. هذه مختلفة!"
- "صحيح؟ يعني هذا أنها مختلفة!"

وأطلقت ضحكةً صغيرة أخرى على الفور.

تحركت كأني أريد الخروج والهرب. لاحَظت المرأة ذلك وقالت:

- "لاتنزعج، أنا ذاهبة. سأتركك مع والدتك وحدكم."

نهضت ومشت عدة خطوات ثم توقفت فجأة وعادت إلى جانبي، هذه المرة قالت بنبرة مختلفة وجدية، بل وحزينة:

- "هل تريد أمّاً مثلها حقاً؟"
- "نعم.. ولأيّ درجة!"
- "حقا؟"

أدارت ظهرها ومضت بخطوات شابةٍ وسريعة. رفعت رأسي أخيراً

ونظرت. كان شعرها القصير يتماوج على عنقها، ولأنها تضع يديها في جيوب تيورها الضيّق أساساً، أصبح ملتصقاً بجسدها أكثر.

عندما استوعبت أني قد كذبت عليها في آخر جملةٍ قلتها لها، وقعت في ذهولٍ شديد، ونهضت لحظتها من مكاني من دون حتى أن أجرؤ على أن ألتفت حولي وفررت خارجاً. في داخلي شعور انسان اضطر ان يودع ويفارق شخصاً تعرّف عليه وألفه في إحدى رحلات السفر. أدركت بأني لن أستطيع أن أخطو بقدمي داخل المعرض مجدداً. فالناس، الناس الذين لايفهمون أو يتفهمون بعضهم، نفّروني من هذا المكان أيضاً.

بمجرد عودتي للمهجع، وبعدما خطر على بالي أن أيامي السابقة الفارغة ستعود من جديد، وأنني سأعود لسماع خطط إنقاذ ألمانيا وتذمر أصحاب الطبقة المتوسطة الذين خسروا ثروتهم بسبب التضخم على مائدة الطعام، وبأنني سأعود أغلق على نفسي غرفتي وأقضي وقتي مع حكايات تورجينيف أو ثيودور ستورم، أدركت حينها معنى فقدان حياتي للمعنى الذي اكتَسَبَته في خلال هذين الأسبوعين. فرصةٌ واحدة، فرصة لم يكن بإمكاني تخيل تحققها حتى، جاءت إلى عمري أنا الذي يضيع ويمضي هدراً. ثم فجأة ومن دون سابق انذار، وكما جاءت بغتةً من قبل، انسحبت واختفت من دون أي سبب. لم أبدأ في استيعاب ذلك إلا الآن. مذ عرفت نفسي، وأنا أقضي من دون أن أدرك أو أعترف لنفسي، كل أيام عمري بحثاً عن إنسان بعينه، ولذلك كنت أهرب من الناس الآخرين. تلك اللوحة جعلتني أؤمن - ولو لمدة قصيرة -

بإمكانيـة عثوري على ذلك الإنسـان، وبأنني قريـب منه جداً، وأيقظت في داخلي أملاً لا يُمكن إخماده. لهذا السـبب أصبحت خيبة أملي في هذه المرة كبيرة. هربت مما حولي أكثر، وتواريت داخل نفسي بشكلٍ أعمق.

فكـرت بالكتابـة إلى أبي عـن نيتي في العـودة إلى تركيا، لكـن بماذا كنت سـأجيبه لو سـألني: "ماذا تعلمت في أوروبا؟". فقررت المكوث لعدة أشـهرٍ أتعلم في ظرفها حرفة "صابون المسـك" إلى الدرجة التي ترضيه وتسـعده. تقدمت لنفس الشركة السويدية من جديد، ورغم استقبالهم البـارد نوعـاً ما لي إلا أنني بـاشرت في الانتظام بالعمـل. بدأت بتدوين صيـغ وأصول صناعة الصابون التي كنت أتعلمها في دفترٍ باعتناء كبير، ولم أنس قراءة الكتب المتخصصة في هذا المجال أيضاً.

ازدادت صداقـة زميلة المهجع الهولندية فراو تيدمان معي أكثر في الفترة التـي تلت. ففي أنصاف الليالي، كانت تناولني إحدى روايات الأطفال التي اشـترتها لابنها ذي العشر سـنوات لأقرأها لها وتسـألني عن رأيي بهـا. وفي بعـض الأماسي كانت تأتي إلى غرفتي بعد العشـاء تحت حججٍ واهيـةٍ وتجلـس مثرثرة لمـدة. في أكثـر الأحيان كانت تحـاول معرفة نوع المغامـرات التي خضتها مـع الفتيات الألمانيـات، وعندما كنت أخبرها بالحقيقة كانت تقابلني بنظرةٍ وابتسـامةٍ خبيثتين، ملوحة لي بسـبابتها في الهـواء وكأنهـا تقول لي: "يالك من قوادٍ لعـوب!". عرضت عليّ في يوم من الأيام أن أخرج معها لنتمشى سوية، وفي المساء وبينما نحن عائدون أصرت عـلى ذهابي معهـا إلى الحانة. شربنا إلى وقـت متأخرٍ من دون أن نلاحظ الوقت.

منذ قدومي إلى هنا كنت أشرب الجعة بين حين وآخر، لكنني لم أشرب بهذا القدر أبداً من قبل. أذكر أنه عندما بدأ المكان بكامله يدور حولي لم أتمالك نفسي وسقطت مترنحاً على حضن فراو تيدمان. بعد مرور مدةٍ لا أعلمها وعندما عاد إلي بعض الوعي استيقظت بفضل المنديل المبلل الذي كانت تمسح الأرمل الهولندية طيبة القلب وجهي به.

"لنعد إلى البيت حالاً."، قلت، وأصرّت المرأة على دفع الحساب. وعندما خرجنا لاحظت بأنها أصبحت أكثر قرباً وحميمية معي. كنا نمشي متشابكي الذراعين ومصطدمين بمن حولنا في الطريق. لم تكن الطرق مزدحمةً بما أن نصف الليل قد اقترب. في مكاننا وبينما نحن نعبر الطريق إلى الجهة الأخرى حصلت حادثةٌ غريبة: لحظة وصولنا للرصيف المقابل علق حذاء فراو تيدمان في حافته؛ عندما حاولت المرأة البدينة قليلاً التمسك بي لتفادي السقوط، وبسبب أنها أطول مني غالباً، تعلّقت برقبتي. لكنها هذه المرة لم تتركني حتى بعد استعادتها لتوازنها، كانت تجذبني بشدة بين ذراعيها. لا أدري أكان ذلك من تأثير السُكر أم ماذا، نسيت خجلي وحضنتها بشدة. وفجأة أحسست بشفاه هذه المرأة الثلاثينية في وجهي. مع أنفاسها الدافئة، نشرت هذه المودَّة الفياضة شيئاً يشبه الرائحة القوية والجميلة في داخلي. كان المارّون من جانبنا يبتسمون كأنهم يتمنون لنا السعادة. في هذه الأثناء، وقعت عيني على امرأة تحت عمود إنارةٍ على بعد خمسة عشرة خطوةٍ ومتقدمةً باتجاهنا. شعرت بجسمي كله بدأ يرتعش بشكلٍ ودرجةٍ لا توصف. عندما لاحظت،المرأة التي كانت مازالت متعلقة بي ذلك تهيجت أكثر

وأغرقت رأسي بالقبلات. لكني في تلك اللحظة كنت أحاول الفكاك منها والنظر إلى المرأة المقتربة نحونا. كانت هي. الوجه الذي لمحته للحظة، أشعل شيئاً كشرارة في عقلي المغيّب. هذه، داخل معطف فرو السنّور البري، بوجهها الشاحب، وعيناها السوداوان وأنفها الحاد، هي نفسها التي رأيتها في لوحة المعرض، (مادونا صاحبة معطف الفرو). بتعابير وجهها الدالة على الحزن والملل، كانت تمشي كأنها غير واعيةٍ بما حولها. عندما رأتنا تعجّبَت لثانيةٍ وتلاقت نظراتنا في نفس اللحظة. لمحت في عينيها شبح ما يشبه الابتسامة. فانتفضْت وكأني تلقيت ضربة سوط على رقبتي. ورغم ثمالتي إلا أني كنت أعي تماماً معنى فاجعة أن تكون هذه هي المرة الأولى التي تصادفني فيها، وبالتالي تحكم عليّ منها. نفذت بنفسي من بين ذراعي السيدة الكبيرة، وركضت فورا للحاق بـ(مادونا صاحبة معطف الفرو). ركضت إلى رأس زاوية الشارع من دون أن أعرف ماذا سأفعل أو أقول لها. لقد اختفت من الوجود. بحثت عنها في نواحي المنطقة لدقائق، لكن لم يكن هناك أحد. لحقت بي فراو تيدمان مجدداً وسألتني: "ماذا أصابك؟ أخبرني، ماذا حدث لك؟". ساقتني إلى المهجع وهي تشبك يدها في ذراعي. كانت تضغط بيدي على جسدها وتميل على وجهي ونحن نمشي في الطريق. في هذه المرة أحسست بأنفاسها الحارة ثقيلةً لدرجة لا تحتمل، لكني ورغم ذلك لم أكن أقاوم. لم أعتد في حياتي على مقاومة أي أحد. كل ما كان بيدي فعله هو الهرب. لكنني لا أستطيع فعل ذلك الآن. كانت المرأة تمسك بي قبل أن أستطيع الإبتعاد لثلاث خطوات. زيادة على ذلك، كانت الصدفة

التي حصلت قد تركتني مذهولاً. بدأت مع انجلاء السكر عن عقلي أحاول التفكير بشكل مترابطٍ وأستذكر عينيها اللتين نظرتا إلى عينيّ وابتسمتا قبل دقائق قليلة. لكن كل ذلك أصبح الآن يبدو لي كخيال. لا، لم أرها. لا يمكن أن أكون قابلتها على وضعي هذا. كل هذا كان كابوساً صنعه احتضان وتقبيل المرأة التي بجانبي لي وأنفاسها التي كانت تلفح وجهي. أردت الذهاب إلى غرفتي والتمدد على سريري والنوم متخلصاً من كل هذه الأوهام السخيفة، لكن لم يبدو أن في نية المرأة أن تتركني أبداً. مع اقترابنا إلى المهجع كانت تصرفاتها تهتاج أكثر، وذراعاها تتشبثان بي بحرصٍ أكبر.

وبينما نحن نصعد الدرَج ارتمت على عنقي من جديد، فاستخلصت نفسي منها بحركةٍ رشيقةٍ وهربت صاعداً. ركضت خلفي بأنفاس متلاحقة مزلزلةً الدرجات بجسمها الممتلئ. وبينما كنت أدخل المفتاح في قفل الباب ظهر تاجر المستعمرة هير دوبكه في الردهة. كان يمشي ببطءٍ شديد. ونظراً لأنه لم ينم إلى هذه الساعة، فهمت بأنه كان ينتظرنا فتنفست الصعداء، كان كل نزلاء المهجع يعرفون أن هير دوبكه شديد الثراء، كان يغذّي الأرملة التي كانت في ذروة إشتعالها على آمالٍ وأحلامٍ لذيذة. حتى أنه كان يقول لي بأنها لم تستهجن ما يكنه لها من حميم المشاعر، وبأنه مازال يتمتع بعافيته رغم تجاوزه سن الخمسين، حكى لي عن نواياه بخصوص ربط هذه المرأة به بأربطةٍ ناعمة. وكصديقين قابلا بعضهما في الردهة، توقفا متحدثين لبعض الوقت. فدخلت لغرفتي وأقفلتها من الداخل في الحال. كانت هناك محادثة تدور في الخارج،

واستمرت لمدة طويلة عن طريق التهامس. يُفهم منها أن الأجوبة على الأسئلة التي كانت تُسأل كان لها تأثير مطمئن على أذن السائل الذي كان مستعداً لتصديق أي شيء من دون شك. بعد قليل بدأ تهامسهم يبتعد مع صوت وقع أقدامهم إلى طرف الردهة، ثم اختفى.

استغرقت في النوم بمجرد استلقائي في السرير، وإلى حلول الصباح رأيت أحلاماً مقلقة. كانت مادونا صاحبة معطف الفرو تظهر أمامي بأشكالٍ عديدة. ترعبني بابتسامتها العجيبة والساحقة تلك. أردت أن أكلمها، أن أخبرها بأشياء، أن أوضح لها، ولكنني لم أفلح في ذلك. كانت تعابير عينيها السوداوين الحادة تجمّد حنكي عن الكلام. وعندما كنت أرى نفسي كمحكومٍ عليه، وأرى عدم استعدادها لتغيير حكمها، أرتعد وأقع في قنوطٍ شديد. استيقظت قبل انبلاج الصبح، وانتابني صداع بمجرد استيقاظي. أشعلت المصباح وحاولت قراءة بعض الأشياء. كانت السطور تمحي من أمام عينيّ، وتظهر من بين الغبش في وسط الصفحات البيضاء عينان سوداوان ساخرتان، كانتا تضحكان بصمتٍ على بؤسي. لم أستطع تهدئة نفسي رغم علمي بأن مارأيته البارحة كان محض خيالٍ فقط. ارتديت ملابسي وخرجت. كان صباحاً بارداً ورطباً من صباحات برلين. لم يكن في الشوارع أحد عدا أطفالٍ يجرّون عرباتهم اليدوية لبيع الحليب والزبدة والخبز للمنازل. وفي طرف الشارع رجال شرطةٍ يحاولون تمزيق بياناتٍ ومنشوراتٍ ألصقها بعض المتمردين. مشيت بمحاذاة ضفة النهر حتى تيغرتان. على سطح المياه الساكنة إوزّتان تطفوان من دون أي حركةٍ وكأنهما دميتان. العشب

ومقاعـد الحديقة مبتلةٌ بالندى. على الأرض كانت هناك صحيفة مجعدة وشبه ممزقةٍ ودبوس شعر. عندما رأيتها تذكرت حالي ليلة البارحة. على الأرجـح أن فـراو تيدمـان أوقعت الكثير مـن دبابيس الشـعر في الحانة والشـوارع، والآن يحتمل أنهـا غاطة في نوم عميـق بجانب هير دوبكه، وربـما تفكر بأن لاضرورة لاسـتيقاظها مبكراً وعودتهـا إلى غرفتها قبل استيقاظ الخدم.

ذهبـت للمصنـع أبكر مـن العـادة وحيّيت البـواب من قلبـي. عزمت عـلى التخلص من أوهامـي عن طريق الانشـغال والانهماك حتى رأسي في مشـاكل العمـل، وبجانـب مرْجل الصابـون الذي تفـوح منه رائحة الـورد دوّنـت في دفتري ملاحظاتٍ طويلة. سـجلت حتـى أي نوع من الشركات صنعت المكابس التي نستخدمها للوسم على الصابون. كنت أتخيـل نفـسي مديراً لمصنـع الصابون الكبـير الذي سأسسـه في تركيا، و أتخيل صابوني الوردي والبيضاوي الشـكل مختوماً بشـعار «محمد رائف -هاوران»، مغلفاً بأوراق تعبق برائحةٍ جميلةٍ وهو ينتشر ويشتهر في كل أرجاء تركيا.

لاحظـت بحلول الظهر أن همي وقلقي بـدآ بالتلاشي، وأني بدأت أرى الحيـاة بلونٍ وردي. عرفت لأي قدرٍ كنت أكدر على نفسي بأمورٍ تافهة، وألقيت باللوم كله على كوني شخصاً حالماً واهماً منغلق على نفسي أنسج الخيالات. لكنني سـأتغير اليوم، سأقلل من قراءة الكتب التي لا تتعلق بمهنتي. مالذي ينقص ابن أشرافٍ مثلي كي يكون سعيداً؟

في هـاوران كانت تنتظرني مزارع زيتون أبي، ومصنعين ومتجر صابون.

بأخـذي لحصص أخواتي الكبار المتزوجات من أغنياء، سـأعيش كأحد تجـار تركيا المعتبريـن. دُحر الأعداء من الوطن، وحَـرر الجيش الوطني هاوران[1]. كان أبي في رسائله مسروراً محتفلًا، مسطراً إياها بجملٍ تعبر عـن حب الوطـن. وحتى نحـن هنا، تجمعنـا في السـفارة التركية وذقنا شيئاً من طعم الانتصار. بين حينٍ وآخر كنت أخرج عن صمتي المعتاد وأشـارك مـع هير دوبكـه وأصدقائه الضبـاط بأرائـي في مواضيع إنقاذ ألمانيـا وثـورة الأناضول[2] اعتـماداً على ما لدي مـن معلومات. في تلك الأجـواء لم يكن هناك ماينغـص عليّ. ما الدور الذي سـتلعبه صورةٌ لا معنـى لها -أو حتـى ذات معنى، مهما يكن- منبثقةٌ عن روايةٍ من نسـج الخيال في حياتي. لا، من اليوم فصاعداً سأتغير تماماً.

ورغـم كل هـذا إلا أنه بمجرد انتشـار الظلام وحلول المسـاء جثم على صدري غمٌّ لا سـبب له. وكي لا أواجه فراو تيدمان على سـفرة الطعام قـررت أن أتنـاول طعامي في الخارج، وشربت كأسـين من الجعة. لكن عـلى الرغـم مـن كل محـاولاتي إلا أني لم أسـتطع اسـتعادة روح التفاؤل التي كانت تغمرني في النهار. كأنما كان هناك في زوايا قلبي المخفية شيء مضغوطٌ يُسحق. حاسبت عن عشائي بسرعةٍ لأخرج وأتمشى في الهواء الطلـق، راجياً أن يتحسـن مزاجـي. في الخارج كانـت ذرات المطر تبدأ

---

(1) حررهـا الجيش الوطني بقيـادة مصطفى كمال أتاتـورك بعد أن احتلهـا اليونانيون لثلاثة سنوات.

(2) الثورة التي انطلقت بقيادة أتاتورك من الأناضول ضد الاحتلال.

بالتساقط بينما السماء مكفهرّة. كان بالإمكان مشاهدة انعكاس أضواء المدينة الحمراء الكثيفة على السحاب المنخفض المار من فوق تلّتنا. جاء بي المسير إلى جادّة كورفورستاندام الرحبة والطويلة. هنا كانت السماء تأخذ وضعاً مشعّاً، وكانت حبات المطر الذي يهطل من ارتفاع مئات الأمتار تأخذ لوناً برتقالياً. وجدت أن الكازينوهات والمسارح وصالات السينما التي تقع على جوانب الطريق مقفلة. وعلى الأرصفة أناسٌ يتجولون دون أن يخرب المطر نسقهم. كنت أمشي الهوينا مفكراً بأشياء كثيرة لاعلاقة لها ببعضها. وكأنني بذلك أحاول إبعاد فكرة مصرّةٍ على الظهور. كنت أقرأ كل اللافتات واليافطات وأدقق في الإعلانات الضوئية. قطعت الجادة الممتدة لعدة كيلومترات أكثر من مرة ذهاباً وإياباً. ثم منحنياً إلى اليمين، مشيت باتجاه ميدان ويتينبيرغ. هنا وعلى الأرصفة المواجهة لسوق كبير يدعى «كا-دا-وي» يتجول شبّانٌ مرتدين أحذيةً حمراء وصابغين وجوههم كالنساء، ينظرون إلى الذاهب والقادم من المارة بنظراتٍ غاوية.

أخرجت ساعتي، كانت تتجاوز الحادية عشرة. معنى هذا أن الوقت تأخر. بدأت خطواتي بالتسارع فجأةً، سلكت طريق ميدان نوليندورف القريب. هذه المرة كنت أعرف وجهتي جيداً. هناك وفي نفس هذا الوقت من ليلة البارحة صادفت (مادونا صاحبة معطف الفرو). كان الميدان خالياً، وفي طرفه الجنوبي ومقابل بناء المسرح كان يتجول أحد أفراد الشرطة. دخلت إلى الشارع المواجه له وجئت إلى المكان الذي توقفنا به أنا وفراو تيدمان ونحن ثملين. ثبتت عيني أسفل عمود

الإنارة وكأن الشخص الذي أبحث عنه سيظهر إلى الوجود فجأة. رغم كل إقناعـي وتلقيني لنفـسي بأنه مارأيته كان مجرد وهــم إلا أنني ها هنا الآن، أنتظر هذه المرأة، أو هذا الخيال. منذ الصباح كان النسـيم يهفهف مقابل البناء الذي كنت عنده. مجدداً، أصبحت كما كنت في السابق، لعبةً بيد خيالاتي البعيدة عن الدنيا وعالمي الداخلي.

في هذه الأثناء تماماً، ظهر شـخصٌ يمشي من منتصف الميدان ماراً باتجاه الشـارع الـذي كنـت أقف فيـه. اختبأت عند أحـد أبـواب الأبنية التي كانت هناك وانتظـرت. وعندما مددت رأسي خارجاً ونظرت، تعرفت عـلى (مادونـا صاحبة معطـف الفرو) مـن خطواتها القصـيرة والحادة. لايمكـن أن أُخطـئ هـذه المرة. لم أكن سـكراناً. في هذا الشـارع الخالي، كانــت أصــداء صوت كعب حذائهــا تتردد مصطدمة بجـدران البيوت عـلى جانبـي الطريق. بدأ قلبـي يؤلمني وكأنــه يتفتــت وازدادت نبضاته بالخفقــان بسرعة عجيبة. كان وقع أقدامها يقـترب أكثر. أدرت ظهري إلى الشــارع وانحنيت عـلى الباب متظاهراً بأني أحــاول فتحه للدخول. وعندما وصلت خطواتهــا إلى خلفي مباشرة، ضبطت نفسي بجهدٍ كبير كي لا أصرخ وتشـبثت بالجدار خشـية السـقوط. تابعت المرأة طريقها، خرجـت من مخبئي وبـدأت بتعقبها خوفاً مـن أن تفلت عن ناظري من جديـد. لم أرَ وجههـا، ورغم كل خوفي ورهبتي مـن مواجهتها إلا أنني أمشي الآن خلفها على بعد خمسـة أو سـت خطوات. لم يكن يبدو عليها أنها لاحظت ذلك. لماذا أتيت إلى هنا وانتظرتها إذا كنت سأختبئ متوارياً عنهـا؟ ولأي هدفٍ أمـشي خلفها الآن؟ هل هذه هي يـا ترى؟ من أين

حكمْت بوجوب مرورها من نفس الشارع وفي نفس الوقت من الليلة التالية؟ لم أكن في وضعٍ يسمح لي بالجواب على كل تلك الأسئلة. كنت أمشي خلفها بخفقانٍ لا يخفّ وانفعال وهيجانٍ يتضاعفان كلما فكرت في احتمال أن تقف وتلتفت خلفها فتراني. كنت أمشي متعقباً أصوات خطواتها، مطأطئ الرأس ومن دون أن أنظر إلى أي شيء غير الرصيف. توقف الصوت فجأة. بقيت مكاني وإنتظرت حانياً رأسي كمحكوم بالإعدام. لم يدنُ مني أحد، لم يسألني أحد: «لماذا تتعقبني؟». لم ألحظ أنني كنت في القسم المضيء من نفس الجادة إلا بعد عدة ثوان.

رفعت نظراتي ببطء، لم يكن هناك امرأةٌ أو أي أحد. وعلى بعد بضع خطواتٍ كان هناك نادٍ ليلٍي مشهور جداً، بابه مضاءٌ بأنوار كهربائية. وعلى لوحته الكبيرة مكتوب كلمة «أتلاتنيك» وهي تومض وتنطفئ بالمصابيح الزرقاء، وتحتها بالأنوار أيضاً أشكالٌ تشبه أمواج البحر. دعاني الرجل الطويل الواقف على الباب والمرتدي لباساً منمقاً وملوناً، ومعتمراً طاقية حمراء منحنياً للدخول إلى النادي. استنتجت بأن المرأة قد دخلت إلى هنا فدخلت بلا تردد:

- "هل دخلت المرأة صاحبة معطف الفرو والتي كانت تمشي أمامي قبل قليل إلى هنا؟"، سألته.

قال البواب منحنيا من جديد:

- "نعم!"

كانت في وجهه ابتسامةٌ ذات معنىً عميق. خطر فجأةً بعقلي احتمال أن تكون أحد زبائن هذا المكان الدائمين، مجيئها إلى هنا كل ليلةٍ وفي نفس

الساعة يُظهر ذلك. خلعت معطفي وأنا آخذ نفساً عميقاً ومستريحاً، وولجت إلى القاعة.

كان النادي مزدحماً. ساحة الرقص منخفضةٌ تتوسط المكان، وفي مقابلها فرقة أوركسترا، وفي زوايا القاعة مقصورات مغلقة. كانت ستائر أكثر من نصف تلك المقصورات مسدلة؛ وكان الأزواج بداخلها يخرجون ليرقصون قليلاً بين فينةٍ وأخرى، ثم يعودون لمقصوراتهم مسدلين الستائر خلفهم. ذهبت إلى واحدةٍ يبدو أنها لم تكن محجوزة وجلست فيها. طلبت بيرة. ولّى خفقاني بلا رجعة. تفحصت المكان حولي بنظراتٍ غير متعجلة. تمنيت أن أجدها، صاحبة معطف الفرو، سارقة أحلامي منذ أسابيع، على أحد الطاولات بجانب عربيدٍ شاب أو مسن، فتُثبت لي بذلك عدم صحة تلك الأهمية والمعاني العميقة والاستنتاجات المبالغة التي صبغتها بها، فأخلّص نفسي بذلك من أوهامي الفارغة. لم تكن على إحدى الطاولات المحاذية لساحة الرقص. على الأغلب أنها بداخل إحدى المقصورات. شعرت بنفسي أضحك بألم. أحنق على نفسي لإصراري على النظر إلى الناس بغير ماهم عليه في الحقيقة. أصبح عمري أربعٌ وعشرون سنة، لكنني لم أتخلص من سذاجة طفولتي بعد. لوحةٌ بسيطة، بل وربما ليست جميلةً أبداً، كم تركت فيّ من انطباعات، وكم ولّدت من آمال. ذلك الوجه الشاحب، أعطيته معانٍ وتفسيراتٍ تملأ كتباً، ووجدت لها أوصافاً غير موجودةٍ في الحقيقة أصلاً. بينما هي في الواقع ليست سوى إحدى أولئك النسوة الشابات، اللاهثات وراء المتعة في مثل هذه الأماكن. على الأغلب أيضاً أن معطف فرو السنّور

البري الذي كنت أشاهده بكل إجلالٍ، كان من ثمن خدماتها التي تقدمها هنا.

قررت متابعة المقصورات المسدولة الستائر بالتتالي لأعرف من بداخلها. بعد مرور نصف ساعة، ميّزت كلّ الأزواج الملتهبين الذي كانوا في المقصورات المستترة. تأكدت من أن مادونا صاحبة معطف الفرو لم تكن في إحداها. في كل مرةٍ كانت ترفع ستائر إحداها، كنت أستميت للنظر داخلها بشكلٍ يثير الانتباه. لم تكن هناك مقصورة لا يخرج من فيها للرقص.

وقعت في حيرةٍ محزنة مرة أخرى. يا ترى هل تهيّأ لي أني رأيتها هذه المرة أيضاً؟ فليست هي المرأة الوحيدة التي ترتدي معطف فروٍ في برلين. لم أر وجهها حتى. هل كان بإمكاني أن أميز امرأةً نظرت إليّ البارحة بابتسامةٍ ساحرةٍ وأنا سكرانٌ من مشيتها فقط؟ لنرَ، هل كانت هي التي رأيتها بالأمس فعلاً؟ أم كانت كل تأويلاتي وتفسيراتي منذ الصباح عبارةً عن وهمٍ وخيال؟ بدأت بالخوف من نفسي. ما الذي يحصل لي؟ الوقوع تحت تأثيرٍ شديد للوحةٍ ما... ثم الظن بأنني سأقابل تلك المرأة التي في اللوحة، ثم تتبّع امرأةٍ عشوائية ظاناً بأني قد تعرفت عليها من معطفها الفروي ووقع أقدامها.. لم يكن أمامي خيارٌ غير الخروج فوراً ومحاولة السيطرة على نفسي في المرات القادمة.

أظلمَت القاعةُ فجأة. وُسلّط ضوء خفيف على الأوركسترا. أُخليت ساحة الرقص من الراقصين. وبدأت موسيقى ثقيلةٌ بالعزف بعد زمن

بسيط. ومن بين أنغام عزف آلات البزق[1] برز صوتٌ خفيفٌ لعزف كمان. كان الصوت يقترب شيئاً فشيئاً. استمرت المرأة المرتدية لفستانٍ يبرز مفاتنها كثيراً بالعزف وهي تنزل، وبدأت وبطبقةٍ خفيفةٍ وقريبةٍ لصوتٍ ذكوري بغناء إحدى الأغاني المشهورة في ذلك الوقت. كان الضوء يرسم دائرة بيضاوية على مكان المغنية.

عرفتها على الفور. كل تردداتي وآلاف تخميناتي طارت مختفية. وتلوّى صدري من جديد. أحزنني جداً كونها مجبورةٌ في عملها هذا على توزيع الابتسامات الكاذبة في كل الجهات والتصرف بغنج ودلالٍ مع الزبائن. كان بإمكاني أن أتصور المرأة التي كانت في اللوحة في كل الوضعيات، حتى وهي تنتقل من حضن إلى آخر. لكن لم يخطر على بالي أني سأراها على هذا الوضع أبداً. في حالها هذا بؤسٌ صريحٌ لا يمكن مقارنته بحالها الذي رسمته في مخيلتي مغرورة مستغنية وذات إرادة قوية. فكرت في نفسي «لو أراها تفعل ماتوقعت أنها تفعله هنا أنفاً، تشرب وتسكر مع الرجال، تراقصهم وتتبادل معهم القبل لكان أفضل لي. لأنها ومهما كانت ما تفعله، فهي ستفعله باختيارها. ستفعله ساهية وتاركةً لنفسها الحبل على الغارب. لكن ما تفعله الآن ليس ما كانت تريد فعله أبداً. لم يكن عزفها على الكمان مميزاً. صوتها هو الشيء الوحيد الذي كان جميلاً، بل مؤثراً إذا صح التعبير. تغني أغانٍ مرتعدة بالشكوى وكأنها تنسكب من فم طفل ثمل. تقف وعلى وجهها ابتسامةٌ معوجّة؛ كانت

---

(1) آلة موسيقية شرقية تشبه العود – المترجم.

كمـن ينتظـر أي فرصـة صغيرةً لكـي يختفي مـن الوجود. حـين كانت تقترب منحنية من أحد طاولات الزبائن، وبعد أن تعزف له عدة نغمات مبهمـة، كان وجهها يأخذ طابع الجديـة ريثما تنتقل للطاولة التالية. كان نفـس التعبير الـذي رأيته في اللوحة بتماماً. لم أرَ في هذه الدنيا شـيئاً أكثر إيلامـاً من محاولة شـخصٍ حزين أن يضحك ويتصنّع السـعادة. نهض أحـد السـكارى من إحـدى الطـاولات التي كانـت قريبةً منهـا بهدوءٍ وقبّلهـا بغتةً عـلى ظهرها العاري. إرتعدت المـرأة وإنقبض وجهها كأنما لدغهـا ثعبـان، لكن ردة الفعـل تلك لم تسـتمر لأكثر من ثانيـة. بعدها إعتدلت واقفةً ومبتسـمة تنظر إلى الرجل وكأنها تقول له: «ياه، ما أجمل مـا فعلت!»، وبجانبها رجـل يظهر عليه أنه غضب من ردة فعلها تلك. رأيـت المرأة التـي كانت تجالس الرجـل على الطاولة تلتفـت إليها وتهز رأسـها لها، وكأنها تقول:»تصرفي بشـكلٍ حسـن، فالرجال أحرار في أن يفعلوا بنا مثل هذه الأشياء!».

كان يُسـمع تصفيـق متقطـع بعـد كل أغنيـة، ثـم تومـئ المرأة برأسـها للأوركسـترا ليعزفـوا أغنية أخـرى. ثم تبـدأ بغناء أغنيـة أخرى بنفس الصوت الحي والمليء بالشكوى، تدنو بساقيها المتواريتان خلف تنورتها البيضـاء عـلى الأرضية الخشـبية، مقتربةً مـن طاولة ومنتقلـة إلى أخرى وهي تعزف على رؤوس الأزواج الثملين الحاضنين لبعضهم، أو مقابل سـتائر المقصـورات التي لا يُعـرف مايحدث بداخلها، مميلةً رأسـها على الكمان ومداعبةً أوتاره بأصابعها الغير محترفة.

عندمـا رأيتها تقترب من طاولتي وقعت في اضطراب شـديد. لم أعرف

كيـف سـأنظر لها أو ماذا سـأفعل. ثم سـخرت من حالي هـذا. فهل من الممكـن لها أن تتعرف على رجلٍ لمحته البارحة في طريق مظلم؟ ماذا من الممكـن أن أكـون بالنسـبة لها غير أحد الشـبان القادمـين إلى هنا للمتعة وإيجـاد رفيقـةٍ لتلهـو معهـم؟ رغم هـذا حنيـت رأسي. رأيـت أطراف تنورتهـا المغـبرة بفعل احتكاكهـا بالأرضية ومن تحتهـا حذائها الأبيض بمقدمتـه البـارزة إلى الأمـام. لم تكـن ترتـدي جورباً. ورغـم الإضاءة الباهتـة، إلا أنني اسـتطعت رؤية بقعةٍ ورديـة كانت تبرز على جلد أحد أصابـع قدمهـا. عندما وصلت عينـيّ إلى هنا شـعرت بي وكأنني رأيتها عاريـةً تماماً فرفعتهما وأنا أرتعد وأشـعر بالخزي. كانـت تُمعن فيّ النظر. لم تكن تغنّي، بل تعزف الكمان فقط. اختفت من على وجهها الابتسـامة المصطنعـة، وعندمـا إلتقت عينانـا حيّتني بود. نعم، مـن دون مبالغةٍ أو ابتسـامةٍ فاترة، حيّتني وكأنني صديقٌ قديم. فعلت ذلك وهي تومئ إليّ مغمضـةً وفاتحة عيناها لمـرةٍ واحدة فقط، لكن بشـكلٍ صريحٍ لا يمكن معه أن أكون مخطئاً. ثم ضَحكَت، وكأنها تضحك لصديقٍ قديم. بعد أن عزفت لمدة، وبعد أن حيتني برأسها وعينيها، انتقلت لطاولاتٍ أخرى. انتابتنـي رغبـةٌ عجيبةٌ بأن أقفـز من مكاني وأعانقها وأقـوم بتقبيلها وأنا أبكـي. لا أذكـر أني كنت في حياتي كلها سـعيداً ومنـشرح الصدر كما أنا اليوم. هل من الممكن لإنسـان أن يكون سـبباً في سـعادة إنسان آخر إلى هذا القدر ومن دون حتى أن يفعل شيئاً يُذكر؟ تحيةٌ ود وضحكةٌ نقية.. لا أريـد شـيئاً آخـر في هذه اللحظـة. كنت أغنـى رجال العـالم. تابعتها بعينيّ مردداً في نفسي: » شـكراً لكِ.. شـكراً لكِ! « ومسروراً لأن ظنوني

في معرض اللوحات لم تخب. كانت كما تصورتها تماماً. لو لم تكن كذلك هل كانت لِتنظر إليّ وكأنها تعرفني؟ وتحيّيني؟

بعد لحظاتٍ باغت قلبي شكٌّ كماء رُشّ على نار. يا ترى هل شبّهتني بأحدٍ تعرفه، قلت في نفسي. أم يا تُرى هل كان وجهي مألوفاً لها لأنها رأتني في الشارع ذلك اليوم، ولكنها لم تستطع تذكر أين ومتى رأتني، فارتأت أن من الأفضل أن تسلم عليّ احتياطاً؟ لم يبد على وجهها أدنى ترددٍ أو حيرة، أو أي شيءٍ يدل على أنها كانت تحاول مراجعة ذاكرتها لتتذكر. نَظَرت إلى عينيّ بأمانٍ ثم ضَحِكَت. ليكن ما يكن، فإظهارها لهذا التودد والقرب إليّ كان كافياً لجعلي أسعد إنسان في الدنيا. كنت جالساً على طاولتي بابتسامةٍ وبهجةِ الناس الراضين عن حياتهم، أنظر إلى المرأة التي ذهبت إلى الطرف الآخر من القاعة. خصلات شعرها الكستنائي، المتموجة والقصيرة كانت تنسدل على كتفيها. وعندما تحرك ذراعيها العاريتين كان قدّها يتثنى بخفةٍ يميناً وشمالاً، وتتحرك عضلات ظهرها قليلاً.

بعد أن أنهت آخر أغنيةٍ مشت بخطوات متعجلة إلى خلف الأوركسترا واختفت، ومن ثم أُشعلت الأضواء من جديد. في نشوة سعادتي الغامرة، جلست لبعض الوقت من دون أن أفكر في شيء. ثم سألت نفسي «ماذا عليّ أن أفعل الآن؟». هل أخرج وأنتظر خروجها عند الباب؟ ولأي مقصد؟ رغم أني لا أستطيع أن أقول لها كلمتين حتى، فماذا لو أني انتظرتها وسألتها عندما تخرج: «هل تسمحين لي أن أرافقك إلى منزلك؟»، ماذا كانت ستظن بي؟ هل أقابل إظهار توددها وطيبتها

لي بتصرفي هكذا، كزير نساءٍ محترف؟

قررت بأنّ أكثر تصرف لبق أفعله هو أن أعود إلى بيتي، وفي مساء الغد أجيء إلى هنا مجدداً. وشيئاً فشيئاً سأطور علاقتي بها أكثر. يكفي هذا القدر لليلةٍ واحدة. فأنا ومنذ طفولتي كنت أخاف دائماً من الإسراف في السعادة، آملاً أن أخبئ بعضاً منها لأوقات أخرى. كان ذلك سبب تفويتي لكثير من الفرص، لكنني كنت أتردد دائماً من طلب المزيد، خوفا من أن أُنفّر بختي.

نظرت حولي باحثاً عن النادل فوقعت عيني على المرأة القادمة من خلف الأوركسترا باتجاه القاعة. لم يكن بيدها كمانٌ هذه المرة. تمشي بعجلةٍ واضحة. وعندما رأيتها تدنو باتجاه المنطقة التي كنت أجلس فيها تلفتُّ حولي. كانت قادمة إلي، إلى طاولتي. تبتسم بمودةٍ وصدقٍ كما فعلت من قبل. توقفت أمامي ومدت يدها:

- "كيف حالك؟" سألتني.

بالكاد تخلصت من بعض ذهولي في تلك اللحظة ونهضت مصافحاً إياها.

- " شكراً.. أنا بخير!"

جلسَت على كرسيٍّ مقابل لي. هزت رأسها بخفة لإبعاد الشعر الذي كان يغطي وجنتيها.

- "تبدو مستاء مني غالباً!" قالت.

فوجئت. ولعدم فهمي ماترمي إليه، بدأت العديد من الاحتمالات بالتوافد إلى عقلي.

جاوبتها: " لا. ما المناسبة؟!"

لم يكـن صوتها بغريبٍ علـيّ أبداً. كان من الطبيعي أن أتذكر كل خطوط وتفاصيـل وجههـا، وأن أجد معانٍ وتفسـيراتٍ أكثر مما كان هنالك في الحقيقـة. فبتأمّـلي للوحتها لأيام، نقشـتها في ذاكرتي، ثـم أتممت النقش بلوحة مادونا. لكن صوتها.. يبدو أني سمعته في مكانٍ ما على كل حال. ربما قبل زمنٍ طويل. في طفولتي.. أو ربما في خيالي فقط.

ولأنقـذ نفسي من أفـكاري المتلاحقة، حرّكت يدي. فـمادام أنها أمامي، وتتكلم معي، فليس هناك داعٍ للانشغال بأشياء أخرى.

كرّرت المرأة سؤالها:

- " يعني هذا بأنك غير مسـتاء مني؟ حسناً، ولكن لمَ لمْ تأت مرةً أخرى أبداً؟"

يـا للمصيبـة! يبدو أنها شـبهتني بأحدٍ آخر فعلاً. فتحت فمي لأسـألها: «مـن أيـن تعرفيني؟»، لكنني تراجعـت عندما مرّ ببالي تسـاؤل مريب. ماذا لو أدرَكت خطأها واعتذرت ونهضت ذاهبة؟ سيكون من الجيد أن يستمر هذا الحلم الرائع لأطول وقتٍ ممكن. لم يكن من حقي أن أنهض مقاطعاً إياها وأترك الحديث في منتصفه، ولو في سبيل قول الحقيقة.

انتقلت المرأة إلى سؤالٍ آخر عندما رأت عدم استجابتي:

- "هل تصلك رسائل من أمك؟"

بعـد أن وقعـت في حيرةٍ لم تـدم أكثر من ثانية، قفزت قائماً من كرسـي. وصرخت ممسكاً بيدها:

- "آه ياربي، هذا أنت؟"

فهمت كل شيء الآن. تذكرت من أين تعرفت على صوتها.
ألقت المرأة بضحكةٍ رنانة:
- "يالك من ولدٍ غريب!"، قالت.
تذكرت ضحكتها أيضاً. لقد كانت تلك المرأة التي قطعت علي تركيزي وأنا أتأمل اللوحة في المعرض، وعندما سألتني عن ما أجده في اللوحة وأجبتها بأنها تشبه أمي سألَتني :»أليس لديك صورةً لأمك؟« وهي تضحك. لم أفهم كيف لم أستطع التعرف عليها من قبل، هل سلبت اللوحة لبّي لدرجة أنها أعمتني عن تمييز أصلها؟
تمتمت :"لكنك، يبدو أنك لم تكوني تشبهين اللوحة في ذلك الوقت!"
- "كيف كنت ستعرف ذلك؟ إذ لم تكن قد نظرت في وجهي حتى!"
- "لا، أستبعد ذلك.. فكيف لي ألّا أفعل؟"
- "نعم، نظرت قليلاً، ولكن كيف؟ وكأنك تتفادى الرؤية!"
ثم قالت ساحبةً يديها اللتين كنت مازلت أعصرهما:
- "عندما عدت إلى أصدقائي لم أخبرهم بأنك لم تتعرف عليّ، وإلا كانوا سيضحكون عليك كثيراً!"
- "شكراً!"
فكرتَ لوهلة، كأنما مرت من أمام عينيها سحابة. وفجأةً قالت بلهجةٍ جادة:
- "هل مازلت تريد أمّاً مثلها؟"
توقفتُ للحظةٍ غير مدرك مقصدها، ثم جاوبت بسرعة:
- "طبعاً.. طبعاً.. ولأي درجة!"

- "نفس جوابك في المرة الفائتة!"
- "ربما.."
ضحِكَت مجدداً.
- "لكن هل يمكنني أن أصبح أمك؟"
- "إنها! لا، لا!"
- "ربما أختك الكبرى!"
- "كم عمركم؟"
-»وهل تُسأل امرأةٌ هذا السؤال؟ لكن لا يهم، ست وعشرون سنة.. ماذا عنك؟»
- "أربع وعشرون!"
- "أرأيت؟ أستطيع أن أصبح أختك الكبرى!"
- "نعم، صحيح."
سكتنا لمدة.. كنت أشعر أن بداخلي أشياء واسعة ولا نهاية لها لأخبرها بها، أشياء لاتكفيني سنواتٌ لأخبرها كلها بها. لكن لم يكن يحضرني أيٌّ منها الآن أبداً. هي أيضاً، كانت تنظر أمامها من دون أن تنطق بشيء. أسندت مرفقها الأيمن على الطاولة، وتركت يدها تستريح على الغطاء الأبيض. كانت لها أصابع دقيقة الأطراف تعطي انطباعاً بأن عظامها نحيلة جداً، وكانت أطراف أصابعها حمراء، من البرودة ربما. تذكرت أنني عندما صافحتها قبل قليل كانت يداها باردتان فعلاً. فانتهزت هذه الفرصة قائلاً:
- "يداك باردة!"

أجابت بلا تردد:

"أدفئهما!"، ومدتهما إليّ.

تطلّعت إلى وجهها. كان في عينيها هيمنةٌ وإرادة قوية. كأن تركها يديها لشخصٍ تكلمه لأول مرةٍ لم يكن شيئاً ذا أهمية. ياترى؟.. كانت الاحتمالات المعتادة وغير المتعلقة بالموقف تتدفق على عقلي. ولكي أبعدها عن عقلي قررت أن أقول شيئاً:

- "أنا معذورٌ لعدم قدرتي على التعرف عليك في المعرض! فقد كنت مبتهجة، بل وهازلة أيضاً، لدرجة أنك.. لا أعرف كيف أشرح لك؟. كل ما كان فيك من الصفات معاكسٌ لما كانت عليه اللوحة. شعرك قصير، تنورتك أيضا قصيرة وردائك ضيق، ومشيتك أشبه بالجري، عجولة. كان صعباً بطبيعة الحال أن أشبّهك بـ(مادونا) التي يصفها النقاد بالوقورة، المتأملة، والمتكدّرة قليلاً. لكنني متعجّب...يبدو أنني أسرفت في التأمل!"

- "صحيح، جداً. أتذكر أول يوم قدمتَ فيه إلى المعرض. بعد أن تجوّلت لمدةٍ والضجر بادٍ عليك، توقفت فجأةً عند لوحتي. وبدأت في النظر إليها بشكل غريبٍ لدرجة أن زوار المعرض تعجبوا من ذلك أيضاً. في أول وهلةٍ ظننت بأنك رأيت فيها شبهاً من أحد تعرفوه، ثم أصبحت تتردد عليها كل يوم. فوقعت في فضولٍ أظنك تتفهمه. وفي عدة مراتٍ وقفت بجانبك وتفرجت على اللوحة معك، لكنك لم تشعروا بوجودي، رغم أنكم كنت بين فينةٍ وأخرى تلتفت إلى هذه الفضولية التي تقاطع تركيزك، إلا أنك لم تتعرف عليّ. كان هناك شيء

جـذابٌ في شرودك.. مثلـما قلـت لك، كنت تثـير فضـولي. وفي النهاية قررت التحدث معك. حتى الرسامون الأخرون كانوا فضوليين أيضاً، أصرّوا عـليّ أن أفعل، لكن ياليتني لم أفعل. فقد خسرناك تماماً بعدها، لم تعد إلى المعرض أبداً!"

قلت:»ظننت أنكم تتسلون بالسخرية مني!». لكنني ندمت على الفور، فربما ستنفعل من كلامي هذا. لكنها قالت:

- "صحيح، معكم كل الحق!"

ثم حدقت في وجهي بعينيها كأنها تبحث عن شيءٍ ما وقالت:

- "أنت وحيد في برلين، أليس كذلك؟"

- "ماذا تقصدين؟"

- "أعنـي.. وحيـد، غريـب، بـلا أحد. روحـك وحيـدة، كيف أشرح مقصدي.. فيك حالٌ.."

- "أفهم، أفهم ما تعنين. نعم، أنا وحيدٌ جداً.. لكن ليس فقط في برلين. أنا في كل هذه الدنيا وحيد.. وحيدٌ منذ طفولتي."

- "حتى أنا وحيدة.." قالتها هذه المرة وهي تمسـك يدي براحتي يديها. ثم استطردَت: "وحيدةٌ لدرجة الإختناق.. وحيدةٌ مثل كلبٍ عليل."

رفعت يدي ضاغطةً على أصابعي بقوةٍ ثم ضربت بها على الطاولة:

- "أسـتطيع أن أصبح صديقـك!" قالت، "لم تتعرف عـليّ إلا مؤخراً، لكنني راقبتك لمدة خمس وعشرين يوماً. فيك شيءٌ لا يوجد عند غيرك. نعم، أعتقد أننا سنكون أصدقاء جيدين.."

نظرتُ إلى وجهها باسـتغرابٍ شـديد. ما الذي كانت تقصده؟ ماذا كان

يمكــن أن يكون عرض امـرأةٍ لرجلٍ بهذه الطريقة؟ لم أكن أفهم شـيئاً. فلم يكن لديّ أيّ خبرة، ولم أكن أعرف الناس أبداً. لاحظت هي ذلك أيضاً. فقالت وفي وجهها قلقٌ من اعتقد بأنه قد تمادى قليلاً، وخاف من أن يُساء فهمه:

- "لاتفكر مثل الذكور الآخريـن. لاتحاول إعطاء كلماتي معانٍ أخرى. فأنا دائماً هكذا أتكلم بوضوحٍ وصراحة، كالرجال. في الحقيقة أنا أشـبه الرجال في كثيرٍ من جوانب شخصيتي، وربما هذا هو سبب وحدتي."

تفحصتني بعينيها من رأسي حتى أخمص قدميّ. ثم قالت فجأة:

- "أنت أيضاً فيك شيءٌ من الأنوثة.. الآن عرفت لماذا. ربما لهذا السبب حكمـت بأني وجدت فيك شـيئاً يعجبني منذ رأيتـك في أول مرة، فيك حالٌ يشبه حال الفتيات اليافعات.."

ورغـم أني اعتـدت على سـماع هـذا الكلام من أمـي وأبي كثـيراً، إلا أن صدوره عن شخصٍ أتحدث معه لأول مرةٍ أحزنني وفاجأني.

قالت مكملةً كلامها:

- "لــن أنسَ حالك ليلة البارحة أبداً! كنت أضحك طوال الليل عندما أتذكـرك.. كنت مضطرب كفتـاةٍ تحاول الدفاع عن شرفها، لا أعتقد أن الخلاص من فراو تيدمان سهلٌ على كل حال."

فتحت عينيّ بدهشة قائلاً:

- "أتعرفينها؟"

- "كيـف لا أعرفها وهي قريبتي! ابنة خالي.. لكننا متخاصمتان حالياً؛ لسـت أنا، ولكن أمي لا تريدنا أن نتواصل بسـبب تصرفاتها هذه. كان

زوجها محامياً، وقُتل في الحرب العالمية. والآن هي بتعبير أمي، تعيش حياةً "غير لائقة". لكن ما دخلنا؟ ماذا حدث البارحة؟ هل نفذت بجلدك منها؟ من أين تعرفون بعضكم؟

- "نقيم في نفس المهجع، أنقذت نفسي ليلة البارحة بفضل مصادفةٍ عجيبة. فقد صادفنا في المهجع رجلاً كان على علاقةٍ حميمية بابنة خالك، اسمه هير دوبكه."

- "ليتزوجوا على الأقل!"

أدركت أنها أرادت إنهاء الموضوع بجملتها الأخيرة هذه. صمتنا لوهلة، كلانا كان يحاول تفحص الآخر من دون أن يظهر ذلك، وعندما كانت تلتقي أعيننا نبتسم ابتسامة تنمُّ عن رضا كلّ منّا عن الآخر، ونستمر في تبادل النظرات.

كنت أنا من مزّق الصمت:

- "يعني ذلك أن لك أمّاَ؟"

- "مثل مالك أنت!"

شعرت بالانزعاج، كأن ما سألتُه كان سؤالاً سخيفاً. لاحظت هي ذلك وغيّرَت الموضوع:

- "هذه أول مرةٍ أراك فيها هنا!"

- "نعم، لا آتي إلى مثل هذه الأماكن أبداً، باستثناء هذه الليلة."

- "هذه الليلة؟"

مستجمعاً كل جرأتي، قلت:

- "أتيت إلى هنا متتبّعاً لك!"

فوجئت قليلاً:

- "هل كنت أنت من تبعني إلى عند البوابة؟"

- " نعم، يعني ذلك أنك لاحظت."

- " طبعاً، وهل يُعقل أن لاتلاحظ امرأةٌ مثل هذه الأشياء؟"

- " لكنك لم تنظري خلفك أبداً!"

- " لا ألتفت لأنظر خلفي أبداً!"

صمتت وفكّرت ملياً، ثم قالت بضحكةٍ جريئة:

- "هذا أيضا شكلٌ من أشكال تسليتي. عندما أحس بتتبع شخص لي في الطريق، أقاوم فضولي الشديد وأصرّ على عدم الإلتفات إليه، وفي تلك الأثناء أمَرِّر بذهني العديد من الاحتمالات: قد يكون متتبعي شابّاً، أو مسناً يصطاد النساء الضعيفات، أو أميراً غنياً، أو طالباً فقيراً، ربما يكون سكيراً عربيداً حتى. أحاول تمييز ماهيته من وقع خطوات أقدامه وبهذه الطريقة ينتهي طريقي من دون حتى أن أدرك ذلك. يعني هذا أنك أنت من كان يتبعني، ها؟ على الرغم من أنني، ومن خطواتك المترددة حزرت بأنك رجلٌ عجوزٌ ومتزوج."

ثم أردفت بغتة وهي تنظر في داخل عينيّ:

- "هل كنت تترصد طريقي؟!"

- "نعم."

- "كيف حزرت بأني سأمر بنفس الطريق هذه الليلة؟ هل كنتم تعرف بأني أعمل هنا؟"

- "لا، لكن لا أعلم!. قلت لنفسي ربما، ربما لم أقل حتى، وجدت

نفسي ومن دون أن ألحظ ذلك، أقف هناك في نفس الوقت. ثم اختبأت عند أحد الأبواب خوفاً من أن تريني."

- "هيا لنمض، سنتحدث في الطريق."

وعندما رأَت ذهولي سألت:

- "ألا تريد مرافقتي إلى منزلي؟"

نهضت من مكاني فوراً. أضحكتها حركتي هذه:

- "لاتتعجل ياصديقي" قالت. "سأذهب لأغير ملابسي أولاً. انتظرني مقابل البوابة بعد خمس دقائق!"

نهضت بسرعة. ذهبت بخطوات متعجلة وهي تمسك بطرف تنورتها، واختفت خلف الأوركسترا. نظرت في وجهي مجدداً ونحن ذاهبون، حيّتني عيناها المدهشتان تلك بإغماضةٍ وكأني صديقها منذ أربعين سنة. استدعيت النادل ودفعت الحساب. عادت لي جسارتي وجرأتي فجأة. كنت أحدق في وجه الرجل الذي كان يقيد أرقاماً في دفتره ذي الأوراق الطويلة وكأنني أقول له: "ألم تلاحظ كم أنا سعيد يا أحمق!"، وشعرت برغبةٍ قويةٍ في السلام ضاحكاً على كل من لم يترك القاعة من الزبائن وفرقة الأوركسترا. كان تشبثي وتعلقي المفاجيء بالناس كشعور من اجتمع بأصدقائه بعد فراق سنين طويلة، يريد مصافحتهم وتقبيلهم مع محادثاتٍ مليئة بالبهجة والحماس.

قمت من مكاني. مشيت إلى غرفة تغيير الملابس بخطواتٍ واسعة مرتاحة وواثقة، هبطت السلم متخطياً عدة درجات في القفزة الواحدة. رغم أن مثل هذا السخاء المبذر وأنا أصرف أموالي للحساب لم يكن من

طبعـي أبـداً، إلا أني أعطيت ماركاً للمرأة التـي ناولتني معطفي. مقابل البوابة تطلعت حولي أخذاً أنفاسـاً عميقـة. أُطْفِئت كتابة أتلانتيك التي كانـت على اللافتة فوقي، واختفت موجات البحر معها. السـماء صافية وفي الغرب البعيد يظهر هلال صغير يقترب من الأفق.

سمعت صوتًا رقيقاً خلفي:

- "هل انتظرت كثيراً؟"

- "لا...للتو خرجت!"، قلت ذلك وأنا ألتفت نحوها.

كانـت واقفة أمامـي، أعيننا ترمـش وكأننا أناس يفكـرون من دون أن يصدروا قراراً. أخيراً حركت شفتيها بخفة:

- "حقاً تبدو كإنسان طيب!"، قالت.

اضمحلت كل جسارتي وجرأتي فوراً عندما عادت إلي، ورغم أن هناك رغبة بداخلي لشـكرها، وأن أضم يديها وأقبلها، إلا أن كل ما استطعت هو أن أنطق بصوتٍ لايكاد يسمع:

"لا أدري!".

أمسكت المرأة ذراعي بلا تكلف، وبيدها الأخرى أمسكت ذقني. قالت بصوت ناعمٍ كمن يدلل طفلا صغيراً:

- "أووه، حقّاً أنت خجول مثل فتاةٍ صغيرة!".

نظـرت أمامي مقطباً وجهي. كنت قد بدأت في السـأم من معاملة امرأة لي بهذه الجرأة وعدم المبالاة. لم تبالغ في ذلك على كل حال. تركت ذقني أولاً، ثـم أسـقطت يدها التي كانت ممسـكةً بذراعي ببطـئ إلى جانبها، وعندمـا رفَعْت رأسي فوجئت. فقـد كان في وجهها ذهولٌ عجيب، بل

كان فيـه حيـاءٌ أيضاً. كان الاحمرار يمتد على خدهـا وإلى رقبتها. عيناها نصـف مغلقتين وخائفتان من النظر إلي. مر ببالي تسـاؤلٌ مفاجئ: «لماذا ياتـرى تفعل ذلك؟ رغم أنها بالتأكيد ليسـت بذلك النوع من النسـاء.. لكن لماذا تفعل ذلك؟».

قالت كمن حزر ما في خاطري:

- "أنـا هكذا! أنا امرأةٌ غريبة. إذا أردت مصادقتي فعليك تحمل أشـياء كثيرة، مثل تقلباتي السخيفة، فلي أحوالٌ لاتلائم بعضها. الخلاصة أنني مخلوق مزعجٌ ولايُفهم من أي أحدٍ أصادقه."

ثم أتبعت بصوت حاد وفظٍ، وكأنها قد غضبت من سوء فعلتي:

- "لكـن إذا أردت، فليس لي حاجةٌ لأحـد. ليس في نيتي أن أكون ممتنة لأحد، أو أن أطلب صداقة أحدٍ ولطفه. هذا إذا أردتم."

قلـت بنفس صوتي البطيء والمتردد: «سـأحاول فهمك.». مشـينا لعدة خطـوات. وشـيئاً فشـيئاً تشـبثت بذراعـي. وكمن يتحدث عن أشـياء عادية جداً، بدأت في الكلام بصوت لا لون له:

- "يعني ذلك أنك ستحاول فهمي؟ ليست فكرة سيئة. لكنني أشعر بأنه سـيكون زرعاً بلا حصاد!.. رغـم أني أحياناً أعتقد أن بإمكاني أن أكون صديقـةً جيدة. سـيثبت الزمان ذلك، ولـو افتعلت بعض الشـجارات الصغيرة فلا أهمية لذلك، لا تبالي."

توقفت في منتصف الطريق، وأشـارت ملوحة بسبابة يدها اليمنى كمن ينذر طفلاً ليتصرف بأدب قائلة:

- "لكن تنبّه لما سـأقول. في اليوم الذي ستطلب مني فيه شيئاً ما سيعتبر

كل شيء منتهياً. ولا أيّ شيء.. أتفهم؟ لن تطلب مني أي شيء." ثم تابعت بصوت شرسٍ كمن يتعارك مع عدو له: "أتعلم لماذا أنفر منكم، أعني كل الرجال في هذه الحياة؟ لطلبهم كل شيء من المرأة وكأن ذلك من أبسط حقوقهم الطبيعية. لا تسيء فهمي، فليس من الضروري أن تكون طلباتهم عن طريق الكلام. فنظرات الرجال، وضحكاتهم تلك، وحركات أيديهم، بل تعاملهم مع المرأة في الخلاصة.. على المرء أن يكون أعمى حتى لا يلاحظ ثقتهم الزائدة والحمقاء في أنفسهم. ويكفي رؤية الذهول الذي يقعون فيه عندما يُرفَض لهم طلب - بأي طريقة - لفهم كبرياءهم المتعجرف. فهم لا يتوقفون أبداً عن رؤية أنفسهم كصيادين، والتفكير بنا نحن كفرائس. مهمتنا الوحيدة هي أن نكون تابعات، مطيعات، وأن نفعل مايراد منا. نحن لا نريد ذلك، ولا نعطي شيئاً من أنفسنا. أنا أتقزّز من غرور الرجل المتعجرف الأحمق. هل تفهمني؟ لهذا أعتقد أن بإمكاني أن أكون صديقتك. لأن في حالك هذه لا يوجد أي ثقة في النفس. لكن لا أدري، فما أكثر ما رأيت من الخراف التي تظهر أسنان الذئاب من أفواهها.".

استمرينا في المشي مجدداً وهي في منتصف كلامها. كانت تمشي بخطوات متعجلةٍ وقوية. تتكلم مشيرةً بيدها، وعيناها تارةً في الأرض، وتارةً في السماء. كانت في منتصف جملها تترك فواصلاً تعطي إحساساً بأنها قد أنهت كلامها، وتغمض عينيها نصف إغماضة مجدداً وتستمر في مشيها. مشينا لمسافة طويلة، وغاصت في صمت طويل من جديد. أما أنا، فقد كنت أمشي خائفاً بجانبها دون أية كلمة. توقفت عند بناء ذو ثلاث

أدوار مجاور لشارع من شوراع حي تيرغارتان.

- "أسكن هنا.. مع أمي. سنكمل حديثنا في الغد، لكن لاتأت إلى هناك. لاأعتقد بأني سأسرّ من رؤيتك لي على تلك الحال. أسجل هذه كنقطة لمصلحتك. لنلتق غداً نهاراً ونتمشى سوياً. لدي في برلين أماكن تنزه خاصة. لنرى هل ستعجبك أم لا. هيا، ليلة سعيدة. لحظة! لم أزل لاأعرف اسمك!"

- "رائف!"

- "رائف؟ فقط؟"

- "رائف خطيب زاده!"

- " لا، يستحيل أن أتذكر ذلك، فضلاً عن أن أنطقه! ألا يكفي رائف؟"

- "يُسعدني أكثر!"

- "أنتم أيضاً تستطيع مناداتي بماريا. قلت لك، لا أريد أن أكون تحت تفضّل أحد!"

ضحكت مجدداً، وأخذ وجهها الذي كان يتغير بتعابير كثيرة ذلك الطابع الحلو الأليف. مدت ذراعها ضاغطةً على يدي في راحة يدها. تمنت لي مجدداً ليلة سعيدة بصوت ناعم يعطي إحساساً بأنها تحاول الإعتذار، وأدبرت مخرجةً مفتاحها من شنطتها. ابتعدت ببطء. لم أبتعد أكثر من خمسة أو عشرة أقدام حتى سمعت صوتها يناديني:

- "رائف!"

إلتفتّ منتظراً في مكاني.

- "تعال! تعال!"، قالت وهي بالكاد تضبط قهقهاتها. قالتها بغاية الرقة

المصطنعة:

- "كـم أنـا محظوظةٌ لحصولي على شرف مناداتك باسـمك بهذه السرعة!".

ولأنها كانت على درجات السلم العليا، رفعت رأسي لأنظر إليها. لم أستطع رؤيتهـا لأن السـلم كان مظلـماً. كنـت أنتظرها أن تكمـل كلامها. حاولت اصطناع الجدية، ولكن بنفس ذلك الصوت الأشبه بالضحك، قالت:

- "يعني هذا أنك ذاهب؟"

تقدمتُ خطوةً وقلبي يتقافز حماساً، قلت وفي عقلي احتمال لست متأكداً إن كان سيسرّني أم لا، وبأملٍ أخشى حتى من التفكير فيه:

- "ألا تريدين أن أذهب؟"

هبطت درجتان على السلم. استبان لي وجهها تحت أشعة إضاءة الشارع. سألتني وعيناها تتفرسان في وجهي بفضولٍ يشوبه مكر:

- "ألم تفهم سبب استدعائي لك بعد؟"

كنت سـأرتمي بنفسي على ذراعيهـا هاتفـاً: «فهمت، فهمت، هـا أنا ذا قـادم.». لكنـي شـعرت في داخـلي بإحسـاس مغايـر لهذا وأقـوى منه. إحسـاس بالتحطم، بالذهـول، والكآبة. احتنق وجهـي محمراً ونظرت أمامي، لا! لا أريد ذلك!

مسحت المرأة بكفها على وجنتي:

- "ماذا يحدث لك؟ تبدو على وشك البكاء. أخبرني هيا، كنت ستودعني وتذهب الآن، صحيح؟"

- "صحيح!"

- "لن تأتِ إلى الأتلاتنيك للبحث عني، هكذا اتفقنا!"

- "صحيح! سنتقابل غداً نهاراً!"
- "أين؟"
نظرت إلى وجهها شاعراً بغبائي. لم يخطر هذا على بالي أبداً. سألتها بنبرةٍ فيها رجاء:
- "ألهذا دعيتني؟"
- "طبعاً. أنت حقاً لاتشبه الذكور الآخرين، فهمّهم الأول هو تحديد مكان اللقاء ثم الإطمئنان بعد ذلك. الإنسان الذي تبحث عنه لن يظهر في طريقك صدفةً دائماً كما حدث الليلة."
شعرت بثقل الشك، وقد انزاح من روحي. كنت أخشى من أن أعيش معها مغامرة نسائية عادية. لم أكن لأقدر على ذلك. كنت أفضّل أن أبدو في نظرها كأحمقٍ ساذج على أن أرى مادونا صاحبة معطف الفرو على تلك الحال. لكن هذا الاحتمال كان مزعجاً أيضاً. كان التفكير في أنها ستضحك من وراء ظهري على سذاجتي وتسخر من جبني من الممكن أن يعطي نتائج توجب عليّ إعطاء ظهري لكل الناس وقطع أملي منهم والانزواء على نفسي من جديد.
لكن فؤادي الآن مرتاح. شعرت بحياءٍ وخجلٍ كبيرين من ظنوني السافلة تلك، وبإمتنان كبير لإنقاذ المرأة لي من تلك الظنون. استجمعت نفسي بجرأةٍ بائسة:
- "يا لكِ من امرأةٍ رائعة!"، قلت.
- "لاتستعجل. كن محتاطاً جداً عند حكمك عليّ!"
ضغطت على يديها وقبلتها. على الأغلب أن عينيّ دمعتا. رأيت دنوّ

وجهها من وجهي، وعينيها اللتين كانتا أدفأ من العادة وكأنهما تحتضناني. كاد قلبي أن يتوقف في مواجهة هذه السعادة التي يفصل بينها وبين وجهي بضعة سنتيمتراتٍ فقط، لكنها وفجأةً سحبت يديها بأسلوب فظ جداً واستقامت.

- "أين تسكن؟"
- "على شارع لوتزاو!"
- "ليس ببعيد! .. في هذه الحال تعال غداً بعد الظهر وخذني من هنا!"
- "في أي شقة تسكنين!"

«سأنتظرك على النافذة. لاحاجة لصعودك!»

أدارت مفتاحها في قفل الباب ودخلت.

في هذه المرة سلكت طريق البيت بخطىً سريعة. شعرت بجسدي أخف مما هو على العادة، وفي مقابل عينيّ كان خيالها متجسداً. أتمتم بأشياء لا أعرف ما هي. وعندما استجمعت تركيزي أدركت أني كنت أردد اسمها وأخاطبها بكلماتٍ لطيفة ورومانسية، وألقي بين حين وآخر بضحكاتٍ حادةٍ وعالية يستحيل كبحها. وعندما وصلت إلى المهجع كان الصباح قد بدأ بالانبلاج.

لأول مرةٍ منذ طفولتي أغط في النوم من دون أن أقول وأنا أشعر بتحطم في صدري، ومفكرا بفراغ حياتي وسخافتها: "هذا يوم آخر قد ولّى. وكل أيامي ستمضي هكذا، ما الذي سيختلف لاحقاً ياترى؟!".

لم أذهب إلى المصنع في اليوم التالي. وفي تمام الساعة الثانية والنصف مررت بتيرغارتان متوجهاً إلى حيث تسكن ماريا بودر. كنت أتساءل

ما إذا كان الوقت مبكراً أم متأخراً، ومتردداً من أن أزعجها وهي التي سهرت إلى الصباح، ولديها عمل شاق في الليل أيضاً، كنت أحمل بداخلي نحوها شفقةً يصعب وصفها. أتخيل تمددها على السرير، وتنفسها الثقيل العميق، وبعثرة شعرها على الوسادة، ولا أفكر بوجود شيء في هذه الحياة أسعد من رؤية هذا المنظر. كان الشعور بالصلة والانتماء الذي استأثرت به عن الناس، والحب الذي لم أشعر به تجاه أي أحدٍ بمعناه الكامل، كأنه قد تجمع ككتلة واستفحل حجمه ثم خرج أخيراً بين يدي هذه المرأة. كنت أدرك بأنني لا أعرف عنها أي شيء بعد، وأني قد استمديت كل أحكامي عليها من تصوراتي وخيالاتي. ومع ذلك كانت عندي قناعةٌ ثابتة لا تهتز بأن ظني لن يخيب أبداً. طوال حياتي كنت أبحث عنها وأنتظرها. هل كان يمكن أن تخيب أحاسيسي المصاحبة لدقةٍ شديدة وموهبةٍ شبه مرضية، والتي تجعلني باستجماع كل تركيزي ووجودي في نقطة واحدة، أبحث عن هذا الإنسان في كل الجهات مدققاً النظر في كل من أصادفه؟ هذه الأحاسيس لم تخطئ أبداً إلى الآن. هي من يكون لها الحكم الأول على الإنسان، ولاحقا يغيرها عقلي وتجاربي، وغالباً مايكونا مخطئين. لكن في كل مرة ينتهي الأمر باكتشاف أن الحس الأول كان محقاً من البداية. في بعض الأحيان، كان الشخص الذي أُصدر بحقه حكماً قاطعاً تبدأ صورته في التغير نحو الأسوأ في عينيّ مع الوقت، أو يظهر على عكس ما ظننته تماماً. عندها أقول لنفسي: "معنى هذا أن انطباعي الأول خانني!"، لكني وبعد مدة - قد تكون قصيرةٍ أو طويلة جداً - أكتشف أن حكمي الأول كان

مصيباً، وأضطر فوق ذلك على قبول حقيقة كون المنطق كاذباً ومؤقتاً بسبب تعرضه للتأثيرات الخارجية والوقائع الخدّاعة.

الآن ولكي أعيش، أصبحت ماريا بودر الإنسان الذي أحتاج اليه بلا قيدٍ أو شرط. في أول اللحظات كنت أشعر بغرابة هذا الشعور. كيف لي أن أشعر فجأةً بهذا القدر من الحاجة إلى إنسان لم أكن أعرف بوجوده حتى؟ لكن أليس هذا هو الحال أبداً ودائماً؟ ألسنا لا نكتشف حاجتنا الملحة لأشياء كثيرة إلا عندما نراها ونتعرف عليها؟ حتى أنا، بدأت بالشعور بأن فراغ حياتي من هدف أو معنى إلى هذا اليوم كان بسبب حرماني من هذا الإنسان فقط. فانزوائي عن الناس وهروبي منهم وتخوفي من أن أُشعر أياً ممن كان حولي بأي ذرةٍ من ما كان يختلجه صدري، كان ذلك يبدو لي سخيفاً وغير ضروري. كنت أخاف أن تكون هذه الأحزان التي تلفّني من وقت لوقت، والسأم من الحياة من أعراض مرضٍ نفسي. وعندما كنت عقب استغراقي في قراءة كتاب ما لساعتين ألحظ بأن هاتين الساعتين كانتا أكثر أهمية وثقلاً من سنواتٍ كثيرة في حياتي، يراودني التفكير في العدمية المروعة لحياة الإنسان وأقبع في يأسٍ محبط.

لكن من الآن فصاعداً تغير كل شيء. منذ اللحظة التي رأيت فيها لوحة هذه المرأة قبل حوالي أسبوعين أحسست بأنّي عشت أكثر من كل سنوات حياتي. كل أيامي، كل ساعاتي، بل وحتى منامي كان ممتلئاً عن آخره. لم تكن أطرافي هي التي تتعبني فقط، بل مباشرة روحي بالحياة وبكل هذه القوة أشعرني بالتعب أيضاً، وظهور المناظر الجذابة والبديعة الجمال التي

تشـكّلت بخروج مكنونات ما كبت في صدري وبهذه الفجاءة من دون علمي إلى الوجود.

أعلمتنـي ماريـا بودر بوجـودٍ روحٍ لـدي. وحتى أنا، لأول مرة أشـعر بوجود شـخصٍ له روحٌ من بين كلّ الناس الذين صادفتهم. من المؤكد أن لكل الناس أرواح خاصة بهم، لكن كثيراً منهم لا يستوعبون ذلك، وسـيعودون إلى المكان الذي جاؤوا منه قبل أن يعوا ذلك أيضاً. بمجرد أن تجد الروح ما يشـابهها، ومن دون حاجة إلى حسـاباتنا واستشاراتنا، تخرج نفسـها وتظهـر عـلى السـطح. ولانبـدأ إلا وقتهـا فقـط بالعيش الحقيقـي، - وذلـك أن نعيش مع أرواحنا -. في ذلـك الوقت يُترك كل ترددنا وخجلنا جانباً، لتتحاضن الأرواح مع بعضها، سـاحقةً كل شيءٍ في طريقها، وهي تجري إلى من تتعلق به.

اسـتحال كل خجلي وتحفظاتي عدماً. كنت أنتظر بفارغ الصبر لأسكب كل ما بنفسي بين يدي هذه المرأة. كل جوانبي الجيدة والسيئة، الضعيفة والقويـة، ومـن دون إخفاء نقطـةٍ واحدة حتى، ترافقهـا رغبة بأن أنشر روحـي أمامهـا عاريـة. كـم كان هنـاك كثير مـن الأشـياء لأخبرها بها وأحكيهـا لها.. لـو تكلمت طوال مابقـي من حياتي لما كفـت لأكملها. لأننـي بقيت طوال سـنوات عمري الماضية صامتـاً، ومقابل كل ما يمر بخاطـري أقـول لنفـسي: "يارجـل، ماذا سـيحدث لو تكلمـت؟". في الماضي كنت عند مصادفة أي شـخص، ومن دون اعتماد على أي أساس عدا شـعورٍ لا يقاوم، كنت أقول لنفسي :"هذا لن يفهمني!"، لكن وفي هذه المرة ، وبلا استنادٍ على أي أساسٍ أيضاً غير ذلك الإحساس الأول

الذي لا يخطئ قلت: "نعم، هذه ستفهمني!".

وصلت وأنا أمشي بخطىً ثقيلة إلى قناةٍ تمرّ بجنوب حي تيرغارتان. من فوق الجسر هنا كان بيت ماريا بودر يبدو واضحاً من بعيد. الساعة لم تتجاوز الثالثة، وبسبب زجاج النوافذ العاكس لم أستطع تبيّن إذا ما كان هناك أحدٌ خلفها أو لا. نظرت إلى المياه الساكنة مقترباً إلى حافة الجسر. كانت قطرات المطر الخفيف البادئ منذ قليل تنزل عليه بلطف. وعلى بعد مسافةٍ لا بأس بها كان هناك زورقٌ يفرغ حمولته من الخضار والفاكهة إلى العربات التي كانت على المرسى، والأوراق التي كانت تتساقط من الأشجار التي على جوانب القناة كانت تطير وهي تبرم في الهواء قبل أن تسقط. كم كان هذا المنظر السوداوي والمغموم جميلاً! كم كان الهواء الرطب الذي تنشقته منعشاً! أن تحيا، متأملاً أصغر اهتزازات الطبيعة، أن تحيا هو أن تراقب انسكاب الحياة ومضيها بمنطقٍ لا يتزعزع. وتعرف بأن لحظةً ما قد تملأ عمراً كاملاً.. والأهم من ذلك، أن تؤمن بوجود إنسان ستحكي له كل ذلك، وأن تحيا وأنت تنتظر قدومه.

هل في الدنيا شيءٌ باعث للسرور والإنشراح أكثر من هذا؟ سنمشي بعد قليل سويةً في هذه الطرق المبتلة، وسنجلس في مكان منعزلٍ ومعتم وستقابل عيناي عينيها. سأحدثها عن أشياء كثيرة، أشياء لم أبح بها لأحدٍ حتى الآن، ولا حتى لنفسي. أكثرها كانت تولد في لحظة مفاجئة، وبسرعةٍ تثير دهشتي كانت تترك أماكنها لغيرها وتذهب. سأمسك يديها براحتي كفي، وأدفئ أطراف أصابعها الحمراء الباردة بفرك لطيف. وبكلمةٍ واحدة، سأكون قريباً منها.

جاوزَت الساعة الثالثة والنصف. "هل استيقظت ياترى؟"، قلت لنفسي. هل من الصواب أن أذهب إلى مقابل منزلها وأتجول إلى أن تظهر؟ قالت بأنها ستكون منتظرةً في النافذة. هل ستخمن بأني أنتظر هنا؟ هل ستأتي حقاً؟.. طردت هذا الشك من رأسي فوراً. شعرت بكون هذه الفكرة التي تحمِل عدم الثقة بها وظلماً لها، كنسفٍ للبناء الذي شيدته بنفسي. لكن الاحتمالات هذه كانت تتلاحق وتطارد بعضها بسرعة كبيرة. قد تكون مريضة، أو ذهبت لقضاء شيءٍ ضروري. نعم هذا أكيد. فقدوم سعادةٍ كبيرة جداً بهذه السهولة ليس بالشيء الطبيعي. مع مرور كل دقيقةٍ كان اضطرابي يزيد أكثر، وقلبي يخفق بشدة أكبر. ما مررت به ليلة الأمس كان مجرد صدفةٍ من الصدف التي يمر بها الإنسان مراتٍ قليلةٍ في حياته. وانتظار تكرارها ليس صواباً أبداً. بدأ عقلي حتى بإيجاد تعازٍ تواسيه. ربما لم يكن شيئاً جيداً لحياتي أن تسلك طريقاً جديداً ومظلماً لا تبدو نهايته فجأةً هكذا. أليست عودتي لسكوني، والرضوخ لأغلال أيامي المخدرة والبقاء فيها ستكون مريحة أكثر؟

عندما أدرت وجهي، رأيتها وهي تمشي قادمةً باتجاهي. على ظهرها معطفٌ خفيف، وعلى رأسها قبعة زرقاء داكنة، ومرتدية لحذاء منخفض الكعب. كان وجهها باسماً. وعندما وصلت إلى جانبي مدت يدها:

- "هل انتظرتني هنا؟ منذ متى؟" قالت.

- "منذ ساعة!"

كان صوتي يرتجف من الحماس. ظنّت بأني قلتها شاكياً، فقالت بعتابٍ نصف مازح:

- "أنـت المخطئ، سـيدي."، وأكملت "فقد انتظرتك لسـاعة ونصف السـاعة. وأدركـت قبل قليلٍ صدفـةً بأنك فضّلت مشـاهدة هذا المنظر الشاعري على أن تأتي لمقابل المنزل!"

معنـى هذا أنها انتظرتني، وبالتالي فأنا أعتبر إنسـاناً ذا أهميةٍ بالنسـبة لها. نظرتُ إليها بعيون قطة تتعرض للتمسيد قائلا:

- "شكرا!"

- "على ماذا؟"

تلقفت ذراعي من دون أن تنتظر جواباً:

- "هيا لنذهب!"

بـدأت بالمـشي كتابعٍ لها. كانـت ترمي بخطوات قصـيرة ولكن سريعة. كنت خائفاً من أن أسألها عن وجهتنا. لم نتكلم عن شيءٍ بينما كنا نمشي. رغم أني كنت مرتاحا للسـكوت جداً، إلا أني كنت آكل نفسي ظاناً بأنه يتوجـب عـلي قول شيء ما. ليـس هناك أيـة أثر لأية فكرة مـن الأفكار الجميلـة والمهمـة التـي كانت تتابع في ذهنـي قبل قليل. ومـع اجتهادي بالتفكير أكثر، أحسسـت كأن رأسي يفرغ مـن كل شيء ويصبح وضعه بائسـاً، ولم أشـعر بكون دماغي أكثر من قطعة لحم تـؤلم رأسي. وعندما نظـرت إليهـا بطـرف عيني، أدركـت أن كل مـا اعتراني مـن اضطرابٍ وهيجـانٍ لم يترك عليهـا أثراً. كانت تمشي وعيناها السـوداوان مطرقتان إلى الأرض، ووجهها يعلوه سـكون ثابت، وعلى طرف شـفتيها انحناء يذكّر بابتسـامة. تركت يدها اليمنى تستند على ذراعي بارتياح، وإصبع سبابتها المنتصب قليلاً كان وكأنه يشير إلى نقطة ما أمامنا.

وفي كل مرة أنظر إلى وجهها كنت أرى حواجبها مرتفعة وكأنها تفكر في شيءٍ ما. في أجفانها كانت تظهر عروق زرقاء دقيقة، ورموشها السوداء الكثيفة ترتجف بخفة وتلمع عليها نقاط صغيرة من قطرات المطر، وكان معظم شعرها قد ابتل.

قالت ملتفتةً نحوي فجأة:

- "لماذا تنظر إلي بهذا التمعن؟"

خطر على بالي هذا السؤال في نفس اللحظة أيضاً: كيف حدث هذا؟ أن أنظر ومن دون أي تردد أو خوف، وربما لأول مرةٍ في حياتي، في وجه امرأة وأدقق النظر لفترة طويلة من دون أن أفكر في فعلي هذا. وكيف لهذا أن يستمر إلى اللحظة، كيف لي حتى بعد أن سألتني ونظرت إلي لم أخسر جرأتي واستمريت بالتحديق فيها؟ قلت لها بشجاعة أذهلتني:

- "أيزعجك ذلك؟"

- "لا، ليس هذا السبب، سألت فقط. ربما أريدك أن تنظر ولذلك سألتك!"

كانت عيناها سوداوان وعميقة الدلالة لدرجة اني لم أتحمل فسألت:

- "هل أنت ألمانية؟"

- "نعم، لماذا سألت؟"

- "شعرك ليس بأصفر ولا عيونك زرقاء!"

- "ربما!"

حدثت في وجهها حركة تشبه الإبتسامة المعتادة، ولكنها ظهرت مترددة نوعاً ما.

- "أبي كان يهوديـا!"، قالـت. " أمـي ألمانيـة. لكـن حتـى هي ليسـت شقراء."

سألت بفضول:

- "معنى هذا أنكم يهود؟"

- "صحيح.. هل تعادي اليهود أنت أيضاً؟"

- "مـا العلاقة؟! ليس عندي شيء من هذا القبيل. كل الموضوع أنني لم أتوقع ذلك!"

- "نعم، أنا يهودية. أبي من براغ. وقبل أن أولد تحول إلى الكاثوليكية!"

- "في هذه الحال أنتم تعتبرون مسيحيين!"

- "لا.. أعني أني شخصياً ليس لي علاقة بأي دين!"

مشينا مسافةً طويلةً. لم تكمل كلامها، ولا أنا سألتها سؤالا آخر. اقتربنا ببـطءٍ من أطراف المدينة. بدأ الفضول يجتاحني لمعرفة وجهتنا. لم نخرج لنتمشـى في مثـل هذا الجو عـلى كل حال. كان المطر مسـتمراً في الهطول بنفس الغزارة. قالت ماريا في لحظة:

- "إلى أين نحن ذاهبون؟"

- "لا أعلم."

- " ألا تشعر باالفضول؟"

- "أنا تابع لك، أينما تريدين أذهب!"

قالـت ملتفتـة إلي بوجههـا الـذي كان كوردة بيضـاء غُطيـت بقطرات الندى:

- "يا لسذاجتك. أليس لك فكر مستقل ورغبات خاصة؟"

استذكرت كلماتها بالأمس على الحال:

- "لقد منعتني من طلب أي شيء منك!"

لم تجب. استطرَدْتُ بعد صمتٍ قصير:

- " أيعنـي هـذا أنـك لم تكوني جـادّة بالأمس؟ أو أنـك غيرت رأيك اليوم؟"

- " لا! لا! أنا لا أغير رأيي!"

وغرقت في أفكارها مجدداً.

وصلنا إلى أمام حديقة كبيرة مسيجة. قالت وهي تحثُّ خطاها:

- "ندخل إلى هنا؟"

- "ماهذا المكان؟"

- "حديقة نباتات!"

- "أنت أدرى!"

- "لندخل إذن. أجيء إلى هنا دائماً، حتى في أجواء ممطرة كهذه."

لم يكن هناك أحد بالداخل. تمشينا في الطرق الموحلة لمدة طويلة. جوانب الطريـق كانـت ممتلئـةً بأشـجار كثـيرة لم تتسـاقط أوراقها رغـم فوات مواسـمها، وأحـواض المـاء الكبيرة الصخريـة محاطةٌ بأنـواع كثيرة من أعشـاب مختلفة الألوان، كان هناك أزهار وطحالب مائية أيضاً، ووجه الماء تغطيه أوراق كبيرة. وبداخل بسـاتين الحمضيـات المرتفعة تتواجد نباتات المناطق الحارة ونباتات كثيفة صغيرة الأوراق. قالت ماريا:

- "هنا أجمل مكان في برلين. في هذا الموسم أستطيع القول بأنه خالٍ لا يأتيـه أحد.. ثـم إن هذه الأشـجار الغريبة تذكرني دائـما بأوطانها

وتجعلني أتأسف وأتوجع لها. عندما أراها بعد أن اجتثت من الأرض التي اعتادت عليها، وأحضرت إلى هنا وهم يحاولون إبقائها حية تحت ظروفٍ غير طبيعية أحزن عليها بعض الشيء. أتعلم؟ في مئة يوم من أيام السنة تكون برلين مشمسة وجوها صحو، ومغيمة قاتمةً في مئتين وخمس وستين يوماً. أتستطيع إضاءات البساتين وشموسها الصناعية إشباع حاجة أوراق الأشجار التي اعتادت على الضوء والجو الحار؟ رغم ذلك فإنها تعيش ولاتجف. لكن أيمكن القول عن هذه المعيشة بأنها حياة؟ ألا يعتبر فصل كائن حي عن بيئته المناسبة له، وجعله تابعاً تحت هذه الظروف الفظيعة لإرضاء بعض الفضوليين نوعاً من أنواع التعذيب؟"

- "لكنك أنت أيضاً أحد الفضوليين."

- "صحيح ، لكن في كل مرة أجيء فيها إلى هنا يغمر داخلي حزن عميق!"

- "لماذا تأتين إذن؟"

- "لا أعلم!"

جلست على أحد المقاعد المبتلة. جلست بدوري إلى جانبها. قالت ماسحةً حبات المطر عن وجهها:

- "مشاهدتي لهذه النباتات هنا تجعلني أفكر في نفسي. ربما أتذكر أجدادي الذين عاشوا قبل عصورٍ مع هذه الأشجار والأزهار الغريبة في نفس المكان. ألسنا نحن أيضا مثلهم؟ انتُشلنا من أماكننا وفُرّقنا؟ لكن هذا لايهمك.. بالأصح هو لايهمني أنا كثيراً أيضاً، لكن تفكيري في أشياء

كثيرة يمكنني من عيش أشياء كثيرة داخل عقلي. سترون، فأنا إنسانة أعيش في داخل رأسي أكثر مما أعيش في العالم الخارجي. في الحقيقة، حياتي ليست بأكثر من حلم ممل. ربما وجدتم عملي في الأتلانتيك محزناً، لكنني لست واعية حتى لكونه أو عدم كونه ذلك. أحيانا يكون مسلياً لي حتى.. أنا لاأعمل هناك إلا لأجل أمي، فأنا مجبورة على الاعتناء بها. العيش على ماأكسبه من بيع لوحاتي التي أرسمها في السنة لا يكفي. هل لكم خبرة في الرسم؟"

- "قليلاً!"

- "لماذا لم تستمروا؟"

- "لم أحس بأني مستعد لذلك!"

- "لا يمكن! كانت تعابير وجهك وأنت تشاهد اللوحات في المعرض تظهر استعدادك لذلك. فهمت بأنك لست بجريء، جرب. فليس من الجميل أن يكون هناك رجلٌ جبان إلى هذه الدرجة. أقول هذا لمصلحتك. عندما يتعلق الأمر بي، فعندي الشجاعة لفعل ذلك. أريد الرسم وعكس أحكامي على الناس على الورق، وربما أنا ناجحةٌ في ذلك، لكن هذا جهد فارغ أيضاً. لايمكن للناس الذين أستخف بهم فهم ما أفعله، والذين يستطيعون الفهم لايستحقون الاستخفاف بهم أصلاً. في هذه الحال، ومثل ماهو الوضع في كل الفنون، فالرسم فنٌ بلا مُتلقٍ معين، يعني ذلك أنه عاجز عن مخاطبة من يقصده في الأصل. ورغم هذا فإنه العمل الوحيد الذي آخذه على محمل الجد في هذه الدنيا. لهذا لا أريد العيش على ما أكسبه من الرسم. لأني لو

فعلت ذلك، فسأفعل مايريده غيري مني، لا ما أريده أنا. لا، أبداً، إني أفضّل أن أعرض جسدي في السوق على أن أفعل ذلك، لأني أرى جسدي بلا أهمية."

ضربت ركبتي وقالت:

- "هكذا ياصديقي العزيز، مانفعله نحن أيضاً ليس بالشيء المختلف كثيراً. كنت موجوداً البارحة عندما قبّل ظهري أحد المخمورين، أليس كذلك؟ يقبّل طبعاً، من حقه، إنه يصرف ماله لذلك. يقولون أيضا أن ظهري جذاب، هل تريد تقبيله أنت أيضاً؟ أمعك نقود؟"

تسمرت مكاني وكأن في لساني عقدة. وبدأت عيناي ترمشان بسرعة وأسناني تعض على شفتي. عندما لاحظت ماريا ذلك عبست وأصبح وجهها شاحبا أكثر من أي وقت مضى، قالت ووجهها كالجصّ :

- "لا، لاأريد هذا ياسيد رائف. قطعاً. فأكثر شيء لا أستطيع تحمله هو الشفقة. في اللحظة التي أشعر أنك أشفقت فيها علي، سأقول مع السلامة! لن ترى بعدها وجهي حتى."

وعندما رأت تفاجئي وكوني أنا من يستحق العطف، رمت بذراعها على كتفي:

- "لا تنفعل من كلامي! علينا ألا نتردد من التحدث صراحةً عن أشياء قد تنغص علينا صداقتنا في المستقبل. الجبن في مثل هذه المسائل مضر. ماذا سيحدث؟ إذا أدركنا عدم إمكانية تفاهمنا، تودعنا وافترقنا.. هل هذه مصيبة عظمى؟ ألا تقبل بحقيقة أن كون الشخص وحيداً في هذه الحياة هو الطبيعي؟ كل التقاربات وشتى أنواع الترابط كاذبة، فالناس

يستطيعون الاندماج مع بعضهم إلى حد معين فقط، وماغير هذا فهو تصنع؛ وفي يوم من الأيام وعندما يدركون أخطائهم، يتركون كل شيءٍ ويهربون بسبب يأسهم. لكن لو أنهم اقتنعوا بما هو ممكنٌ فقط، وتراجعوا عما اعتقدوا في عقلهم بأنه الحقيقة لما كان لهذا أن يحصل. عندما يقبل الكل بما هو طبيعي، لن تبقى أية خيبة أمل أو انكسار. كلنا نستحق الأسف والشفقة في حالنا هذا؛ لكنا يجب أن نكون نحن من نشفق على أنفسنا، فالعطف والشفقة على غيرك تعني أنك تعتقد بأنك أقوى منه، وماهو حقنا في أن نرى أنفسنا كباراً، أو في أن نرى غيرنا بؤساء؟ أنذهب الآن؟"

اعتدلنا واقفين، نفضنا عن ملابسنا ماعلق بها من قطرات المطر، كان الطين اللزج الملتصق بأحذيتنا من الاسفل يسبب صوتاً غريباً. بدأت الشوارع تكتسي بالظلام، لكن أعمدة الانارة لم تضيء بعد. كنا عائدين كما أتينا، بخطوات مسرعة مارين من نفس الشوارع. في هذه المرة كنت أنا من أدخل يدي في ذراعها، ملتصقاً بها كطفل صغير، وملصقاً وجهي بها. في داخلي حالٌ غريبٌ يتردد بين الحزن والبهجة، مع رؤيتي أن كثيراً من أحاسيسها وأفكارها تتشابه مع أحاسيسي وأفكاري يجعلني أشعر باقترابنا لبعضنا بقوة أكبر وأبتهج؛ لكن إدراكي كونها ستفترق عني في نقطةٍ ما، وفهمي كونها لاتريد إخفاء الحقائق عنها أو التعرض للخداع أبداً، يبقيني خائفاً. كان هنالك حس غامض يهمس لي بأنك إذا رأيت أحداً - كائناً من كان- على حقيقته، ولم تخف مارأيته عن نفسك فلن تستطيع الاقتراب منه مجدداً أبداً.

لكنني لم أرد أن أكون أحد محبي الحقيقة. كنت مدركاً بأنني لن أتحمل أي حقيقةٍ قد تبعدني عنها. بعد عثورنا على أهم وأغلى الأشياء الموجودة فينا من أجل أرواحنا، أليس تجاهل التفاصيل، أو بتعبير أصح، التضحية بالحقائق الصغيرة من أجل الحقيقة الكبرى أكثر إنسانية وإنصافاً؟

من المؤكد أن سبب تفكير هذه المرأة بهذه الطريقة وكونها محقة بخصوص كل شيءٍ وسليمة الحكم على ماحولها هو تأثرها بتجارب الحياة المرة وتأثيرات محيطها المفسدة. فبسبب عيشها بين أناس لا تريدهم ولايعجبونها، وكونها مجبورة على الابتسام والضحك لهم، كانت تقع في انفعالٍ عميقٍ وتشتبه في كل الناس. بينما في حالتي، ولكوني مبتعداً عن الناس طوال عمري، ولم أتعرض لمضايقاتٍ كثيرة منهم فلم يكن بي حنقٌ على أحد. ما كان يضايقني فقط هو شعوري بالوحدة، وبسبب تأثيرات هذه الوحدة فأنا مستعد لخداعِ نفسي في نقاط كثيرة مقابل الإنسان الذي أحسست بالقرب منه.

وصلنا إلى أواسط المدينة. الشوارع مزدحمة ومضاءة. كانت ماريا بودر غارقةً في التفكير ومحزونة قليلاً. سألتها بخوف:

- "هل أزعجك شيء ما؟"

- "لا!"، أجابت. "لم يحدث شيء يزعجني. بل أنا سعيدة بهذه النزهة. سعيدةٌ على كل حال.."

كان جلياً أنها كانت تفكر في أشياء أخرى وهي تتكلم، ففي نظراتها التي كانت تلتفت لي بين كل حين وآخر حالٌ سارحٌ، وفي ابتسامتها غرابةٌ مقلقة. في لحظة توقفت وسط الطريق.

- "لا أريـد الذهـاب للبيت!" قالـت. "هيا، لنأكل سـويةً في مكانٍ ما، ونتكلم إلى أن يحين موعد عملي!"

قابلـت هـذا العرض الغـير المتوقع بحماسٍ شـديد، لكنّـي عندما رأيت أن حـالي هذا سـيجعلها تتوحـش أكثر هـدّأت نفسي ونظـرت أمامي. دخلنـا إلى مطعـم كبير في غرب المدينـة، لم يكن داخله مزدحمـاً جدّاً. في أحد زواياه امرأةٌ بافاريةٌ ترتدي زياً شعبياً وتعزف موسيقى صاخبة على الأوركسترا. جلسنا على طاولةٍ في الركن وأكرمناها طعاماً وشراباً.

انتقل إلي أيضاً وجوم وهدوء ماريا . في داخلي قلقٌ وشـعور تحطم ليس لـه دافع. عندما لاحظت المرأة ذلك علي حاولت التخلص من أفكارها والإبتسام لي وتسليتي. ضربَت بيدها يدي المسندة على الطاولة:

- "لمـاذا تعبـس؟ في العادة يكـون الخارجون لتناول الطعـام مع امرأةٍ لأول مرةٍ مبتهجين وثرثارين!"

قالـت مازحةً، لكن عدم تصديقها لما تقولـه هي كان واضحاً، فأخذت على إثر ذلك وضعها السـابق بسرعة. تمشـت بعينيها في المكان لا لشيء إلا لتكون قد فعلت شيئاً ما. احتست عدة جرعاتٍ من الشراب أمامها ثم حولت نظرها إليّ فجأة:

- "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ لاأسـتطيع أن أصبح شـيئا آخر، لا أستطيع أن أتغير!"

مـا الـذي كانـت تعنيـه؟ لم أسـتطع تفسـير كلامها إلا بشـكل سـلبي. أحسسـت بأن الشيء الذي قالت بأنها لا تستطيع فعله أصبح يزعجني أنا أيضاً، لكنني لم أستطع استيضاح ماهيته أو معرفته بعد.

عيناهـا تريدان التعلق بـكل شيءٍ تقعان عليه، ويبدو أنهـا بالكاد كانت ترفعهـما عما تنظران إليه. أثناء جلوسـنا كانت تسري في وجهها الناصع كبيـاض اللؤلؤ رعدات خفيفة لاتكاد تبدو للعيان. قالت فجأة بصوت به ارتعاش شديد وهيجان بالكاد يُضبط:

- "إياك أن تزعل مني. سـيكون كلامي معك بصراحة شديدة أفضل لكيلا تقع في أمانٍ وآمالٍ فارغة. لاتسيء فهمي ولا تزعل مني. بالأمس أتيـت إليـك، وطلبت منـك مرافقتي إلى منزلي، واليـوم عرضت عليك أن نتنزه سـويةً، وفي المسـاء عرضت عليك تناول العشـاء معاً، وكأنني أصبحت مربوطة بـك. لكني لا أحبك. هذا كلّ ماكنت أفكر فيه.. لا، حتى أنت لا أحبك. ماذا أفعل؟ ربما أجدك لطيف بالفعل، بل وجذاب أيضـاً. ربـما أرى فيـك جوانـب مختلفـةً أو غـير موجـودة عنـد كل من عرفتهم مـن الرجال، فقط إلى هذا الحد. فالكلام معك، والتحدث عن أشـياء كثيرة، والنقاش، والجدال...فالخصـام، والاعتذار والتصافي من جديد، كل هذا سـيجعلني مسرورة بالتأكيد.. لكن الحب؟ لا أقدر على ذلك. أعتقد أنك تريد معرفة سـبب قولي هذه الأشـياء الآن؛ كما قلت، لاتنتظر منّي شـيئاً في المسـتقبل فيخيب أملك وتسخط علي. أنا أُعلمك من الآن بما أستطيع منحه لك حتى لاتزعـم بأني خدعتك وتلاعبت بك في المستقبل: مهما كنت مختلف في طباعك، ففي النهاية أنت رجلٌ أيضاً. وكل مـن عرفتهم مـن الرجال عندما علموا ذلك، أعني عدم حبّي لهم، عـدم اسـتطاعتي لحبّهم، هجروني بتأثر كبير، بل وحِدّة شـديدة أيضاً.. هكـذا، مع السـلامة.. لكن لماذا اعتقـدوا بأني أنا المذنبـة؟ أنا لم أعدهم

بشيء قطّ، ألأنّني لم أستطع أن أعطيهم ماتخيلوه في عقولهم فقط؟ أليس هـذا ظلم؟ أنت أيضاً لا أريد منك التفكير بتلك الطريقة عني، يمكنك تسجيل هذه كنقطة لصالحك."

أصابني الذهول. لكنّي قلت محاولاً ضبط نفسي:

- "مـا لزوم كل هذا الـكلام؟ طبيعة صداقتنا لا أصيغهـا أنا، بل أنتِ. ليكن ماتريدين أنت!"

اعترضت بشدة قائلةً:

- " لا، أبـداً، هـذا لا يصلـح. انظـر، هل رأيـت؟ أنت أيضـا مثل كل الرجال، تجعلـون كل شيء يخضع لإرادتكم متظاهرين بأنكم أنتم من يذعن لكل الشروط . لا يا رفيق! لا تُحلّ المشاكل بمثل هذه العبارات المسكّنة. فكر في هذا، ليكن هذا الموضوع ضدّي أو ضد غيري، فدائماً ورغم محاولاتي لإبداء رأيي صريحاً بلا رياء، إلّا أنني لا أصل إلى نتيجة أبداً. علاقات النساء والرجال معقّدةٌ جداً، ورغباتنا ومشاعرنا غامضةٌ وضبابية لدرجة أن لا إنسـان يعلم مايفعله تماماً، الكل يذهب منجرفاً مـع التيار. أنا لا أريد هذا.. ففعلي لأشـياء لسـت مقتنعـةٍ بها، يجعلني صغـيرة حينما أفكـر في ذاتي. الشيء الـذي لا أتحمله بالـذات هو كون المـرأة مجبورة على الهـدوء والطاعة أمام الرجل دائـماً. لماذا؟ لماذا نهرب نحن دائماً وأنتم تلاحقوننا؟ لماذا نحن المسلِّمين دائماً وأنتم المستلمين؟ لماذا حتـى في رجاءاتكم لنا لكم هيمنة وتحكم، وفي رفضنا عجز؟ منذ طفولتي وأنا متمردة على ذلك، لم أسـتطع تقبله إطلاقاً. لماذا أنا هكذا، لماذا النقطة التي لاتعيها حتى معظم النسـاء تبدو مهمة لي بهذا القدر؟

فكـرت في هذا كثيراً. هـل هناك جانب طبيعي في شـخصيتي يا ترى، أقـول لنفـسي. لا، على العكس، ربـما لأني عادية أكثر من كل النسـاء، فلهذا أنا أفكر في ذلك. لأن حياتي وبمحض مصادفة، مرّت بعيداً عن التأثـيرات التي تعوّد النسـاء على رؤية أقدارهم طبيعيـة. توفّي أبي وأنا صغـيرة، فبقيت أنـا وأمي في البيـت لوحدنا. كانت أمـي تمثّل إحدى النساء اللاتي اعتدن على أن يكنّ تابعاتٍ، معتاداتٍ على الطاعة. فَقَدَت الإعتياد على المشي وحدها في الحياة، بل من الأصحّ قول أنها لم تنله أبداً في حياتها. بدأت أنا بإدارتها رغم كوني صغيرة في السـابعة من عمري. أرشـدتها، لقنتها الصواب والخطأ، وكنت داعماً لها. وهكذا كبرت من دون هيمنة ذكر، أعني كبرت طبيعية. في المدرسة كان تمَسْكُنُ الفتيات وتصرفاتهنّ تقززني. لم أتعلم أي شيءٍ يجعل الذكور يعجبون بي، إطلاقاً. لم يحمـر وجهـي في مقابلهم، ولم أنتظر منهم مجاملةً أو مغازلةً أبداً. هذا الحـال حكم عليّ بوحدة فظيعة. حتـى صديقاتي يجدن صعوبة في تقبل آرائـي، فهـي لا تعجبهن ولا تريحهـن. يفضّلون، بل ويجدونه أبسـط وأكثـر جاذبيـة أن يكونوا مجرد دمىً يُلعَب بهـا بلطف على أن يصبحوا كاملي الآدمية. لم أستطع مصادقة الذكور. عندما يكتشفون أنني لست باللقمـة السـائغة الناعمة التي يبحثون عنهـا، يفضّلون الهرب على أن يشـعرون بأني أمثّل قوة مساوية لهم. وقتها أدركت ماهية وحقيقة عزم وقوة الذكور تماماً، ليس في الدنيا أي مخلوقٍ يركض خلف الإنجازات السـهلة ولايوجد أي مخلوق مغترٌّ ومعجبٌ بنفسـه كالذكر، وفي نفس الوقت جبانٌ ولايهتم إلا براحته. من بعد أن أدركت ذلك أصبح حبّي

للرجـال مسـتحيلاً بالفعل. حتى الرجـال الذين أعجبت بهـم كثيراً، ورأيت بأنهم يشـبهونني في خصائص عديدة، وبأبسط الطرق، رأيتهم يظهرون أنياب الذئاب؛ فبعد رفقتنا التي أمتعتنا سوياً بنفس الدرجة، أراهـم يحاولون الإعتذار إليّ والمحافظة على علاقتنا، وفي نفس الوقت يجلسون بجانبي تعلوهم نظرات أحمقٍ يظنّ بأنه انتصر بشكل أو بآخر. لكنهم هم من كان حالهم يؤسف فعلاً، هم من كانوا يُظهرون بؤسهم إلى العلن. فليس هناك أي امرأةٍ مثيرةٍ للسخرية وعاجزة بقدر مايكون رجلٌ طموحٌ. لكن ورغم ذلك يظنّون أن هذه الأحوال هي من مظاهر القوة لدرجة تجعلهم مغرورين جداً. يا إلهي، الإنسـان يُجنّ حينما يرى ذلـك. رغـم أني متأكدة من عدم وجـود ميول غير طبيعيـة فيّ، إلا أني أفضل أن أقع في حب امرأة."

سـكنت قليلاً ثم دققت النظر في وجهـي. شربَت قليلاً من الخمر. ومع استرسالها في الكلام كان يبدو أنها ترتاح وتتخلص من همها أكثر.

- "مالذي فاجأك؟"، قالت مكملة. " لا تخف، فلسـت كما تظن. لكن ليتني أكون كذلك. سأكون قد فعلت شيئاً يحطّ من روح الإنسان أكثر. لكننـي رسـامة، تعلـم.. لي معايير جمال خاصة بي. لا أجـد تبادل الحب مع امرأةٍ شـيئاً جميلاً. كيف أعبّر لك؟ لا أراه جمالياً. في النهاية أنا أحب الطبيعـة، وأتـصرف بتردد تجـاه كل ماهو غير طبيعي. بالتـالي أؤمن بأن عليّ أن أحب رجلاً في النهاية. لكن ليس أي رجل، رجل حقيقي، رجلٌ يسـتطيع جذبي إليه بلا اعتماد على أي قوة، ومن دون أن يطلب مني أي شيء، من دون أن يتسـلط علي. رجلٌ يحبني ويمشي إلى جانبي من دون

أن يذلنـي. أعني قويٌّ حقاً، رجلٌ بمعنى الكلمة. هل تفهم الآن لماذا لا أحبـك؟ لم يمض وقـت كاف ليحصل حبٌّ أصلاً، لكن لسـت أنت ما أبحـث عنه. مع أنك في الواقع ليس بـك ذلك الكِبر الذي تحدثت عنه، لكنـك في كثير من النواحـي تبدو كطفل، بل أكون دقيقـةً أكثر لو قلت كامـرأة. مثل أمي تماماً، تبدو كمن يحتاج شـخصاً ليقودك. أسـتطيع أن أكون ذلك الشخص إذا أردت، لكن لا أكثر من ذلك. نستطيع أن نكوّن صداقـةً رائعـة. أنت أول رجلٍ ينصـت إليّ دون أن يحاول مقاطعتي، أو يغير رأيي، أو يقنعني بشيءٍ ما. يتضح لي من نظرتك أنك تفهمني.. كما قلت لك، نسـتطيع أن نكون رفاقاً في غاية الروعة. كما تحدثت أنا معك بصراحة تسـتطيع أنت أيضاً أن تخبرني عـما بداخلك. هل هذا قليل؟ أم إضاعـة هذا أيضاً بالطمع في المزيد أفضل؟ لا أريد ذلك أبداً. قلت لك مساء البارحة أيضاً أن لي أحوال تناقض بعضها، لكن لا يجب لذلك أن يسوقك لأفكار خاطئة. ففي النقاط الرئيسية أنا لا أتغير أبداً. ما رأيك؟ هل نصبح أصدقاء؟..»

أبقـاني كل كلامها هـذا مبهوتاً. كنت خائفاً مـن إصدار حكمي الأخير بحقها وشاعراً بأنه لن يكون مصيباً. كانت هناك رغبةٌ واحدةٌ في عقلي: أن أكون قريباً منها، وألّا أنفصل عنها، وليكن الثمن مايكون. لا تهمني البقية. لم أعتد أن أطلب من أي إنسان أكثر مما أعطاني. رغم ذلك كان في داخلي وجومٌ غريب. نظرت في عينيها السـوداوين اللتين كانتا تنتظران جواباً وقلت بصوتٍ ثقيل:

– "ماريا، أتفهمك تماماً. أرى أن تجاربك الحياتية ساقتك لقول كل هذه

الإيضاحات، وأشكرك لفعلك ذلك منعاً لأي شيء قد يهزّ صداقتنا فيما بعد. معنى هذا أن للصداقة هذه قيمة لديك."

هزت رأسها مصادقةً على كلامي، فأكملت:

- "ربما لم يكن هناك مايدعو لقول هذا كله. لكن من أين لك أن تعرف؟ فنحن لم نتعرف على بعضنا إلا منذ فترةٍ بسيطة. الإحتياط واجب. ليست لي تجاربٌ في هذه الحياة بقدر تجاربك، لم أتعرف إلا على أناسٍ قليلين وعشت دائما مع نفسي. أرى أننا ورغم سلوكنا طرقاً مختلفة، إلا أننا وصلنا لنفس النتيجة: كلانا يبحث عن إنسان بعينه. إذا وجدنا هذا الإنسان في بعضنا فسيكون ذلك ممتازاً. هذا هو أهم شيءٍ في الحقيقة، وكل المسائل المتبقية تعتبر من الدرجة الثانية. مجيئاً إلى علاقات الرجل والمرأة، تستطيع التأكد من أني لن أكون في أي وقتٍ رجلاً يستحق الخوف منه. رغم أني لم تكن لي أي مغامرات نسائية، إلا أنه لا يخطر على بالي أبداً أني أستطيع أن أحب إنساناً لا أقدّره وأجده قوياً مثلي. تحدثت عن الإذلال قبل قليل، الذكر الذي يسمح لكل ذلك بالحصول ينكر شخصية ذاته، وفي الحقيقة يذلّ نفسه. أنا أيضاً مثلك أحب الطبيعة وكل ماهو طبيعي، بل أستطيع أن أقول أيضاً أنني بقدر ما أبتعد عن الناس أكثر فإني أقترب من الطبيعة. وطني هو من أجمل أماكن الدنيا. كثيرٌ من الحضارات التي درسناها في التاريخ نشأت واندثرت هناك. كنت وأنا أضطجع تحت أشجار الزيتون المعمّرة لعصورٍ طويلةٍ أفكر في الناس الذين جمعوا محاصيلها قبلي. في الجبال المكسوة بأشجار الصنوبر، رأيت جسوراً رخاميةً وعواميد مزخرفة في أماكن كان يُعتَقد أنه لم

تدسـها قدم إنسـان. هؤلاء كانوا أصدقاء طفولتـي ومواضيع خيالاتي، منـذ ذلك الوقـت وأنا أقدّم الطبيعـة ومنطقها عـلى كل شيءٍ آخر. لنرَ، لتمـشِ صداقتنـا في طريقها الطبيعـي أيضاً. دعينا لا نضـع لها إتجاهاتٍ صناعية، أو نربطها بقراراتٍ مسبقة!"

ضربت ماريا بسبابتها يدي التي كانت على الطاولة:

- "لست طفلاً بالقدر الذي ظننت!"، قالت.

عيناهـا حائرة ومترددة تتجوّل في وجهي. شـفتها السـفلى والتي كانت مكتنـزة برزت إلى الخارج أكثر، وهكذا أخـذت حال طفلةٍ صغيرةٍ على وشـك البكاء. وعلى عكس ذلك، كانت عيناها مفكرةً باحثة. أذهلتني قدرة وجهها على التغير وأخذ تعابير عديدة في زمن قصير.

- "هـل لـك أن تحكِ لي أشـياء كثيرة عـن حياتك، ووطنك، وأشـجار زيتونك؟"، هكذا بدأت بالـكلام. "وأنا أحدثك عن طفولتني وبعض الأشـياءِ التـي أتذكرها عـن والدي. لا أعتقـد أننا سـنواجه صعوبة في إيجاد موضوعٍ لنتكلم فيه، لكن المكان هنا صاخبٌ جداً. ربما كان سبب ذلك أن الصالون خالٍ. المسـاكين يريدون أن ينتشي المدير بموسـيقاهم على الأقل. آخ، لو تعلم معنى أن تكون مديراً هنا!"

- "هل هم فظون جداً؟"

- "ولأي درجـة تتخيلهـا! هـذه أيضا أحد طرق التعـرف على حقيقة الرجـال عن قـرب. فمثلاً مديـر الأتلانتيـك رجلٌ طيبٌ جـداً، لكن ليـس مع زبائنـه، بل مع كل امـرأةٍ ليس له بها علاقـة مدير وموظف. مـن المؤكد أنني لو لم أكن أعمل في ناديـه الليلي لعاملني بلطف النبلاء

وأذهلني بلباقته، بيد أنه يتغير في مواجهة الناس الذين يتلقون مالاً منه ويطلق على تصرفه عبارة "أخلاقيات العمل". لو قال أخلاقيات الكسب" لكانت العبارة أبلغ وأصدق. لأن الناس الذين يندفعون إلى الظلم وأحياناً إلى قلة الأدب، يغلب عندهم الخوف من التعرض للخيانة والخداع على الرغبة في الحفاظ على جدية مؤسساتهم. هذا الرجل الذي من المحتمل أن يكون أباً لعائلةٍ أو مواطناً مخلصاً، لو ترى كيف أنه لايطلب منا أن نبيع أصواتنا، ضحكاتنا، وأجسادنا فقط، بل إنسانيتنا أيضاً لاقشعر جلدك."

قطعت حديثها مغيراً دفة الحديث:

- "بماذا كان يعمل والدك؟"

- "ألم أخبرك من قبل؟ كان محامياً. لماذا سألت؟ أكان تفكيرك فيما أوصلني إلى هذه الحال هو السبب؟!"

لم أنطق.

- "يبدو أنك لم تتعرف على ألمانيا جيداً بعد. ليس هناك مايثير التعجب في حالي. أكملت دراستي بالمال الذي تركه أبي خلفه. لم يكن وضعنا بالسيء، وفي أثناء الحرب عملت كممرضة أعتني بالجرحى ثم أكملت إلى الأكاديمية. ذهب دخلنا الضئيل ضحية التضخم، وأصبحت مجبورةً على التكسب. لست متذمرةً من ذلك، فالعمل ليس بشيء سيء أبداً. ماكان يثير حنقي هو عدم تقبّل طلبنا للعمل من دون إهانتنا نفسياً. ثم أيضاً يزعجني أن أكون مجبورة على التعامل مع سكارى وأناسٍ جائعين للحم البشري. أحياناً تكون لهم نظرات.. لا أكتفي بأن أقول عنها

حيوانيـة، ولـو كانت بذلك القـدر لكان معقولاً.. لكنـه شيءٌ أحطّ من الحيوانية. شيء مقرف..."

تجولـت بنظرهـا في المكان. صخب الأوركسـترا كان قـد تضاعف أكثر وأكثـر. المرأة البدينة المرتدية للزي البافاري والتي يشـبه شـعرها ظفائر الـذرة كانـت تغني أغـانٍ جبليةٍ مرحـةٍ بصوت عالٍ، تُخـرج من جوفها أصواتاً عجيبةً وهي تدور حول نفسها.

قالـت ماريـا: "هيـا لنـرَ، لنجلـس في مـكانٍ هـادئ... فـما زال الوقت مبكراً!". ثم حدقت في وجهي بدقة وقالت:

- "أو ربـما ضجـرت مني؟ منـذ الصباح وأنـا أجرجرك من مـكانٍ إلى مكان وأزعجك بثرثرتي. كون النسـاء لصيقات بهـذا القدر ليس بشيءٍ جيد. أنا جادّة، إذا شعرت بالضجر فسأتركك تذهبن!"

أمسكت بيديها. لم أستطع أن أجبها لمدة طويلة. لم أنظر حتى إلى وجهها. فقط عندما تأكدت من أنها فهمت مايدور بخلدي قلت:

- "أنا ممتنٌّ لك!"

- "وأنا أيضاً!"، قالتها وسحبت يداها.

وعند خروجنا إلى الشارع قالت:

- "تعال، لنذهب إلى مقهىً قريبٍ من هنا!"

- "إلى مقهى رومانيسشه؟"

- "نعم، أتعرفه؟ هل ذهبت إليه من قبل؟"

- "لا، سمعت به فقط!"

ضحكـت قائلةً: »مـن أصدقائـك الذيـن لايحـل آخـر الشـهر إلا وهم

مفلسون؟»

ابتسمت ونظرت أمامي.

سمعت عن هذا المقهى الذي يُعد وجهة للفنانين في كل الأوقات بأن لياليه، وابتداءً من الساعة الحادية عشرة، تمتلئ بالمسنين وهواة الفن، والفضوليين الشبّان، ونساء الليل والقوّادين من كل الجنسيات والأعمار، وهم يحاولون جذب الأنظار. ولقدومنا إلى المقهى في ساعة مبكرة لم يكن بها إلا فنّانون شبّان. جالسون في مجموعات هنا وهناك، ويتناقشون بأصواتٍ مرتفعة. صعدنا على درجات سلمٍ من بين الأعمدة إلى الطابق العلوي. وبشقّ الأنفس وجدنا طاولةً فارغةً.

حولنا رسّامون شبّان يقلّدون في هيئتهم الفرنسيين بقبعاتهم الواسعة وشعورهم الطويلة، ومحرّروا صحفٍ إخبارية في أفواههم غليوناتٍ، يكتبون أوراقاً بأصابعهم ذات الأظافر الطويلة. جاء إلينا شابٌّ طويل القامة، أشقر، وذو عارضين طويلين بعد أن أشار إلينا من بعيدٍ.

"مرحباً، مادونا صاحبة معطف الفرو!" قالها ممسكاً رأس ماريا بين يديه؛ قبّل جبهتها ثم خدّيها.

أطرقت برأسي إلى الأرض وانتظرت، تحدثوا عن أشياء مختلفة، فهمت بأنهم كانوا قد عرضوا أعمالهم في نفس المعرض. وأخيراً شدّ الشابّ على يد ماريا وصافحها مودعاً وقال لي:

"في أمان الله أيها السيد الشاب!"، يبدوا أنه حياني على طريقة الفنّانين وذهب.

مازلت ناظراً أمامي. سألَت ماريا:

- "بماذا تفكّر؟"
- "خاطبتني بصيغة المفرد، ألاحظت ذلك؟"
- "نعم. ألا تريدين ذلك؟"
- "ولم لا؟ شكراً!"
- "أف! الشكر لك كثيراً!"
- "نحن الشرقيون لبقون جداً. أتعلمين بم كنت أفكر؟ أنّ ذلك الرجل قبّلك ولم أشعر بأي غيرة."
- "أصحيح ذلك؟"
- "أتعجّب من عدم شعوري بالغيرة!"

تبادلنا النظرات لمدّةٍ بكلّ ثقة.

- "حدثني عن أنفسك قليلاً." قالت.

هزت رأسي موافقاً. طيلة اليوم وأنا أفكر في أشياءٍ أحدثها عنها، لكنّي لا أجد أياً منها في ذاكرتي الآن. كانت تمر بعقلي أشياءٌ جديدة. في النهاية قررت الكلام بطريقةٍ ارتجالية. لم أكن أتحدث عن موضوعٍ معين. تحدثت عن طفولتي، خدمتي العسكرية، ما قرأت من الكتب، وخيالاتي، وجارتنا فخرية، ومن كنت أعرفهم من قطاع الطرق. كل ما كنت أخشى قوله عن نفسي لنفسي حتى، كان ومن دون سابق إنذار، يخرج من مكامنه التي يختبئ فيها ويندفع إلى الخارج. كنت ولأني أتحدّث عن نفسي مع إنسان آخرٍ لأول مرة، أريد أن أُرى بكلّ عريي، ومن دون أن أغطّي أي شيء. كنت أجاهد نفسي محاولاً عدم الكذب أو تحريف شيءٍ عن نفسي أو تغيير أي شيء، حتى أن هذا الجهد كان أحياناً يدفعني

للمبالغة في إظهار عيوبي، وبالتالي يحرفني عن قول الحقيقة كما هي.

كانت كل الخواطر والمشاعر المكبوتة لزمنٍ طويل بداخلي، وكل تلك الهيجانات المُصمتة مثل السيل، يكبر ويزداد اندفاعاً كلما تقدم، ثم يتدفق إلى الخارج. عندما أراها وهي تنصت إلي باهتمامٍ شديد، وتحاول أن تفهم مشاعري بالنظر في تعابير وجهي وما لم أستطع أن أعبّر عنه بالكلام، كنت أشعر براحةٍ أكبر وأسترسل في الحديث. أحياناً كانت تهزّ رأسها بشدّةٍ كأنها تحاول أن تخبرني بأنها تصدقني، وأحياناً أخرى كانت تفغر فاها قليلاً من الدهشة والتعجب. وعندما كنت أنفعل كانت تمسّد يدي بلطف، وعندما تأخذ كلماتي طابع الشكوى تبتسم لي بعطف.

في لحظة، وكأنّ قوةً خارجيةً مجهولةً نكزتني، قطعت كلامي ونظرت إلى الساعة. كانت تقترب من الحادية عشر مساءً. لم يتبقّ أحدٌ على الطاولات حولنا. وثبت من مكاني قائلاً:

"ستتأخرين على موعد عملك!"

استجمعت نفسها، ضغطت على يدي بقوةٍ أكبر، ونهضت بلا تعجّل:

"معك حق!"، قالت. واستطردت بعد أن اعتمرت قبعتها:

- "كانت جلسةً جميلة!"

أوصلتها إلى مقابل نادي الأتلانتيك. بالكاد تحدثنا ببعض الكلمات في الطريق. كلانا كان سارحاً شارداً كأننا نريد أن نغرس انطباعات هذه الليلة في داخلنا. عندما اقتربنا من نهاية الطريق أحسست برعشة تسري في جسدي.

- "بسببي أنا لم تستطيعي الذهاب إلى البيت وارتداء معطفك،

ستبردين!“، قلت لها.

- ”بسـببك؟ هذا صحيح، بسـببك. لكن الذنب عليّ أنا. لا يهم. لنمش بسرعة!“

- ”هل أنتظرك لأوصلك إلى البيت فيما بعد؟“

- ”لا، لا.. أبداً. نلتقي غداًا!“

- ”كما تريدين!“

التصقـت بجانبـي أكثر، ربما لكي لاتبرد. عندمـا اقتربنا من الباب المنار بالأضـواء الكهربائيـة توقّفت، سـحبت يدهـا من ذراعـي ومدّتها إلي. كانـت كأنها تفكـر في شيءٍ شـديد الجدية. سـحبتني إلى زاويـة الجدار. أخـيراً، انحنت باتجـاه وجهي، غرزت نظراتهـا في الرصيف وقالت فيما يشبه الهمس ولكن بسرعة:

- ”معنى ذلك أنك لاتغار علي! ها؟ أتحبّني فعلاً إلى هذا القدر؟“، وفجـأة رفعـت عينيهـا ونظـرت إلي بفضـول. في هذه اللحظـة، ولعدم إيجادي كلمة تعبّر عما أشـعر به، أحسست بضيق في صدري وجفاف في حلقـي. كنـت خائفاً من أن أي كلمةٍ أو أي صوتٍ يصدر مني سيفسـد عليّ سـعادتي ويعكرهـا. كانت ما تزال تحدق في وجهـي، ربما بشيءٍ من الخـوف هـذه المرة. لاحظت أن عينـيّ كانتا تدمعان مـن اليأس. عندها هـدأت ملامحهـا، وأغلقـت عينيهـا كأنها كانت تسـتريح. ثم أمسـكت بـرأسي وقبّلتنـي من فمـي وأدارت ظهرهـا. ومن دون أن تقول شـيئاً، مشت بسرعة إلى الداخل.

عدت إلى المهجع وكأنني أجري. لم أرد التفكير في أي شيء، أو تذكر أي

شيء. ماحدث هذه الليلة كان عزيزاً وغالياً بالنسبة إلي لدرجة أني كنت أخاف حتى أن ألمسه بالتذكّر. كما كنت قبل قليلٍ أخشى من أن يفسد صوتٌ يخرج من جوفي سعادتي، فإنني الآن أخشى من أن تعبث ذاكرتي بتفاصيل ماحدث الليلة من أحداثٍ فريدة.

كان المهجع وهو مظلم السلالم يبدو لي جميلاً، وممراته الممتلئة بمختلف الروائح تروقني. منذ ذلك اليوم فصاعداً، أصبحت ألتقي بماريا كل يوم وأخرج معها للتنزه. لم ينته كل شيءٍ نقوله لبعضنا من أول ليلة. كان أي شخص ممن نصادفه، والمناظر التي نراها تجعلنا نتحدث عن خواطرنا، وبالتالي نكتشف كم كانت أفكارنا قريبةٌ لبعضها. هذا التقارب الفكري، كان نتيجة تفكيرنا في كل شيءٍ بنفس الطريقة، رغم أنه أحياناً كان تأثير تقبُّل رأي الطرف الثاني وتبنّيه حاضراً. لكن أليس إيجاد قناعة من أمامك صائبةً وتبنّيك لها ونسبها إليك نوعا من التقارب الروحي معه أيضاً؟

كنا نرتاد المتاحف ومعارض الفن في أكثر الأحيان. وهي تتولى شرح الفن الحديث والقديم وأساتذته لي، وتناقشني في قيمة كل منهم. ذهبنا عدة مراتٍ إلى حديقة النباتات أيضاً، وفي مساءٍ ذهبنا إلى مسرح الأوبرا، لكن الدخول في الساعة العاشرة والخروج بعد نصف ساعةٍ ومن ثم التوجه إلى عملها كان سيكون جهداً لاداعي له بالنسبة لها، ولذلك تراجعنا عن الفكرة. ثم في يوم من الأيام قالت لي:

"لم يكن السبب ضيق الوقت فقط، بل لسببٍ آخرٍ أيضاً لم أرد الذهاب إلى الأوبرا. مجرد الخروج من مسرح الأوبرا ثم الذهاب للغناء في بار

الأتلانتيك كان يبدو لي من أكثر الأشياء سخفاً على وجه الأرض."

كنت أذهب إلى المصنع قبل الظهر فقط، وبالكاد أصبحت أقابل نزلاء المهجع. فراو هيبنر بين حينٍ وآخر كان يقول لي:

"يبدوا أنك وقعت في شراك أحدٍ ما!"، وكنت أبتسم ولا أطيل الكلام معه. بالذات فراو تيدمان، لم أكن أريدها أن تعلم شيئاً. لم تكن ماريا تجد في ذلك مشكلةً، لكني أنا، بل ربما عادةٌ لحقت بي من تركيا كانت تقنعني بوجوب ذلك.

في الواقع لم يكن هناك شيءٌ نخبئه عن أحد. فمنذ أول ليلة استمرت صداقتنا في حدودها التي قررناها لها، وماحدث مقابل الأتلانتيك في تلك الليلة لم يذكره أيٌّ منا بأي شكل. في البداية كان ما يقربنا من بعضنا فضولٌ زائد. نقول في أنفسنا ياترى ماذا هناك أيضاً، ونسترسل في الكلام. بعد ذلك أخذ مكان الفضول الاعتياد. عندما لانستطيع لقاء بعضنا ليومين أو ثلاث لسبب ما فإننا نشتاق للقاء كثيرا، وعندما نلتقي فإننا نبتهج كأصدقاء صغارٍ افترقوا عن بعضهم، ونمشي ممسكين بأيدي بعضنا. كنت أحبها جداً. أعتبر نفسي محظوظاً لأني أخيراً وبعد أن كنت أحسّ أن بداخلي حبٌّ محبوس يكفي كل الدنيا، وجدت أحداً أصرف عليه ذلك الحب. هي أيضاً كان من المؤكد أنني كنت أروق لها، وأنها كانت تفتقدني في غيابي. لكنها لم تكن تعط لصداقتنا أي فرصةٍ لتتحول إلى شيءٍ آخر.

في يوم من الأيام وبينما نحن نتجول في غابةٍ قريبةٍ من برلين تدعى غرونوالد ألقت بذراعها على رقبتي، واستمرت بالمشي متكئةً علي. يدها

المتدلية من على كتفي تتأرجح بخفة وسبابتها تتحرك كأنها ترسم دوائر في الهواء. وبنزوةٍ لا أدري كيف تولّدت، التقطت يدها وقبلت راحتها. سحبت يدها على الفور، لكن برفق. لم نتحدث بعدها واستمرينا في التنزه. لكن جدّيتها في تلك اللحظة كانت قويةً وصريحةً لدرجة تمنعني من الانسياق وراء نزواتي مجدداً. في بعض الأحيان كنّا نتناول بعض مواضيع الحب. وفي كلّ مرةٍ أراها تتحدث عنه وكأنه شيءٍ بعيد عنها، شيءٌ لاعلاقة لها به أبداً، أشعر بشيءٍ يتحطم في داخلي. صحيح أني رضيت وقبلت بكل شروطها، لكني ورغم ذلك، كنت أحياناً أنقل موضوع الحديث ليصبح عنّا، وأحاول تحليل صداقتنا. ليس للعشق عندي مفهومٌ مجردٌ وواضح، كل أشكال المودة والتحابّ والتعاطف التي تظهر في علاقات الناس ببعضهم هي في النهاية من أشكال العشق. الإسم والشكل فقط هما ما يتغيران على حسب الظرف الذي يكونان فيه. عدم إعطاء الحب الذي يكون بين الرجل والمرأة اسمه الحقيقي ماهو إلا خداعٌ لأنفسنا.

حينها كانت ماريا تلوّح باصبع سبابتها ضاحكةً:

"لا يارفيق، لا.. العشق ليس كما تقولون مجرد تعاطف بسيطٍ أو محبةٌ عميقة. العشق شيءٌ مختلفٌ تماماً، إنه إحساسٌ لانستطيع تحليله، كما أننا لانعرف من أين يأتي، لانعرف أيضاً إلى أين يهرب في يوم من الأيام. بينما الصداقة باقية، ومرتبطةٌ بالتفاهم. نستطيع أن نستعرض كيف بدأت، ولو انتهت أيضاً فنستطيع أن نحلّل أسباب انتهائها. العشق شيءٌ لايمكن تحليله. ثم فكّروا معي. كلنا لنا أناسٌ يعجبوننا في هذه

الدنيا، أنا مثلاً لدي عددٌ من الأصدقاء الذين أحبهم صدقاً، - أستطيع أن أخبركم بأن حضرتكم تأتون في مقدمتهم - ، الآن هل أعتبر عاشقةً لهم جميعهم؟"

قلت مصراً على رأيي:

- "نعم. أنتم عاشقون بدرجاتٍ متفاوتة لكل شخصٍ تحبونه!"

ردت ماريا بجوابٍ لم أتوقعه:

- "في هذه الحالة لماذا لاتغارون عليّ؟"

لم أستطع أن أجد شيئاً أرد به عليها، وبعد فترة صمتٍ أوضحت:

- "من كان في داخله القابلية على المحبّة الحقيقية فهو لايحصر هذا الحب على شخصٍ واحد، ولايتوقع من أي أحدٍ أن يفعل ذلك أيضاً. مهما كان عدد الذين نحبهم، فالشخص الذي نحبه فعلاً نستطيع أن نحبه بنفس الدرجة التي نحب بها كل الآخرين، فالعشق ليس بالشيء الذي يتناقص إذا وزعته."

- " كنت أعتقد أن الحب الذي تتناوله كلمات الأغاني شيئاً مختلفاً!"

- "أنا لاأعتقد ذلك!"

قالت ماريا بعد ثبّتت عينها على نقطةً ما وشردت لمدةٍ طويلة:

- "العشق الذي أريده مختلف. عشقٌ خارج حدود المنطق، شيءٌ صعب التعريف، غامض الماهية. الإعجاب والحبّ شيئان آخران، أما الرغبة، بكل الروح، بكل الجسد، بكل شيءٍ.. هذه الرغبة هي العشق في نظري، رغبةٌ لايمكن مقاومتها!"

عندها قلت بثقةٍ كأني أمسكت بها متلبسة:

- "ما قلته للتوّ ماهو إلا مسألة وقت. فالمحبة والاهتمام الموجود في داخلك، بشكلٍ غير معروف، وفي لحظةٍ لا يمكن تحديد زمانها، يتجمع فجأةً وتتكاثف؛ تماماً مثل أشعة الشمس اللطيفة عندما تتجمع في نقطةٍ واحدةٍ وتبدأ في الإحراق، تزداد قوة هذا الحب بشكلٍ غير عاديٍ، فيلفّكم ويلهبكم. الإعتقاد بأنه شيءٌ يأتينا من الخارج فعلٌ خاطئ، فماهو إلا استقواء مفاجئ لأحاسيس ومشاعرٍ موجودة بداخلنا في الأصل."

تركنا النقاش عند هذا الحد، لكننا تداولناه مجدداً في أيام أخرى. لم أدر هل كان الحقُّ معي أم معها. لم أستطع التحديد. مهما أردنا أن نكون صريحين وواضحين مع بعضنا البعض، فمن المؤكد أن العديد مما خفي من أفكارنا الغامضة ورغباتنا كانت تلعب دورها أيضاً. ومهما كثر عدد النقاط التي نتّفق فيها، فسيبقى لدينا نقاطٌ نختلف حولها أيضاً، وإذا ما وافق أحدنا للآخر بسهولة، فإنه لايفعل ذلك إلّا في سبيل غايةٍ يراها أهم.

من بين كل الناس الذين صادفتهم، لم أكن قريباً لأي أحدٍ منهم كما أنا من ماريا الآن، ولذلك فإن أهم مسألةٍ عندي هي المحافظة عليها. ربما كانت غاية أمنياتي هي أن تكون لي، بكل وجودها المادّي والمعنوي، وبلا نقصان، لكنني خوفاً من أن أخسر ما بيدي حالياً، كنت أتخوف من أن أحوّل عينيّ إلى هذا الهدف، كشخصٍ يراقب عصفوراً جميلاً ويريد الإمساك به ولكن يخشى هروبه مع أي حركةٍ بسيطة تصدر عنه.

كنت أستشعر في نفسي بأن هذا الجمود، والتردد المستند على الخوف

هـو أكـبر ضرراً، وأنه في نقطةٍ ما سيخرج عن صمتـه، وأن كل خطوةٍ لا يخطوهـا الإنسـان إلى الأمام فهـي تعود به إلى الـوراء، وأن اللحظات التي لا تقربه فهي بالتأكيد تبعده. كنت أفكر بكل هذا بشـكلٍ ظلامي، وأشعر في داخلي بقلقٍ يحرقني بصمت ويكبر يوماً بعد يوم.

لكنني ولكي أستطيع أن أفعل شـيئاً فعليّ أيضاً أن أصبح إنسـاناً آخر. ورغـم أني كنـت أعرف بأني كنت أدور حول نفس النقطة كثيراً إلا أنني لم أكـن أعرف الطريـق الموصل إليها، ولم أسـتطع البحـث عنه. اختفى خجلي وضجري القديم. لم أعد أنطوي على نفسي كما في السـابق، حتى أني أحيانـاً كنت وبشـكلٍ مفـرط كنت أعرض روحـي للجميع ليراها؛ لكن دائماً بشرط أن لا أمسّ هذه النقطة.

لا أعـرف إذا ماكنـت في ذلـك الوقـت أفكـر في كل ذلـك بهـذا العمق والوضوح. اليوم، وبعد مرور أكثر من اثني عشرة سنة، أستعرض حالي في ذلـك اليوم وأخرج بهـذه النتائج. حتى أحكامي بشـأن ماريا تخضع لنفس عامل التصفية والتحليل الزمني.

في تلـك الفـترة كنـت أفهم أن ماريا أيضـاً كانت تحت تأثـير العديد من المشـاعر المتباينة. فأحياناً تكون واجمةً جداً، وباردةً أيضاً، وأحياناً تبتهج فجـأة، وترفع الكلفة معـي لدرجةٍ لم أكن أفعلها مـع نفسي حتى، كأنها كانـت تعمل عـلى إثارتي عمـداً. لكن حالاتهـا هذه كانت تمـر بسرعة، وتعود صداقتنا لوضعها القديم. حتى هي كان من المؤكدٌ أنها لاحظت، مثلي تماماً، بأن صداقتنا، وببقاءها في مكانها كما هي، سـتدخل في مأزق. لكنهـا، ومع عـدم إيجادها لمن تبحـث عنه، ترى أن الكثـير من جوانب

شخصيتي قيّمةٌ جداً لديها لدرجة أنها لا تستطيع التضحية بها، فتتخوف بالتالي من فعل أشياءٍ تظن بأنها ستتسبب بابتعادي عنها.

كانت كل هذه المشـاعر المختلطة وكأنما هي خائفة من الخروج للضوء، تتجمـع في أبعد ركنٍ في أرواحنا. ونحن، في الحقيقة كنا كما في السـابق، صديقين حميمين يبحثان ويريدان بعضهما، وممتنّان لسعادة بعضهما.

لكن فجأةً تغير كل شيءٍ وأخذ إتجاهاً لم نكن نتوقعه. كنّا في أواخر شهر كانـون الأول، ذهبت أمها لتقضي عطلة رأس السـنة إلى إحدى قريباتها الساكنة قريباً من براغ، وماريا كانت سعيدةً بذلك:

"من أكثر الأشياء التي تثير أعصابي في الدنيا هي تلك الشموع وأشجار عيد الميلاد المزركشـة."، كانت تقول. "لا تظنّ أن ذلك بسـبب أصولي اليهودية، فليس من الغريب أن أجد محاولة الناس إشعار بعضهم بأنهم سـعيدون للحظة شـيئاً سـخيفاً. خاصة بأن الدين اليهـودي فيه الكثير مـن مثل هذه الأيام المقدسـة، والممتلئة بالواجبات السـخيفة والغريبة. في الحقيقة أمي البروتسـتانتية صاحبة الدم الألمـاني النقي، لم تتعلق بهذه العادات إلا بسبب تقدمها في السن وأنها لم تعد تجد ماتفعله. وإذا كانت تجـد في أفـكاري زندقةً، فسـبب ذلـك ليس قناعاتهـا الدينيـة فقط، بل لخشيتها من أن تسرق أفكاري راحتها النفسية في أيامها الأخيرة."

- "باعتقادك، أليس لعيد الميلاد أي أهمية؟" سألتها.

- "لا"، قالـت. "في مـاذا يختلـف هـذا اليوم عـن أيام السـنة الأخرى ياتـرى؟ هـل ميّزته الطبيعـة عن باقي الأيام بأي شـكل؟ حتـى إخباره لنـا بـأن سـنةً أخرى مضـت من عمرنـا ليس بالـشيء المهم أبـداً، ذلك

لأن تقسيم عمرنا على سنواتٍ هو من اختلاق الإنسان أيضاً. فما عمر الإنسان إلا عبارةٌ عن طريقٍ يمتد من الولادة إلى الموت، وأي تقسيماتٍ أخرى فهي مختلقة. لكن دعنا من الفلسفة. إذا أردت، لنقضي ليلة عيد الميلاد في مكانٍ ما سويةً. عملي في حانة الأتلانتيك ينتهي قبل منتصف الليل، لأنهم يعرضون في تلك الليلة أشياءً أخرى مدهشة. سنخرج معاً، ونشرب للثمالة مثل الآخرين. كم هو شيءٌ جميلٌ أن نرمي نفسنا مع التيار ونتخلص من أنفسنا بين الحين والآخر. ما رأيك؟ هذا يذكّرني، نحن لم نرقص معك من قبل. أليس كذلك؟"

- "لا، لم نرقص!"

- "أنا في الحقيقة لا أستمتع بالرقص كثيراً، ولكن أحياناً يثير من أراقصه إعجابي، ولهذا فقط أتحمل عبء الرقص."

- "في هذه الحال لا أعتقد بأني سأثير إعجابك!"

- "ولا أنا. لكن ليكن، فالصداقة تحتّم أحياناً بعض التضحيات!"

في ليلة رأس السنة تناولنا العشاء سويةً وجلسنا في المطعم نتسامر حتى موعد عملها. وعندما وصلنا إلى الأتلانتيك، ذهبت إلى مكانٍ في الخلف كي تبدل ملابسها. أما أنا فجلست على الطاولة التي جلست عليها في أول ليلةٍ أتيت إلى هنا. كانت الصالة من الداخل متلألئة بالنجوم والفوانيس الملونة والشرائط الورقية، والناس يمن دون كالسكارى من الآن، وكل الراقصين متلاصقين ببعضهم يتبادلون القبل. في داخلي يتنامى شعورٌ بالضيق بلا سبب.

"والآن ماذا؟" سألت نفسي متابعاً. "ما المدهش في هذه الليلة فعلياً؟

نكـذب الكذبة ونصدقها. لو ذهب الـكل لبيته ونام لكان ذلك أفضل. مـاذا سـنفعل نحن؟ مثلهم، نحتضـن بعضنا ونعود. الفـرق هو أننا لن نقبّل بعضنا. هل سأستطيع الرقص يا ترى؟"

عندمـا كنـت أدرس في معهـد الفنـون الجميلة بإسـطنبول، أراني بعض الأصدقـاء رقصاتٍ تعلموهـا من الروس البيض الذيـن كانوا يملأون المدينـة في ذلك الوقت. كنـت أؤدي بعضاً من رقصة الفالس، لكن هل سـأنجح في تأديتهـا الليلـة وأنـا لم أفعل ذلـك منذ سـنة ونصف؟ قلت لنفسي: "يارجل، أدّ نصفها وعد للجلوس!"

استمر عزف ماريـا للكمان وغنائها أقصر مما كنـت أتوقع، وبعده بدأ ضجيـج الغنـاء. لكـن الناس كانـوا منشـغلين ببعضهـم عنـه. بدّلت ماريا ملابسـها وخرجنا فوراً، ذهبنا إلى مكانٍ كبير مقابل محطة أنهاتلر يدعـى "أوروبا". هذا المكان مختلفٌ كليـاً عن الأتلانتيك الصغير ذو الخصوصيـة. مئـات الأزواج من الناس يتراقصـون بحبورٍ وبهجة في صـالاتٍ كبيرة وكثـيرة، والطـاولات ممتلئة بزجاجاتٍ ملونـة بألوانٍ مختلفـة. أنـاسٌ يترنحـون وآخـرون نائمـون، وآخرون جالسـون في أحضان بعضهم.

كانـت ماريـا في هـذه الليلـة منتشـية ومبتهجة لدرجـةٍ غريبـة، تنكزني بذراعها وتقول :

- "لـو علمـت بأنـك سـتجلس عابسـاً هكـذا لاخـترت شـاباً آخـر ليصحبني!"

كانـت تـشرب زجاجات خمـر الـراني الـلاذع واللذيذ بسرعـةٍ تذهلني

وترغمنـي على الشرب معها. بـدأت احتفالات الكازينـو الحقيقية بعد منتصـف الليل. الهتافـات، القهقهات، وصخب الموسـيقى التي تُعزف من أربعة أماكن مختلفة، وجلبة إيقاع أقدام راقصوا الفالس، كلها كانت تتمازج في هذا المكان. الإحتفالات الجامحة بنهاية سـنوات الحرب كانت تُشـاهد هنا بكل بهجتها. أجسادٌ نحيلة، ووجوهٌ عظامها بارزة، وعيونٌ لامعـةٌ كأنها تعـاني من مرضٍ عصبي، وشـبّانٌ تاركين لأنفسـهم الحبل عـلى الغـارب في حماسٍ لا محـدود، وفتياتٌ يافعاتٌ يظهـرون عصيانهم وثورتهـم عـلى روابـط المجتمع التـي يرونها غـير منطقيةٍ وظالمـةٍ، بترك العنان لرغباتهم الجنسـية بالظهور. حالهم كان محزناً فعلاً. ناولتني ماريا قدحاً آخر هامسةً:

- "رائف، رائف. حالك ليس بالجيد. ألا ترى محاولاتي وما أفعله لكي لاأقـع في قبضة الضيق والضجـر والاكتئاب؟ هيا، لنخرج عن أنفسـنا هذه الليلة. لنفترض بأننا لسـنا نحن، بأننا أحد الآخرين الذين يملأون هـذا المـكان في هذه الليلة. هـل هم أيضاً فعلياً كـما يظهرون كذلك؟ لا أريـد. لا أريد أن أعـين نفسي كأعقل وأذكى وصاحب أرقى إحسـاس من بين الناس. إشرب واضحك!"

لاحظت بأنها بدأت تثمل. نهضت من كرسيها وجلست بجانبي ملقيةً ذراعهـا على كتفي. قلبي بدأ بالخفقان كقلب عصفورٍ وقع في مصيدة. كانـت تظن بأني حزيـن، لكنني في الحقيقة لم أكن كذلك. كنت سـعيداً لدرجـة أني لم أسـتطع الضحـك، سـعيدٌ لدرجة أخذي لسـعادتي على محمل الجد.

بدأت موسيقى الفالس بالعزف، انحنيت على أذنها بخفة وهمست:
- "هيا.. لكني لا أرقص جيداً."
قالت وهي تثب من كرسيها وكأنها لم تسمع النصف الثاني من جملتي:
- "هيا!"

بدأنا بالدوران في داخل الزحام. لم يكن هذا نوعاً من الرقص، بل كان عبارةً عن انسياقٍ لتدافع الأجساد حولنا من مكانٍ لآخر. لكن كلانا لم يكن مستاءً. ركّزت ماريا نظرها فيّ. في هذه العينين الشاردتين، هناك شيءٌ ما لا أفهمه، يلمع ويدهشني بين حينٍ وآخر، ومن نحرها تعبق رائحةٌ خفيفةٌ لكنها رائعة لجسدها. لم ينقصني فوق كل هذا، فوق كوني قريباً منها، إلا أن أعرف أني أعني شيئاً لها.
"ماريا"، همست لها. "كيف لإنسان أن يسعد إنساناً آخر بهذا القدر؟ لابدّ أن في داخله قوىً خارقةٌ مخفية!"
مرّ بعينيها ذلك اللمعان مجدداً. لكنها وبعد أن دققت النظر فيّ لوهلةٍ عضت على شفتها. كانت نظراتها ضبابية وبلا معنى.
- "هيا لنجلس!"، قالت. "ياله من زحام! سأبدأ في الملل غالباً!"
عادت تكرع أقداح الشراب من جديد. وبعد مدةٍ نهضت قائلةً:
- "سأعود فوراً!"، وابتعدت وهي تترنح.
انتظرت مدةً طويلة. رغم كل إصرارها ورجاءها إلا أني تفاديت الإكثار من الخمر، كنت أشعر بالدوار فوق كوني ثملاً. رأسي يؤلمني. ورغم مرور خمسة عشرة دقيقةً على ذهابها إلا أنها لم تعد بعد. بدأت بالقلق. بدأت بالبحث في دورات المياه، فربما تكون قد وقعت. كان هناك نساء

يرتقن ما تقطع من ملابسـهم وأخرياتٌ يتزيّـنّ أمام المرآة. لم تكن ماريا بينهنّ. بحثت عنها بين النساء النائمات على الأرائك في زوايا الصالات، لم أجدهـا. فجأةً وصل القلـق في داخلي إلى أقصى درجاته. كنت أركض من صالةٍ لأخرى مصطدماً بالواقفين والجالسين، أهبط درجات السلم قافزاً إلى الدور الأرضي لأبحث عنها، ولم أجدها.

في تلـك الأثنـاء وقعت عيني من خـلال زجاج بوابـة الكازينو الدوارة الضبابيـة عـلى شيء أبيض يقـف في الخارج. قفزت إلى البـاب، وعندما خرجـت أطلقـت صرخـة. ماريا بـودر، كانـت ممسـكةً رأسـها بيديها ومسـتندةً على احدى الأشـجار مقابل البوابة وملصقةً وجهها بها. عدا فسـتانً خفيفٍ من الصـوف، لم يكن على ظهرهـا شيء، وندفات الثلج كانـت تتسـاقط عـلى شـعرها وقفاها. وعندما سـمعت صـوتي التفتت وقالت مبتسمةً:

- "أين كنت؟!"

- " بل أنت أين كنت؟ ماذا تفعلين هنا؟ هل جننتم!"، صرخت.

قالت واضعةً إصبعها على شفتيها:

- "اسكت! أردت استنشاق بعض الهواء النقي والتبرد. هيا لنذهب!"

أدخلتها بصعوبةٍ إلى الكازينو، وجدت كرسياً فارغاً وأجلستها. صعدت إلى الأعلى، دفعت الحساب وأخذت معطفي ومعطفها الفروي، ثم بدأنا بالمشي بخطواتٍ مدفونةٍ في الثلج.

كانـت تحـاول التمسّـك بذراعـي بقـوةٍ والمشي بسرعـة. الشـوارع مليئة بأزواجٍ من السكارى. والشوارع الرئيسية ممتلئةٌ بتجمعاتٍ للناس وبنساء

خارجـات يتجوّلن بألبسـةً خفيفةٍ وكأننا في فصـل الصيف، يتضاحكون ويطلقـون قهقهـاتٍ ويغنّـون في مثل هـذا الطقس وبعد منتصـف الليل بثلاثة ساعات، وكأن فجر الربيع دخل مؤذناً بنهاية الشتاء.

ماريا، ولكي نمشي من بين هؤلاء السكارى المنتشين بسرعةٍ أكبر، كانت تسـحبني. وتقابل من يقذفهـا بكلمةٍ أو يحاول التعلق برقبتها بابتسـامةٍ باردة وتخلص نفسـها منهم وتعود إلى سَوقي من جديد. فهمت خطأي بظنّي أنها كانت ثملى إلى حدٍ لاتستطيع المشي معه.

وعندما وصلنا إلى شوارع خاليةٍ نسبياً خففت من سرعتها. كانت تتنفس بسرعةٍ وشدة، صدرت عنها تنهيدة "أوه!" عميقة، ثم التفتت لي قائلةً:

- "مارأيـك؟ هـل أنـت سـعيدٌ بهـذه الليلـة؟ هـل اسـتمتعت؟ آه، أنا استمتعت جداً، لدرجة أني.."

بـدأت في الضحك مقهقهةً، ثم تحول الضحك إلى سـعالٍ فجأةً. تتلوى وكأنها تختنق، وصدرها يرتعش، لكنها لم تترك ذراعي. وعندما سـكنت قليلاً قلت:

- "ماذا حدث لك، أرأيتي؟ أمرضت نفسكِ!"

قالت بوجهٍ ضاحك:

- "آه، لقد استمتعت لدرجة!.."

كنـت خائفاً لدرجة أني كدت أبكي، هذه المرة كنت أنا من يريد إيصالها إلى بيتهـا بسرعـة. ومـع اقترابنا من نهايـة الطريق كانـت خطواتها تثقل أكثـر فأكثر. اتضـح أن قوتها وتحكمها بدا يخذلانها، كان الهواء البارد قد أذهب سكرتي تماماً. كنت أسحبها ممسكا بها من خصرها، وأدوس على

قدمها بين خطوةٍ وأخرى. كنا على وشك التدحرج على الثلج بينما كنا نحاول العبور من رصيفٍ إلى آخر. الآن هي تتمتم بكلماتٍ لا تكاد تُسمع. في البداية ظننتها تحاول همهمة أغنيةٍ ما، ثم وعندما فهمت أنها تخاطبني أصخت سمعي:

" نعم، هكذا أنا."، كانت تقول. وتابعت: "رائف.. حبيبي رائف. أنا هكذا كما ترى، ألم أقل لك من قبل؟ كل يومٍ لي حالٌ مختلف. لكن ليس هناك داعٍ للتكدر، أنت ولدٌ طيبٌ جداً. من المؤكد أنك كذلك!"

وفجأةً بدأت تشهق، ثم بدأت تعيد كلماتها:

- "لا، لا ، مامن داعٍ للتكدر.."

بعد نصف ساعةٍ وصلنا إلى مقابل الباب. انتظرت مسندةً ظهرها إلى جدار السلم.

- "أين المفاتيح؟" سألتها.

- "لاتغضب مني، رائف. لا تغضب! المفاتيح في جيبي!"

أدخلت يدها في أحد جيوب معطفها الداخلية وناولتني ربطة مفاتيح. فتحت الباب، وعندما عدت إليها لأساعدها في الصعود إلى الأعلى تملّصت مني، وصعدت درجات السلم ركضاً.

- "ستسقطين!"، قلت محذراً.

قالت وهي تتنهد:

- "لا، سأصعد بنفسي!"

تبعتها لأن المفاتيح ما زالت معي، وفي أحد الأدوار هتفت لي من الظلام:

- "أنا هنا.. افتح الباب!"

فتحت الباب. ولجنا إلى الداخل معاً. أشعلت ضوء غرفتها. أول مارأته عيني كان أثاثاً قديماً لكن معتنىً به جيداً، ومنضدةٌ جميلةٌ من خشب البلوط. كنت واقفاً في منتصف غرفتها من غير حركة، نزعت معطف الفرو تاركةً إياه في ركن الغرفة وأشارت إلى كرسيٍ قائلةً:

- "اجلس!"

ثم جلست على طرف سريرها، وبسرعةٍ كبيرةٍ نزعت حذائها وجواربها. تخففت من ملابسها وألقتها على كرسيٍ ثم تغطت بلحافها. نهضت من على الكرسي. مددت يدي إليها من دون أن أنطق بشيء. تفحصتني بنظراتها وكأنها تراني لأول مرة، وسَرَت على وجهها ضحكةٌ ثملى. أخفضت عيني، وعندما نظرت إليها مجدداً وجدتها نصف مستويةٍ بالجلوس، وعيناها ترمشان بصعوبةٍ كأنها تحاول التملص من النوم. كتفها الأيمن وذراعها النافران من بين الأغطية البيضاء كانا أبيضين وشاحبين كوجهها تماماً. كان مرفقها مستنداً على الوسادة.

"ستبردين!"، قلت لها.

سحبت ذراعي بسرعةٍ وأجلستني على طرف السرير. ثم دنت مني، وأمسكت بيديّ بغتةٍ، وقالت وهي تضع وجهها على راحتي يدَي:

- "آه يارائف.. معنى هذا أنك أنت أيضا تستطيع أن تصبح كذلك؟ الحق معك. لكن ماذا أفعل؟ لو تعلم، آه لو تعلم.. لكننا استمتعنا أليس كذلك؟ بالتأكيد. لا، لا، أعرف! لا تسحب يديك.. لم أرك هكذا من قبل أبداً بهذه الجديّة! لكن ما السبب؟"

رفعتُ رأسي. جلست بجانبي حانيةً ركبتها، وواضعةً يديها على خدَّي،

ثم قالت:

- " اسمعني! ما تفكر به ليس بصحيح، سأثبت لك ذلك. في الحقيقة سأثبته لنفسي. لماذا تقف هكذا؟ ألم تصدقني بعد؟ ألا يزال بك شك؟"

أغمضت عيناها، كأنها كانت تحاول الإمساك بشيءٍ هاربٍ يستمر في الإفلات منها في عقلها، جبهتها ومابين حاجبيها كان مقطباً، وعندما لاحظت ارتعاش كتفيها المتعرقين سحبت اللحاف وغطيت به ظهرها واستمريت بالإمساك به لكي لاينزلق.

فتحت عيناها. وقالت ضاحكةً كالمذهولة:

"هكذا.. أنت أيضاً تضحك أليس كذلك؟"، ثم وجّهت نظرها إلى زاوية الغرفة غير قادرةٍ على إكمال كلامها.

انسدل شعرها على جبهتها، وظِل رموشها منعكسٌ على أعلى أنفها بسبب الإنارة الجانبية. كانت شفتها السفلية ترتعش بخفة. وجهها في هذه اللحظة كان أجمل من الوجه الذي كان في لوحة المعرض، ومن الذي كان في لوحة مادونا الهاربيز. وباليد التي كانت ممسكةً باللحاف سحبتها نحوي.

أحسست بارتجاف جسدها. قالت بصوتٍ منخفض:

- "بالطبع.. بالطبع.. بالطبع أنا أحبك. بل وأحبك جداً. وهل هناك إمكانٌ لغير ذلك؟ بالطبع أنا أحبك. بالتأكيد أحبك. لكن لماذا أنتم متفاجئ؟ أكنت تتوقع شيئاً آخر؟ أفهم مدى حبك لي، وأنا أيضا أحبك حباً لا شبهة فيه."

سحبت رأسي إليها وأغرقت كامل وجهي بالقبلات.

عندما استيقظت صباحاً أحسست بأنفاسها العميقة والمنتظمة، متوسدةً ذراعها نائمة وظهرها إلي. شعرها منسدلٌ على شكل أمواجٍ على الوسادة البيضاء، ثغرها نصف مفتوحٍ وعلى طرفه كانت هناك بضع شعرات. أنفها يتحرك مع أنفاسها، والشعرات التي كانت على فمها كانت ترتفع وتسقط مع الشهيق والزفير.

تركت رأسي على الوسادة، وانتظرت متأملاً في السقف. في داخلي عجلةٌ شديدة وصبرٌ نافذ. كنت أفكر، كيف ستنظر إليّ عندما تستيقظ، وماذا ستقول لي. لكني وبلا سبب، كنت أخاف من استيقاظها. لم أجد في داخلي الشعور بالأمان والسكون الذي كنت أتوقعه عندما أستيقظ. لم أكن أفهم سبب ذلك. لماذا أتصرف وإلى الآن مثل متهمٍ ينتظر صدور الحكم عليه، وصدري يرتجف؟ ماذا أريد منها فوق ذلك؟ ماذا كنت أنتظر أكثر من ذلك؟ ألم تتحقق كل أمنياتي؟

كان في داخلي فراغٌ دون أن يملأه أحد، وكنت أحس بهذا الفراغ وهو يسحقني فعلياً. شيءٌ ما كان ناقصاً، لكن ماهو؟ كنت كإنسانٍ مهمومٍ يشعر بأنه نسي شيئا بعد أن خرج من بيته لكن لايعرف ماهو. يتوقف، يقلب جيوبه، ثم يكمل مشيه بعد أن فقد الأمل في معرفة مافقد.

لاحظت توقف أنفاس ماريا المنتظمة منذ مدة. رفعت رأسي ببطءٍ ونظرت لها.

كانت عيناها متعلقتان في نقطة ما وهما تنظران إليها. لم تتحرك أبداً، ولم تبعد الشعر المنسدل على وجهها حتى. حتى عندما لاحظت أني أنظر إليها لم تلتفت إليّ واستمرت بالنظر إلى النقطة المجهولة. لم ترمش

بعينيهـا. فهمت أنها كانت مسـتيقظةً منذ مدةٍ طويلـة فتضخم القلق في داخلي فجأةً، وشـعرت بطوقٍ يلفّ صدري ويخنقه. أشـعر بالضيق وأنا أفكـر في كون كل هـذه التخمينات والتخوفـات عديمة الجدوى، وأنها تسببت في عتمة أكثر أيام عمري أَلَقاً.

سألتني من دون أن تلتفت:

- "هل استيقظت؟"

- "نعم! هل مضى كثيرٌ من الوقت على استيقاظك؟"

- "بعض الوقت!"

أعطاني صوتها قليلاً من الجرأة. أدخل صوتها المألوف لي والموقظ لأجمل الذكريات في خاطري انشراحاً إلى صدري، كرفيقٍ موثوقٍ به دخل فجأة. لكن ذلك التأثير استمر يوماً واحداً فقط. قالت لي: «هل استيقظتم؟». صحيـحٌ أننـا في الأيام الأخيرة مـراتٍ نخاطب بعضنا بصيغـة المفرد - أنـت - ومـراتٍ أخرى بصيغـة الجمع، لكن هل كان يجـب أن تخاطبني بهذه الطريقة في صباح هذه الليلة؟

ربـما لم تسـتيقظ من نومها تمامـاً بعد. التفتت نحوي وهـي على السرير. كانت تبتسـم. لكنها لم تكن تلك الابتسـامة المعتادة الحميمة النابعة من القلب، بل كانت أشبه بالابتسامة التي كانت تقابل بها زبائن الأتلانتيك.

- "ألن تنهضوا؟"، سألتني.

- "سأنهض! وأنتِ؟"

- "لا أدري. لاأشـعر بـأني عـلى مايرام. ربما بسـبب الـشراب.. كما أن ظهري يؤلمني أيضاً.."

- " ربما أخذتِ نزلة بردٍ ليلة البارحة! .. هذه نهاية الخروج إلى الشوارع شبه عارية!"

هـزت كتفيهـا وعـادت إلى وضعيتهـا الأولى مديـرةً ظهرهـا نحـوي. نهضت، غسـلت وجهي وارتديت ملابسي بسرعة. شعرت بها تتابعني بطرف عينها.

كان في الغرفة جوٌ خانق. أردت أن أستوضح الأمر:

- "هبط على كلانا صمتٌ غريب. ما الذي يحدث؟ هل بدأنا بالسأم من بعضنا كالمتزوجين؟"

نظـرت إلى وجهـي بعيـونٍ لم تفهـم مـا أقصده. شـعرت بالضيـق أكثر وسـكتّ، ثم جلسـت على السرير، أردت أن أربت على كتفها، وأذوّب الجليد الذي بيننا قبل أن تزيد سـماكته. استوت جالسةً، وتركت ساقيها تتأرجحـان على طرف السرير ثم وضعت سـترة عـلى ظهرها. ما زالت تنظـر إلى وجهـي، كان هنـاك شيءٌ يمنعنـي مـن الإقـتراب منهـا أكثر. وأخيراً، قالت بصوتٍ غايةٍ في السكون:

- "ما الذي يزعجك؟"، كسـا وجههـا فجأة لونٌ ورديٌ لم أره من قبل، وصدرها كان يعلو ويهبط ببطء. أكملت قائلة:

- "مـاذا تريـد أكثـر؟ هل تريد شـيئاً آخر؟ لكـن أنا أريد، أريد أشـياءً كثـيرةً ولكني لا أسـتطيع أن أحصل على أيٍّ منهـا. جربت كل الطرق، ولافائدة.. ربما أنت سعيدٌ الآن، لكن أنا، ماذا أفعل؟"

سـقط رأسـها إلى الأسـفل، وتدلّت يداها كأنها ميتة. قدماها العاريتان تلامسـان السجادة. ترفع إصبع قدمها الكبير وتنزل الأصابع الأخرى.

سحبت كرسياً وجلست مقابلها. تناولت يديها، وقلت بصوتٍ يرتعش من الخوف، خوف إنسان على وشك أن يفقد أعزّ مايملك:

- "ماريـا! ماريا! مادونـاتي صاحبة معطف الفرو! مـاذا حصل فجأة؟ ماذا فعلت لك؟ وعدتك بأني لن أطلب منك شيئاً أبداً. ألم أفِ بوعدي؟ مـاذا حصـل فجأةً في وقتٍ هو أجدر الأوقات بـأن نكون فيها أكثر قرباً من بعضنا؟"

قالت تهز رأسها:

- "لا يارفيـق، لا!.. نحـن أبعد من بعضنا مـن أيّ وقتٍ مضى! لأني الآن لم يعد لديّ أمل. هذه هي النهاية. قلت لنفسي لأجرب هذا أيضاً، فلربـما كان هذا ماينقصنـي. لكنه لم يكن كذلك. ذلك الفراغ موجودٌ في داخلي دائماً، وهو مستمرٌ في التوسع.. ماذا عسانا أن نفعل؟ الذنب ليس ذنبك، أنا لسـت مغرمةً بك. وعدم اسـتطاعتي لحبي لك أفهمني جدياً بأنني لن أستطيع أن أحب أيّ أحدٍ في هذه الدنيا، وأن عليّ أن أتخلى عن كل آمـالي. لكن ليس بيدي شيء، أنا هكذا، وليس هناك خيارٌ غير تقبل ذلـك. حاولت كثيراً، تمنيت أن أتغير وأكون شـخصاً آخـر، يا رائف.. رفيقي صاحب القلب الطيب. كن متأكداً بأني حاولت أن أكون شخصاً آخر، أكثر مما تمنيتني أن أكون. ماذا أفعل؟ عدا لذاعة شراب البارحة في فمي، وألم ظهري المطّرد، فأنا لا أحس بأي شيءٍ آخر."

صمتت لمدة وأغمضت عينيها. سرت في وجهها نعومةٌ حلوة، ثم قالت بصوتٍ عذبٍ وكأنها تحكي أقصوصةً سمعتها في طفولتها:

- " مسـاء البارحـة، وبعد أن جئنـا إلى هنا، تمنيت أشـياء كثيرة. ظننت

أني بفعل يدٍ سـحريةٍ سأتغير تماماً، وبأني سأشـعر بحماس طفلةٍ صغيرةٍ في روحـي يهيمـن عـلى كل حياتي، وبأنني سأسـتيقظ وكأننـي أولد من جديـدٍ لدنيا جديدة. لكن ما أمرّ الحقيقـة.. الهواء مازال كما هو مكتوم، غرفتي بـاردةٌ، وبجانبي، وبرغم كل شيء، شـخص غريبٌ، ورغم كل قربه مني، إلا أنه منفصل. إنسـان مختلـفٌ عني، وفي عضلاتي تعبٌ وفي رأسي ألم يكبر..»

تغطـت باللحـاف مجدداً، وتمـددت على ظهرهـا مغمضةً عينيهـا بيديها وتابعت:

- «معنـى كل هـذا أن الناس لايسـتطيعون أن يقتربوا مـن بعضهم إلّا إلى حـدٍ معين، وبعد ذلك فإن كل خطـوةٍ هدفها الإقتراب تبعدهم عن بعضهـم أكثر. كم أردت أن يكون فيـما بيننا حدٌ لا نتعداه. مايحزنني هو أن هـذا الأمل لم يتحقق. لم يعد هناك لزومٌ لنخدع أنفسـنا، لن نسـتطيع أن نتحـدث براحـةٍ كـما كنـا نفعل. لمـاذا ولأي سـبب ضحينـا بذلك؟ لاشيء! أضعنـا مانملكـه طامعين فيـما هو غير موجود. هـل انتهى كل شيء؟ لا أعتقـد. أعلـم أن كلانا ليس بطفل، لكنـي أعتقد بأن علينا أن نرتـاح ونبتعد عن بعضنا لمدة، إلى أن نشـعر بحاجـةٍ ملحةٍ لرؤية بعضنا مـن جديد. هيا يا رائـف. عندما يأتي ذلك الوقت سـأخبرك؛ ربما نعود رفيقـين من جديـدٍ وفي هذه المرة نتـصرف بذكاء. لانسـتطيع أن نطلب ونتوقـع من بعضنا أكثر مما نسـتطيع أن نعطي. هيـا اذهب الآن، أرغب بشدةٍ بأن أجلس وحدي.»

أنزلـت يديها عن عينيها. كانت تنظر إليّ وكأنها تترجاني. مدت ذراعها،

قبضت على أطراف أصابعها وقلت: «في حفظ الله».

- "لا، لا تذهب هكذا، ساخط علي.. ماذا فعلت لكم؟"، كانت تصرخ.

قلت وأنا أحاول بشدةٍ أن أتحكم في أعصابي: »لست بساخط، إنما أنا متأثرٌ فقط.»

- "وأنا؟ ألست متأثرةً أيضاً؟ ألا ترى حالي؟.. لا تذهب هكذا.. تعال!"

سحبت رأسي نحو صدرها ومسدت على رأسي، مسحت على وجهي وخدي، قالت:

- "إبتسم لي مرةً ثم اذهب!"

ابتسمت ثم خرجت مغطياً وجهي بيدي.

بدأت بالمشي عشوائياً في الشارع بلا وجهة. الشوارع خالية، وأكثر المتاجر مقفلة. كنت أمشي باتجاه الجنوب. من جانبي تمرّ عربات المترو بزجاجها الضبابي، وباصات نقلٍ صغيرة. مشيت. بدأت بيوتٌ بواجهاتٍ مظلمةٍ وحدائق مرصوفةٌ بالظهور، أكملت سيري، فتحت أزرّة معطفي لأني تعرقت. وصلت إلى طرف المدينة، استمريت في المشي، مشيت من تحت جسور سكك الحديد ومن فوق قنوات الماء المتجمدة.. مشيت فقط. مشيت لساعات، لم أكن أفكر في شيء، عيناي كانتا تطرفان من البرد وبخطىً سريعةٍ كنت أتقدم. على جانبيّ كانت هناك غاباتٌ منتظمةٌ من أشجار الصنوبر، بين حين وآخر كانت كتل الثلج تتساقط من أغصانها إلى الأرض محدثة صوتاً عالياً. يمر من جانبي أناسٌ على دراجاتٍ هوائيةٍ، وهناك من بعيدٍ قطار يقترب مزلزلاً ما حوله. مشيت.. على

جهـة اليمين كانـت هناك بحـيرةٌ كبيرةٌ وفوقهـا تجمع أنـاسٌ يتزلجون. ذهبـت إلى تلك الجهة ماراً من بين الأشـجار. في كل أنحاء الغابة كانت هناك آثار تزلجٍ طويلـة ومتداخلةٍ ببعضها، وأجماتٌ من أغراس صنوبرٍ محاطةٌ بأسـياجٍ. من البعيد يظهر كازينو خشـبي ريفـي ذا طابقين، وعلى البحيرة فتياتٌ بتنانير قصيرةٍ وفتيانٌ يتزلجون بلا توقف، يرفعون سـاقاً في الهـواء ويدورون حول أنفسـهم، ممسـكين بأيدي بعضهم . أوشـحة الفتيـات وشـعر الفتيان الأشـقر يتطاير مـع الهواء، وأجسـادهم تتلوّى بحـركاتٍ منتظمـة يمينا ويسـاراً، وأطوالهم كأنها تطـول مع كل خطوةٍ وتقصرُ مع الأخرى.

كنـت أعير انتباهاً لـكل ذلك. أمضي وقدماي تغوصـان إلى الكاحل في الثلـج وأدقق انتباهـي في كلّ شيء. تجولت من خلـف الكازينو الريفي ذاهباً إلى أسـفل الأشـجار التي تتواجد مقابله. شـعرت بأني رأيت هذا المكان من قبل، ولكنني لم أسـتطع تذكر متـى ولا كيف. وبعد الكازينو الريفـي ببضع مئاتٍ من الأمتـار، وفي مكانٍ مرتفعٍ نسـبياً، كانت هناك أشـجارٌ معمـرة. توقفـت هنـاك، وبدأت مـن جديد في مشـاهدة جموع الناس وهي تتزلج على البحيرة.

ربما مشـيت لأكثر من أربع سـاعات. مشـيت غير واعٍ بسبب مجيئي إلى هنا، ولا بسبب عدم عودتي إلى الطريق الصحيح. خفّ شعور الاحتراق في رأسي، واختفى شعور مشي النمل في داخل أنفي. لكن كان في داخلي شـعورٌ فظيعٌ بالفراغ. ما ظننتها المرحلـة الوحيدة في حياتي الغنية وذات المعنـى، فرغت وفقدت كل معناها. مثل إنسـان استيقظ للحقيقة المرة

من منامٍ رأى فيه كل آماله تتحقق. لم أكن ساخطاً عليها فعلياً، ولم أكن لأغضب أبداً. لكني كنت متأثراً فقط. "هذا ماكان يجب أن يحصل"، كنت أقول لنفسي. معنى كل ذلك أنها لم تكن تحبني أبداً. معها حق. فطوال حياتي لم يحبني أي أحد، أبداً. النساء مخلوقاتٌ عجيبة في الأصل. عندما أريد إستجماع كل ذكرياتي لإصدار حكمٍ عليهم، فإني أصل إلى نتيجة أنهن فعلياً غير قادرات على الحب. المرأة لا تحبّ عندما تستطيع أن تحب، لكنها فقط تحزن على رغباتٍ غير ملبّاة، وتريد إصلاح أناها المكسورة. تحترق على الفرص المُضَيّعة، وكل ذلك يظهر لها تحت وجه الحب. لكني وبتفكيري بهذه الطريقة عرفت أني أخطأت في حق ماريا. رغم كلّ شيء، إلا أني لم أكن لأعدها مخلوقاً من هذا النوع. إضافة إلى ذلك، فأنا رأيت حجم الإضطراب التي كانت تعانيه. لم يكن من الممكن أن كلّ حزنها كان بسببي. هي أيضاً كانت تحترق على شيءٍ بحثت عنه ولم تجده. لكن ماذا كان ذلك؟ ماذا كان ينقصني، أو بعبارةٍ أصحّ، ما الشيء الذي كان ينقص علاقتنا؟

ياله من شيء مر، أن نكتشف بعدما كنا نظن أن امرأةً ما أعطتنا كل ماعندها، أنها لم تعطنا أيّ شيءٍ في الواقع، وأننا في الوقت الذي كنا نظنها أقرب ما تكون إلينا نكتشف بأنها كانت أبعد من كل المسافات. لم يكن يجب أن ينتهي كل شيءٍ هكذا. لكن وكما قالت ماريا، لم يبق شيٌ لنفعله؛ من طرفي أنا بالذات.

ما هو مبررها في أن تفعل لي ما فعلته؟ منذ سنواتٍ، وعمري يمرُّ من دون حتى أن أحس بفراغها. حتى لو أني هربت من الناس، لعزوت ذلك إلى

طبيعتي وأكملت حياتي كما هي هارباً منهم، لكني ليس عندي أي شيءٍ يجعلني راضياً عن هذه الحياة. نعم، كنت أشعر بوحدتي وأحزن لذلك، ولكنني لم أعش على أمـل أن هناك ما يمكن أن ينقذني من ذلك. عندما ظهـرت لي ماريا، بل عندما ظهرت لوحتها مقابلي، كنت في هذه الحال. لكنها أخرجتني فجأةً من دنياي السـاكنة والمظلمة إلى النور، وإلى الحياة الحقيقية. لم أكتشف وجود روحٍ لي إلا وقتها. والآن، تماماً مثل ظهورها اللحظـي بـلا سـبب، ها هي تذهـب. لكن ليـس هناك إمـكانٍ لعودتي لسـباتي من جديد. سـأمضي مـا تبقى من حياتي أتجـول في كل الأماكن، أتعـرف على أنـاسٍ من لغاتٍ أعرفهـا ولا أعرفهـا، وفي كل مكانٍ، وفي كل الناس، سـأبحث عن ماريا، عن مادونا ذات معطف الفرو. أعرف من الآن أنني لن أجدها، لكن ليس بيدي إلا أن أبحث عنها. كان هناك شيءٌ يسـتوجب عليّ أن أبحث طـوال عمري عن مجهولٍ، عن شيءٍ غير موجود، كان عليها ألا تفعل ذلك.

كانت السـنوات القادمة تبدو لي بأنها سـتكون حزينةً بشكلٍ لا يطاق. لم أكن أستطيع تقبل أي سبب يجعلني أتحمل كل تلك المشقة، وكأن ستائراً انسدلت عن عيني. تذكرت المكان الذي كنت فيه. هذه البحيرة، كانت بحـيرة وانـسي. في يـومٍ من الأيام وبينما كنـا أنا وماريا ذاهبـين للتنزه في حديقة قصر فريدريك الثاني الواقع في بوتسـدام، أشارت لي من القطار إلى البحيرة، وأخبرتني أنه وتحت الأشجار التي أجلس تحتها الآن، وقبل أكثر من مئتي سنة، انتحر شاعرٌ ألمانيٌ تعيسٌ اسمه كليست مع حبيبته.

مـا الـذي جاء بي إلى هنا؟ لمـاذا عندما وقعت عيني على هـذا المكان بينما

أمشي جئت إلى هنا؟ بل ما الذي جعلني وبمجرد خروجي من المنزل أتوجه إلى هنا. أكان مجيئي إلى المكان الذي انتحر فيه العاشقين وانفصلا فيه بعد انفصالي عن أكثر إنسان أثق فيه في هذه الحياة، وبعد استماعي لقولها بأنّ الناس يستطيعون الإقتراب من بعضهم لحدٍّ معينٍ فقط.. أكان ذلك عبارةً عن جوابٍ أرد به عليها؟ أم كنت أسعى فقط لخداع نفسي؟ أم أردت تذكر إمكانية لقاء العشاق الذين لم يتخلفوا في نصف الطريق بعضهم؟ لم أكن أعرف. لا أعرف حتى إذا ماكنت فعلاً أفكر بهذا في ذلك الوقت. لكن المكان الذي كنت فيه بدأ بإحراق الأرض تحت قدمي! أصبحت وكأنني أرى جثتي العاشقين ممددةً بجانب بعضها على الأرض؟. المرأة برصاصة في صدرها، والرجل برصاصةٍ في رأسه. شعرت وكأني أدوس على بحيرةً الدم التي وُجدت عن طريق توحد دمائهم النازفة. اختلطت دمائهم كما اختلطت أقدارهم، وهكذا كانوا هنا، على بعد عدة خطواتٍ فقط، ممددين، وما زالا مع بعضهما! تقهقهرت راكضاً وعدت من نفس الطريق.

كانت الضحكات تتعالى من الأسفل، من جهة البحيرة تحديداً. أزواجٌ من العشاق ممسكين لبعضهم من الخصر، كانوا يتجوّلون بلا توقفٍ وكأنهم في رحلة تنزّه لاتنتهي. ومن الباب النصف مشرع للكازينو الريفي كان يصدر صوت موسيقى ووقع أقدامٍ راقصة. توجه المنهكون من التزلج إلى الكازينو مستندين على بعضهم، وهم ينشدون بعض الحماس والرقص على أية حال.

كانوا يستمتعون بوقتهم. يعيشون. بينما أنا، كنت أعلم بأني وبإنطوائي

على روحي وإغلاقي على نفسي وحيداً، لم أكن أتواجد فوقهم، بل أسفلهم كلهم. كما كنت أظن، ومازلت أشعر بعدم كون الإنفصال عن القطيع ميزةً، ولا زيادةً، بل كان إعاقةً وخللاً. هؤلاء الناس يعيشون كما يجب أن يعيشون. يؤدون وظائفهم، يضيفون شيئاً إلى الحياة. أما أنا، ماذا كنت؟ روحي، كدودة شجرة، ما الذي لها أن تفعل سوى أن تقرضني؟ هذه الأشجار، والثلج الذي يغطي أغصانها وأساسها، وذلك المبنى الخشبي، وذلك الجراموفون، هذه البحيرة وطبقات الجليد التي تعتليها، وأخيراً هؤلاء الناس الكثر والمختلفون عن بعضهم، كلهم مشغولون بما تعطيهم الحياة من مهام، في كل حركةٍ من حركاتهم هدفٌ ومعنى، معنىً لايظهر في أول نظرة. أما أنا، فمثل عجل سيارةٍ يدور حول نفسه في الفراغ، وفي هذه الحال أحاول إيجاد ميزاتٍ لنفسي. من المؤكد أنني كنت أقلّ الرجال أهميةً في هذه الدنيا، لم تكن الحياة مع خسارتها لي تؤذيني. لم يتوقع مني أحدٌ أي شيءٍ، ولم أتوقع من أحد شيئاً.

وهكذا واعتباراً من هذه اللحظة، بدأ التغيّر الذي استلم دفّة حياتي. من هذه اللحظة آمنت بعدم أهميتي، وعدم فائدتي في هذا الوجود، وبين حينٍ وآخر كان يحدث وأن أحس بأني عدت إلى الحياة وبدأت أعيش. حتى بعدما كنت أفكر في ذلك بعدة أيام، كنت أصبح في وضع جديد يوقعني تحت تأثيره مدةً ويشغلني. لكن، ومن أعمق زاويةٍ في روحي، كانت تخرج دائماً قناعةٌ تخبرني بأن الوجود ليس بحاجتي. لم تنجُ أي حركةٍ عندي من تأثيرها، وحتى اليوم، ورغم مرور سنواتٍ طويلةٍ، إلا

أني مـا أزال أذكـر تلك اللحظة التي كسرت كل شيءٍ، وبالذات جرأتي، وأبعدتنـي عـن كل ما حولي، بـكل تفاصيلهـا، وأرى أني كنت مخطئاً في الأحكام التي أصدرتها على نفسي وقتها.

وصلت ركضاً إلى الطريق المسفلت، ومشيت بإتجاه وسط برلين. لم آكل أي شيءٍ منذ مسـاء البارحة، لكن فوق إحسـاس الجوع، كان في معدتي شـعورٌ بالغثيان. وفي ساقيّ لم يكن هناك تعبٌ، بل تشنجٌ يمتدّ إلى كعب قدمـي. في هذه المـرة كنت أمشي ببـطءٍ غارقاً في أفـكاري. ومع اقترابي مـن المدينـة كان شـعوري باليأس يتنامـى. لم أكن أسـتطيع تقبل حقيقة أني سـأقضي الأيـام القادمة بعيـداً عنها، وأجد هذا الإحتـمال بعيداً عن الجدية، سخيفاً ومستحيلاً..

لم أكـن بتلك القـدرة لأن أخفض رأسي وأذهب لأتوسّـل لأحـدٍ أبداً. شيءٌ مثـل هـذا لايصدر عنـي، ولو حصل فلـن تكون له فائـدة. كنت أتخيل أشـياءً تشـبه خيـالاتي التي كنت أنسـجها في طفولتـي، لكن أكثر جنونـاً وسـخافةً، وأكثـر دمويةً منهـا. في الليل، وعندما يـأتي دورها في الأتلانتيـك، أتصل بهـا بالهاتف. وبعد أن أطلب منهـا العفو لإزعاجي لهـا وأودعها، أطلق رصاصةً على رأسي وأنا على السـاعة، كم سـيكون ذلك جميلاً! بعد أن تسـمع ذلـك الصوت، في البداية لن تعرف من هو، ثم وكالمجنونة سـتنادي: "رائف، رائـف!" منتظرةً جواباً مني. ويحتمل أني سأبتسـم وأنا أسمعها تنادي باسـمي بينما ألفظ آخر أنفاسي. سوف تتخبط في يأسٍ شديد لعدم معرفتها من أي عنوانٍ هاتفتها، ولن تستطيع اخبار الشرطة عن مكاني. وفي اليوم التالي ستقرأ بقلبٍ نادمٍ ويأسٍ محبطٍ

عـن تفاصيل الفاجعـة الغير معروفة التفاصيل في الصحف، وسـتدرك بأنها لن تنساني بقية عمرها، وبأني ربطت نفسي في ذاكرتها بالدم.

اقتربـت مـن المدينة، مـررت مجدداً من تحـت وأعلى نفس الجسـور التي عبرتهـا. بدأ المسـاء يحـل، لم أكـن أدري إلى أين كنت أمـشي، دخلت إلى حديقـةٍ صغـيرةٍ وجلسـت. عينـاي كانتـا تحترقـان، أسـندت رأسي إلى الخلـف ونظـرت إلى السـماء، كانـت الثلوج تجمـد قدمـيّ، ورغم ذلك جلسـت لساعات. سرى بجسـدي تنمّل غريب. لو تجمدت هنا مكاني وفي الغـد دفنـوني بلا مراسـمٍ ولا ضجة. ماذا سـتفعل ماريا حين تتلقى الخبر بعد أيام؟ كيف سيكونُ وجهها؟ هل ستندم على كل ما فعلته بي؟ كل أفـكاري كانـت تحوم وتـدور حولها. نهضت واسـتمريت بالمشي في نفـس الطريـق. كان عـلي المشي لسـاعاتٍ أخـرى حتى أصـل لمنتصف المدينـة، بـدأت في الحديث مع نفسي في الطريق. كنـت أخاطبها، وكأننا في أول أيـام لقائنـا. تهجم عليّ أفكارٌ جميلةٌ، جذابـةٌ ومخادعة. من المؤكد أن كلماتي هذه كانت لتؤثر فيها وتجعلها تغير رأيها. كنت أقول لها بعينين دامعتين، وصوتٍ مرتجفٍ أننا من المسـتحيل ان ننفصل لأسـبابٍ تافهةٍ بعـد تقاربنـا وقربنـا الآن. وعثورنـا على بعضنـا البعض في هـذه الدنيا الكبـيرة المشـغولة.. فتسـتغرب هي في البدايـة من انفعال وتأثر إنسـان طبيعته السكون وتقبل كل شيءٍ كما هو، ثم تأخذ يديّ بهدوء وتبتسم لي وتقول: "معك حق!"

نعـم، يجـب أن أراهـا وأقول لها ذلـك. عليها أن تغير القـرار الرهيب الـذي تقبلتـه بسـهولةٍ في الصبـاح. سـوف تغـيره. بل ربما هـي أيضاً

استغربت من خروجي الفوري بلا اعتراض، وحزنت. عليّ أن أراها في الحال، هذا المساء.

تسكعت حتى الساعة الحادية عشرة، وفي الليل انتظرت مقابل الأتلانتيك متجولاً حوله. لكنها لم تأتِ. في النهاية سألت البواب المتأنق عنها فقال: " لا أعلم، لم تأتِ هذا المساء! ". خمنت عندها بأن مرضها قد اشتد عليها. توجهت ركضاً إلى منزلها، لم تكن نافذتها مضيئةً، يبدو أنها نائمةٌ على كل حال. عدت إلى المهجع معتقداً بأن إزعاجي لها في هذه الساعة ليست بفكرةٍ جيدة.

مضت ثلاثةُ أيامٍ على نفس الحال وأنا أنتظرها في الطريق. في النهاية ذهبت إلى باب منزلها، نظرت إلى نوافذها المظلمة، ومن دون أن أجرؤ على فعل شيء، رجعت. كنت أجلس في غرفتي كل يومٍ أحاول القراءة. أقلب الصفحات من دون حتى أن أقرأ منها حرفاً، وأحياناً كنت أحاول استجماع تركيزي وأقرأ من البداية، لكن وبعد عدة أسطرٍ فقط كان عقلي يطير إلى أماكن أخرى. كنت أعرف بأني لم أكن أفعل غير تقبّل ما يحدث في النهار كما هو، كما أتقبل قراراتي التي اتخذتها فيه، وانتظار وقتٍ أكثر ليمر. لكن ومع حلول المساء كانت مخيلتي تبدأ في النشاط، تفكّر في أشياء لن تحصل، مثل مريضٍ محموم. وفي النهاية، وضد كل قراراتي النهارية، أخرج من بيتي ليلاً في وقت متأخر، وأتجول في الطرق التي تمرّ هي منها وحول بيتها. لم أعد أسأل البواب عنها لخجلي، فأصبحت أكتفي بالمراقبة من بعيد. مرت خمسة أيامٍ هكذا. كنت أراها كل ليلةٍ في منامي أكثر قرباً مما كنت أراها من قبل.

في اليـوم الخامس، وعندما عرفت بأنها لم تذهب لعملها مجدداً، اتصلت بالهاتف على كازينو الأتلانتيك وسألت عن ماريا بودر. أخبروني بأنها لم تستطع القدوم لعدة أيامٍ بسـبب مرضها. معنى ذلك أنها كانت مريضةً حقاً، وهل كان عندي شـكٌ في ذلك؟ لماذا انتظرت أن يخبرني أحد حتى أصـدق بأنهـا مريضـة؟ فليس من المعقول بأنها سـتغير سـاعات عملها وتطلـب من البواب أن يصرفني لتتهـرب مني فقط! توجهت إلى منزلها ناوياً إيقاظها إذا اسـتلزم الأمر. كانت ضرورة الظرف تسـمح لي بفعل ذلك، فليس من الحكمة إعطاء قرارٍ أتى بعد ليلة سكرٍ كل هذه الأهمية.

صعـدت درجات السـلم وأنا أتنفس بسرعة، ولكـي لا أتردد وأتراجع وضعـت يدي على الجرس، كانـت رنة قصيرةً وانتظـرت. لم تحدث أي حركـةٍ بالداخـل. بعدها، دقيـت الجرس مـراتٍ أطول. لم أسـمع وقع أقدام. لكن باب الشـقة المقابل فُتح وأطلت منـه خادمةٌ تبدو آثار النوم على وجهها. قالت:

- "ماذا تريد؟"

- "الساكنة هنا!"

بعد أن دققت في وجهي لوهلة، قالت بنبرةٍ عدائية:

- "ليس هناك أحد!".

قفز قلبي من مكانه، قلت:

- "هل انتقلت إلى مكانٍ آخر!"

بدى أن حيرتي وقلقي جعلاها تغير من نبرتها، هزت رأسها قائلةً:

- "لا، فأمهـا لم تأتِ من بـراغ بعد. أما هي فمرضت، ولعدم توفر أحدٍ

يعتني بها تم نقلها إلى المستشفى!"

ركضت إلى الخادمة:

- "ما مرضها؟ وهل هو شديد؟ وإلى أي مستشفى أخذوها؟ ومتى؟.."

عادت الخادمة التي تفاجئت بهجوم الأسئلة خطوةً إلى الوراء وقالت:

- "لا ترفع صوتك، ستوقظ أهل المنزل. نقلوها قبل يومين؛ أخذوها إلى مستشفى تشاريتي على الأغلب!"

- "ومرضها؟"

- "لا أعلم!"

ومن دون أن أشكر الخادمة المشدوهة حتى، ركضت قافزاً درجات السلالم خارجاً. سألت أول رجل شرطةٍ صادفته عن عنوان المستشفى وذهبت إلى هناك. لا أدري بأيّ مقصدٍ ذهبت، سرت في جسدي رهبةٌ عندما رأيت البناء الكبير الممتد لمئات الأمتار، لكنني ومن دون أيّ ترددٍ توجهت إلى البوابة الكبيرة وناديت البواب في غرفته.

لم يكن عند الحارس الذي ظهر للزائر الذي أزعجه بعد منتصف الليل في هذا البرد القارس أي معلومة. لا عن قدوم تلك المريضة، ولا عن مرضها، ولا عن مكان تنويمها. كان ومقابل كل سؤالٍ أسأله، ورغم ضجره مني، يبتسم قائلاً: " تعال غداً الساعة التاسعة".

بتجولي حول المبنى الكبير وأنا أفكر فيها حتى الصباح، فهمت قدر حبي لها وارتباطي الجنوني بها تماماً. كنت أنظر إلى بعض الغرف التي كانت نوافذها مضيئةً بإضاءةٍ صفراء خفيفة، وأحاول تخمين الحجرة التي تنام فيها ماريا، وأشعر برغبةٍ لا تقاوم بأن أكون بجانبها، أخدمها

وأسهر على راحتها وأمسح عرق جبينها بيدي.

في هذا المساء فهمت بأن الإنسان قد يرتبط بإنسان آخر أكثر من ارتباطه بالحياة. ومجددا فهمت بأنني لو خسرتها، فإني سأتدحرج في هذه الدنيا كحبة جوزٍ جوفاء.

كانت ندفات الثلج تصطدم بجدارٍ إلى آخر وتملأ عيني. الشوارع خاليةً تماماً. وبين حينٍ وآخر كانت عربات الإسعاف البيضاء تدخل إلى المستشفى، وتخرج بعد زمن بسيط. حدّق في وجهي رجل شرطة بعد أن مر من جانبي مرتين، وفي المرة الثالثة سأل عن سبب تواجدي هنا. وعندما أخبرته عن وجود مريضٍ لي في الداخل، أخبرني أن أذهب وأستريح وآتي في اليوم التالي. لكنه في المرات الأخرى التي مر بها من جانبي اكتفى بالصمت حزيناً على حالي.

عندما بدأ النور بالإنتشار، بدأت الحياة تسري معه في الشوارع. وبعد مدةٍ بسيطة، بدأ عدد سيارات الإسعاف الداخلة والخارجة من المستشفى بالإزدياد. وفي تمام التاسعة، ورغم عدم كونه يوم زيارة، أخذت إذناَ من الطبيب المناوب برؤية المريضة. كانت تعابير وجهي البائس هي ما جعلته يسمح لي بذلك على كل حال.

وُضعت ماريا بودر في غرفةٍ ذات سريرٍ واحد. أخبرتني الممرضة التي جاءت بعدم إطالة المكوث في الداخل وإزعاج المريضة وإرهاقها. كانت مريضة بذات الجُنُب[1]، لكن الطبيب لم يجد

(1) التهاب رئوي يجعل التنفس مؤلما للغاية.

المـرض خطيراً. عندما التفتت ماريا ورأتني، ابتسـمت على الفور. لكـن وجهها تغير فجـأةً وأخذ حـالا مضطربـاً، والممرضة لم تكن لتخرج وتتركنا وحدنا في الغرفة.

- "ماذا حصل لك رائف؟"، سألت ماريا.

لم يتغـير صوتهـا أبداً، لكن وجهها كان شـاحباً ومصفراً أكثر. جلسـت بجانبها:

- "ماذا حصل لكِ أنتِ؟ أرأيتِ؟"، قلت.

- "لاشيء مهم... نزلةٌ وتمرّ... لكن أنت تبدو منهكاً تماماً!"

- "علمـت عـن مرضـك مـن كازينـو الأتلانتيـك. ذهبـت إلى بيتك، وأخبرتني خادمة الشقة المجاورة لشقتكم أنك هنا. لم يأذنوا لي بالدخول ليلاً، فانتظرت حتى الصباح!"

- "أين؟"

- "هنا. حول المستشفى!"

تفحصتنـي بنظراتهـا. كانـت في غاية الجديـة. كانت وكأنها على وشـك أن تقول شـيئاً، ثم تراجعت. فتحت الممرضـة الباب، ودّعت المريضة. هزّت رأسها، لكننا لم تبتسم.

مكثـت ماريا بودر في المستشـفى خمسـةً وعشرين يوماً. وربما سـيبقونها لمدةٍ أطول، لكنها أخبرت الأطباء بمللها في المستشـفى، وبأنها تسـتطيع الإعتناء بنفسـها في بيتها. خرجت محملةً بتوصياتٍ ووصفاتٍ طويلة في يومٍ مثلج. لا أذكر حالياً ما فعلته في تلك الخمس والعشرين يوماً، لكنّ الغالـب أنني عدا ذهابي إليها ورؤيتها، والجلوس عند رأسـها، ومراقبة

وجهها المتعرق وعينيها الذابلتين بين وقتٍ وآخر، وصدرها الذي كان يتنفس بصعوبة.. عدا ذلك لم أفعل شيئاً يذكر. بل لم أعش حتى، لأني لو عشت لتذكرت شيئاً من تلك الأيام، ولو شيئاً بسيطاً. لكن كان في داخلي وأنا بجانبها خوفٌ عظيم، خوفٌ من أن أفقدها. أصابعها النافرة من طرف السرير، وساقاها الخارجتان من أسفل نهاية الغطاء، كانوا كلهم كأطراف ميتٍ من الآن. حتى وجهها، شفاهها وخديها، كانوا كمن ينتظر فرصةً تمنعهم من هذا التحول المخيف.. وقتها ماذا سأفعل؟ نعم، سأحافظ على هدوئي، وأنجز آخر معاملاتها، وأختار مكان الدفن، وأعمل على تعزية أمها التي ستأتي وقتها من براغ، وفي النهاية سأودعها الحفرة وأتركها. سأتركها وجمع المعزين، ثم أعود لاحقاً بتخفّي، وأجلس معها وحدنا. وهكذا كل شيءٍ سيبدأ في هذه اللحظة. سأكون من تلك اللحظة قد خسرتها فعلاً. ماذا سأفعل لو حصل ذلك؟ أستغرق في التفكير والخيال إلى تلك اللحظة. ولكني لا أستطيع تصور مابعدها. نعم، ماذا سأفعل بعد أن أودعها الحفرة ويذهب المعزون وأبقى معها وحدي؟.. في تلك اللحظة ونظراً بأن كل أعمالها انتهت، فإن ذلك لن يكون مثيراً للسخرية، سخيفاً وبلا سببٍ بقدر ما وجودي على هذه الأرض كذلك. كلّ روحي كانت في حالة فراغ. قالت لي في يوم بعد أن تحسنت حالتها:

- "تكلم مع الأطباء، ليخرجوني!"، ثم تمتمت وكأنها تقول شيئا عادياً:
- "أنت تعتني بي أفضل منهم!"

طرت خارجاً من دون أن أرد عليها، طلب الإستشاري مكوثها لعدة

أيـام أخـرى، ورضينا بذلـك. أخـيراً، وفي يومها الخامـس والعشرين، ألبسـتها معطفها الفروي، أمسكت بذراعها وأنزلتها السلالم. أوصلتها بيتها عن طريق سيارة أجرة، ساعدني السائق ونحن صاعدون على حملها إلى طابق سكناها؛ ورغم هذا، عندما نزعت عنها ملابسها وأرحتها على سريرها كانت تبدو مرهقةً جداً.

اعتبـاراً من تلـك اللحظة اعتنيت بهـا أنا بنفسي فقط. كانـت تأتي امرأةٌ عجـوزٌ لتنظيـف المنزل إلى وقت الظهر، تشـعل المدفـأة، وتحضّر طعاماً للمريضـة. ورغـم إصراري وإلحاحي إلا أن ماريا رفضـت تماماً إخبار أمّهـا وجعلها تأتي. كانت تكتب بيدٍ متعبةٍ رسـائل إلى أمها : "أنا بخير، اعتني بنفسك واستمتعي واقضِ الشتاء هناك.".

كانـت تقول :"لـو جاءت فلن يسـاعد قدومها في شيءٍ أبـداً، لأنها هي تحتاج للعناية أصلاً. سـتكتئب لمرضي وتحزنني معها!"، ثم تتمتم مجدداً بنفس النبرة كأنها تقول شيئا لاأهمية له:

- "أنت موجود للعناية بي! لاحاجة لأحدٍ آخر! أو أنك سئمت؟"

لكنها لم تكن تبتسـم وهي تقول ذلك، لم تكن تمزح. في الواقع هي ومنذ وقوعها مريضةً لم تكد تبتسم أبداً. قابلتني بابتسامةٍ في اليوم الأول الذي جئـت فيه إلى المستشـفى، مـن بعدها حافظت على جديـةٍ عنيدة. في كلّ حالٍ ووضع، وهي تطلب شـيئاً، وهي تشـكر أحداً، وهي تتكلم في أيّ موضـوع، كانت دائماً جادة. كنت أمكث عندهـا حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، أنتظر عند رأسها، وآتيها مبكراً صباحاً. وفي الأيام الأخيرة كنت أحـضر بعض الأغطية من غرفة أمها وأنام في نفس الغرفة. الحادثة التي

حصلت في صباح رأس السنة، أو بالأصح، تلك المحادثة الصغيرة، فليس من الصواب إطلاق لفظ حادثة عليها، لم تُذكر بواسطةِ أيّ منا. كل شيء، زياراتي للمستشفى، وأخذي لها إلى المنزل ، وحياتنا هنا، كل ذلك كانت تتلقاه وكأنه طبيعي. كنا ومن باب أضعف الإيمان، نحاول التهرب من ذكر الموضوع، لكن من المؤكد أنها كانت تفكر في شيءٍ ما. كانت تتابعني بعينيها وأنا منشغلٌ بأشياءٍ في الغرفة، وأنا أقرا لها كتاباً بصوتٍ عالٍ. كنت أحس دائما بمتابعتها لي، كأنها كانت تبحث عن شيءٍ فيّ. في يوم من الأيام، وفي وقت الغروب كنت أقرأ عليها حكاية جاكوب واسيرمان «الثغر الذي لم يُقبَّل أبداً». هنا، كانت الحكاية تحكي عن معلمٍ لم يحبه أحدٌ في حياته، وحتى رغم عدم اعترافه بذلك لنفسه، شاخ وهو ينتظر حب أحدٍ له. الوحدة النفسية للرجل البائس، وأحلامه المتولدة في نفسه، وموته سريعاً قبل أن يكتشف ذلك أحد، صُوِّرت بقلمٍ ماهر. عندما انتهت الحكاية، صمتت ماريا لمدةٍ طويلةٍ مغمضةً عينيها. ثم التفتت إلي، وقالت بنبرةٍ لا مبالية:

- "ماذا فعلت في الأيام التي تلت رأس السنة؟"
- "لم أفعل شيئاً!"
- "حقاً؟"
- "لا أعرف.."

عادت لصمتها من جديد. لأول مرةٍ تلمس هذا الموضوع، لكنني لم أكن متفاجئاً. بل حتى أنني كنت منتظراً هذا السؤال لمدة طويلة، لكن وبدل أن أجيبها كنت ألقمها طعامها. بعدها غطيتها جيداً، وجلست بجانب

رأسها مجدداً، وقلت:

- "هل أقرأ لكِ شيئاً؟"

- "أنت حر!"

بعد الأكل، تعودت أن أقرأ أشياء مملةً جداً محاولاً نسيانها، في لحظةٍ ترددت:

- "لو أردتِ فسأحكي لكِ عما فعلته في تلك الأيام الخمسة، ستنامين أسرع!"

لم تضحك، ولم تجاوبني حتى. هزت رأسها موافقةً فقط. بدأت محاولاً استجماع كل ما علق في ذاكرتي من تلك الأيام. خروجي من البيت، الأماكن التي ذهبت إليها، ما رأيته وفكرت فيه عند البحيرة، كيف كانت الليالي والطرق التي مررت بها وتجولت حولها، وأخيراً، ركضي إلى المستشفى بعد أن علمت بمرضها في آخر ليلة وانتظاري بالخارج حتى طلوع الصبح. كان صوتي في غاية السكون، وكأنني كنت أقصّ حكايةً حصلت لأحدٍ غيري. أتوقف عند التفاصيل، أحاول تحليل كل مايدور في خاطري، ثم أسكبه للخارج. هي أيضاً لم تكن تنبس ببنت شفة. عيناها مغمضتان. ساكنةٌ وكأنها تحاول إقناعي بأنها نائمة. رغم ذلك، أكملت. كنت فوق كل ذلك وكأنني أحاول التكرار لنفسي. أقول بعض المشاعر التي أنا نفسي لم أستطع فهمها، وأتحدث حولها، وأنتقل إلى غيرها قبل أن أصل إلى نتيجة. غير مرةٍ واحدة، بينما كنت أحكيها عن رغبتي في وداعها على الهاتف، فتحت عيناها، ونظرت في وجهي بتركيز، ثم أغمضتهما من جديد. لم يبْدُ على وجهها أي تعبير.

لم أكن أخفي شيئاً، فلم أرى داعٍ لذلك، لأني لم يكن لي أي مقصد. كنت أشعر بالحوادث التي أحكيها وكأنها حصلت قبل زمنٍ بعيدٍ لإنسان لا أعرفه. تشكلت بيني وبينها مسافة. لذلك فإن أحكامي بحق نفسي وحقها، كانت بعيدة عن تفكيري وحسابي، لم أكن منصفاً تماماً. لم تخطر على بالي أيٌّ من الكلمات التي كانت تهجم عليّ في الليالي التي أنتظرها فيها في الشارع، ولم أكن أحاول استذكارها. لم يكن في داخلي غير "حاجةٌ بسيطةٍ لقصّ حكايةٍ" فقط. لم أكن أقيم الوقائع من حيث أهميتها لي، بل من حيث أهميتها لها. بينما هي، ومن دون أن تصدر أي حركة، كانت تنصت إلي بكل جوارحها.

كنت أشعر بذلك تماماً. عندما حكيت لها عما كنت أفكر فيه وأنا أراقبها في المستشفى، وكيف تخيلتها ميتةً، لاحظت أن جفونها قد تحركت فقط. هذا كل ماحصل.

وعندما انتهى كلامي صمتّ، وهي أيضاً. ربما استمر الوضع هكذا لعشر دقائق. أخيراً التفتت إلي بوجهها، وفتحت عينيها، ولأول مرةٍ منذ مدةٍ طويلة، أظهرت مايشبه الإبتسامة – أو هذا ما اعتقدته – وقلت بصوتٍ غايةٍ في الهدوء:

– "ألن ننام؟"

قمت من مكاني. جهزت مكان نومي، غيرت ملابسي وأطفأت الأنوار، لكنني لم أستطع النوم لوقتٍ متأخر. حتى هي لم تستطع. عرفت أنها كانت مستيقظةً لأني لم أسمع أنفاسها. ورغم هبوط الثقل ببطءٍ على جفني، إلا أنني انتظرت سماع صوت أنفاسها المنتظمة الذي

تعـودت على سـماعه كل مسـاء. وحتى لا أغفـو إلى النـوم كنت أبذل جهداً وأتقلب كثيراً.

فتحت عينيّ مبكراً في الصباح. مازالت الغرفة مظلمة، ومن بين سـتائر النافذة كان ينفذ بصيص نورٍ بسيط. لم يكن هناك الصوت الذي اعتدت على سـماعه، صـوت أنفاسـها. في الغرفة صمتٌ رهيـب ومخيف. كلانا كان ينتظر بـروح مضطربة. في داخل كلٍّ منا شيء يتراكم. كنت أشـعر بذلك بشـكل محسـوس. في نفس الوقت وقعت في فضولٍ كبير؛ ياترى متى اسـتيقظت؟ أو تراها لم تنم أبداً. رغم كل سكوننا إلا أن هواءً مليئاً بأفكارنا كان ينتشر في الغرفة.

رفعـت رأسي عـلى مهـل، عيناي المعتادتـان على الظـلام لاحظتا كون ماريا تنظر إليّ متكئة على وسـادةٍ خلـف ظهرها. «صباح الخير»، قلتها وخرجـت لأغسـل وجهـي. وعندمـا عـدت إلى الغرفـة كانـت المرأة المريضة في نفـس وضعيتها. فتحت السـتائر، وأزحت مصباح الإنارة الليليـة. ورتبت فـراشي، فتحت الباب للخادمة وسـاعدت ماريا على شرب الحليب.

كنـت أفعـل كل ذلـك بـلا كلام. كل يومٍ وعـلى نفس المنـوال، أنهض، وأنشـغل بنفـس الأعمال، أعمـل في مصنـع الصابون إلى الظهـر، وبعد الظهـر أقرأ لهـا صحيفةً أو كتابـاً، وأحكيها عما فعلتـه ورأيته في الخارج حتـى يحلّ المسـاء. هل كان هذا ما كان يجـب أن أفعله، أم لا؟ لا أدري. كلّ شيءٍ شـقّ طريقـه بنفسـه ولم أكن أنـا إلاّ تابعاً لما يحـدث. لم تكن في داخلي أيّ رغبة. لم أكن أفكر لا في الماضي، ولا في الحاضر، لم أكن أعرف

إلا اللحظات التي أعيشها. روحي بلا رياح تعصف بها، وساكنةٌ كبحرٍ بلا أمواج.

حلقت ذقني، وبعد أن ارتديت ملابسي استأذنت ماريا في الذهاب:

- "إلى أين أنت ذاهب؟"، قالت لي.

تعجبت:

- "ألا تعرفين؟ إلى المصنع!"

- "أيمكنك البقاء اليوم؟"

- "نعم، ولكن لماذا؟"

- "لاأدري، أريدك أن تبقى بجانبي طوال اليوم!"

اعتبرت ذلك من هلوسات المرض؛ لكني لم أجبها. بدأت في تصفح الصحف التي تركتها الخادمة في ركن السرير. كان هناك اضطرابٌ عجيب في حال ماريا، كأن شيئاً ما كان يضايقها. تركت الصحف في الزاوية واقتربت جالساً بجانبها، وضعت يدي على جبينها:

- "كيف حالك اليوم؟"

- "بخير.. أفضل بكثير."

ودون أن تفعل شيئاً، علمت أنها لم تردني أن أرفع يدي عن جبهتها. أحسست بالتصاق أصابعي على وجنتيها وجبهتها، وكأن كل تحكمها وإرادتها أصبحا في جلدها.

قلت بصوتٍ في غاية السكون: "معنى ذلك أنك أصبحت أفضل! إذا لماذا لم تنامي الليلة الفائتة أبداً؟"

تفاجأت، وانتشر من رقبتها إلى خديها لونٌ أحمر. كان ارتباكها واضحاً

لعدم قدرتها على إعطائي جواباً. أغمضت عينيها فجأةً، أراحت رأسها إلى الخلف وكأنها تشعر بتداعٍ، وقالت بصوتٍ لايكاد يُسمع:

- "آه يارائف!"

- "خيراً؟"

استجمعت نفسها قليلاً. ثم قالت بأنفاسٍ متسارعة:

- "لاشيء! لاأريدك أن تتركني اليوم. أتعرف لماذا؟ ما حكيته لي البارحة، لم أكن أظن بأنها ستهجم عليّ بمجرد أن تذهب أنت، ولا تترك لي ولا حتى دقيقةً واحدةً لراحتي."

- "لو علمت لما أخبرتك!"

هزت رأسها قائلة:

- "لا، لم أقصد ذلك. لا أقول ذلك لنفسي. لن أثق بك بعد اليوم! أخاف من أن أتركك وحدك. نعم صحيح، هذا المساء لم أنم أبداً. فكرت فيك فقط، فيما فعلته بعد ما ذهبت من هنا، وتجولك حول المستشفى، بكل التفاصيل، حتى أني رأيت الأجزاء التي لم تخبرني عنها. بسبب هذا لن أتركك وحدك أبداً! أخاف، وليس اليوم فقط. من اليوم فصاعداً لن أتركك تغيب عن ناظري!"

تفصد جبينها عرقاً. مسحته بلطف، وفي نفس الوقت أحسست بقطرةٍ حارةٍ على كفي. نظرت إلى وجهها بتعجب. كانت مبتسمة، لأول مرةٍ ومنذ وقتٍ طويل، تبتسم ابتسامة واضحةً لاشك فيها، لكن الدموع كانت تتساقط من أحداق عينيها على خديها. أمسكت رأسها بيديّ ونومتها على ذراعي. أصبحت تبتسم أكثر، وبراحة أكبر؛ لكن زادت

غـزارة دموعهـا أيضـاً. لم تكن تصـدر أي صوتٍ، حتـى صوتها لم يكن يحشرج. لم أكن أتخيل إمكانية أن يبكي الإنسـان بكلّ راحةٍ وبكل هدوء في هذه الدنيا. أمسـكت بيديها اللتين كانتـا على أغطية السرير كعصافير بيضاء وبدأت باللعب بهما. كنت أطبق أصابعي، وأفتحها مجدداً ضاغطاً على يدها وسط راحة يدي. في وسط يدها كانت هناك خطوطٌ كخطوط أوراق الشجر.

تركت رأسها ببطءٍ على المخدة:

- " ستتعبين!"، قلت لها. لمعت عيناها:

- "لا ،لا!"، قالتها وهي تضم ذراعي، ثم وكأنها تكلم نفسها:

- "الآن عرفت ما الشيء الذي كان ينقصنا! هذا النقصان لم يكن فيك، بـل فيّ أنـا. كان ينقصني الإيمان؛ بسـبب عـدم إيماني بكونـك تحبني إلى هـذا القدر، كنـت أظن بأني لم أحببـك. الآن فهمت ذلـك. معنى ذلك أن النـاس أخذوا منـي قابلية الإيمان. لكني الآن مؤمنـة. أنت أقنعتني. أنـا أحبك. ليس إلى حد الجنون، حبٌ معقول في حدوده. أنا أريدك، في داخلي رغبةٌ عظيمة. آه لو أشفى! متى سأشفى ياترى؟"

لم أسـتطع أن أجبهـا، جففـت دموع عينيها ماسـحاً إياهـا بوجهي. من بعـد ذلـك، وحتى شـفيت من مرضهـا وقامت عـلى قدميهـا لم أتركها أبـداً. وعندمـا كنت أضطر إلى شراء بعض الطعـام والفاكهة، أو أذهب للمهجع لأغير ملابسي، كنت أحسّ بالسـاعة أو الساعتين التي أقضيها بعيداً عنها طويلةً لدرجةٍ مرعبة. عندما كنت أمسك بذراعها وأساعدها بالجلـوس على الأريكة، وأضع على ظهرهـا غطاءً يقيها من البرد، كنت

أشعر بسـعادةٍ لا محدودةٍ لكوني قد خصصت حياتي لخدمة إنسان آخر.
كنا نجلس مقابل بعضنا أمام النافذة، نتفرج على الخارج بالسـاعات، لا نتكلم في شيء، فقط كنا بين وهلةٍ وأخرى ننظر إلى بعضنا ونبتسم؛ كنت أشـعر بسعادةٍ طفولية. اسـتعادت قوتها قليلاً بعد عدة أسابيع. بدأنا في الخروج للتنزه سوياً عندما يكون الجو صحواً لمدة نصف ساعة.
قبـل أن نخـرج، كنـت أسـاعدها بالتجهز للخـروج بـكل عناية، حتى أني كنت أُلبسـها جواربها لأنها كانت تسـعل عندما تنحني. ثم ألبسـها معطفها الفروي، وأساعدها على النزول من السلالم ببطءٍ.. وعلى المقعد الذي يبعد عن المنزل مئةً وخمسون متراً كنا نجلس لنستريح. ومن هناك نتوجـه إلى شـاطئ بحـيرةٍ مـن بحـيرات تيرغارتـان، ثم نشـاهد الإوزّ وطحالب الماء.
وفي يـوم من الأيام انتهى كلّ شيء. بهذه البسـاطة، انتهى بشـكلٍ قاطعٍ لدرجـة أني لم أسـتطع أن أفهـم هـول ماحصـل. فوجئـت قليـلاً فقط، وحزنـت كثيراً؛ لكنني لم أتوقع، ولم أفكر حتـى باحتمالية أن تكون هذه الحادثة صاحبة هذا التأثير الكبير والغير قابل للتغيير على حياتي.
في الأيـام الأخـيرة كنت أتـردد من الذهـاب إلى المهجـع. ورغم دفعي ثمن الإيجار مقدماً إلا أني لم أذهب أبداً، تسـبب ذلك في جعل صاحب المهجع يعاملني ببرود. في يومٍ من الأيام قال فراو هوبنير:
- "لـو أنـك انتقلت لمكانٍ آخـر أخبرنا لنعلـم الشرطـة، لا نريدهم أن يزعجونا لاحقاً!"
قلت لأنهي الموضوع بمزحة:

- "وهل أستطيع ترككم؟" داخلاً غرفتي.

هذه الغرفة التي عشت بها أكثر من سنةٍ كاملة، أغراضي وأمتعتي التي أحضرت معظمها من تركيا. الكتب المبعثرة هنا وهناك، كلها كانت تبدو غريبةً لي. فتحت شنطتي وأخذت بعض الأغراض التي أحتاجها. لففتها في صحيفة، وفي ذلك الوقت دخلت خادمةٌ إلى الغرفة:

- "لديك تلغرافٌ ينتظرك منذ ثلاثة أيام!"، قالتها ومدت يدها إليّ بورقةٍ مغلفة.

في البداية لم أفهم شيئاً. لم أستطع أن أتناول التلغراف من يد الخادمة. لا، ليس بهذه الورقة شيءٌ يخصني. كنت بعدم اطلاعي على ما فيها أحاول إبعاد المصيبة التي بداخلها عني.

كانت من نسيبي. يقول فيها : "توفي أبوك. أرسلت لك نقود رحلة العودة. تعال فوراً!". كان هذا كل مافي التلغراف، أربعة أو خمس كلماتٍ في غاية الوضوح. ورغم ذلك استمريت في التحديق بالورقة لوقتٍ طويل. قرأت كل كلمةً مجدداً وكررتها عدة مرات. ثم نهضت، تأبطت أغراضي التي حضّرتها وخرجت.

ماذا حدث؟ رأيت أن كلّ شيءٍ حولي على حاله كما كان، لم يتغير. لم يحدث لي شيء، ولا للأشياء حولي. ماريا تنتظرني على النافذة على كل حال. رغم ذلك فإني لم أعد "أنا" الذي كنته قبل نصف ساعة. خلف آلاف الكيلومترات، سلّم إنسان هناك روحه؛ ورغم حصول هذه الواقعة قبل عدة أيام، فلا ماريا ولا أنا شعرنا بشيء. لم تختلف الأيام عن بعضها. لكن بغتةً، ورقةٌ في حجم الكف، تقلب كل شيءٍ رأساً

عـلى عقب، تأخـذني من هذه الدنيا إلى هناك، تذكرت الآن أن هذا ليس مكاني، مكاني هو المكان الذي جاءت منه الورقة.

فهمت الآن وبعد عدة أشهرٍ خطئي باعتقادي أن هذه الحياة التي كانت تحيط بي كانت حقيقية، وبأملي أن تدوم على حالها. من جهةٍ كنت أتخبط غـير متقبل للحقيقة. لم يكـن على هذا أن يحدث. ليـس بمهمٍ هو مكان ولادتـك، ولا ابـن من تكون، مـا كان مهماً هو أن يجد إنسـاناًن بعضهما في هـذه الدنيا الصعبة وأن يصلا إلى السـعادة النـادرة. ماعدا ذلك فهو تفاصيلٌ غير مهمة. كان على هذه المشاكل أن تحل نفسها بنفسها لتتلائم مع النقطة الأهم، حقيقة أن إنسانين قد وجدا بعضهما.

لكنـي كنـت واعياً للغاية بـأن ذلك لن يحـدث. أرى الآن وبوضوح أن حياتنـا هي لعبـةٌ بيد تفاصيـلٍ جانبيةٍ صغـيرة، لأن الحياة أصـلاً عبارةٌ عـن تفاصيـلٍ وتفرعاتٍ جانبيـة. منطقنـا ومنطق الحيـاة لايتلائمان مع بعضهـما أبـداً. قد تنظر إمـرأةٌ من نافذة القطار إلى الخـارج، فتدخل ذرة فحـمٍ إلى عينها، فتفرك عينها لا إرادياً، فتتسـبب هـذه الحادثة الصغيرة بجعلِ إحدى أجمل العيون في العالم عمياء. أو أن قرميدةً قد يتلاعب بها الهواء فتسـقط على رأس أحدٍ وتشـجه. ماهو الأهم، العين أم الفحمة، القرميـدة أم الـرأس، وكما أن هذه الأسـئلة لاتطرأ على بالنـا أبداً، وكما نحـن نتقبلها من دون تفكير وتفحص، فإننا كذلك مجبورون على تحمل كثير من سخافات الحياة.

هـل هـذه هـي الحقيقـة ياتـرى؟ في الدنيا حـوادث لا يمكـن تركها تمر أمامـك، حـوادث لا نفهـم أسبابها ولا منطقهـا، هـذا صحيـح؛ لكن

هنـاك أشـياءٌ غـير منطقيـةٌ وباطلـة لدرجـة أنها رغـم كونهـا أمثلة عن الطبيعة، إلا أنه كان من الممكن أن لا تحدث، ماهي الأشـياء التي كانت تربطنـي بهاوران مثلاً؟ ثلاث أو أربع مـزارع زيتون، وعدد من مصانع الصابـون، وثلةٌ من الأقارب الذين لم ينتابنـي الفضول لأتعرف عليهم حتى. ورغم ذلك فإني مربوطٌ هنا بكل حياتي وجوانبي الحية. لكن لماذا لم يكن بإمكاني البقاء هنا؟ السبب في غاية البساطة؛ كل شيءً في هاوران سـيتعثر ويصبح رأسـاً على عقب، ونسائبي لن يرسـلوا لي المال وبالتالي سأتخبط هنا غير قادرٍ على عمل أي شيء. لكن هناك أشياء أخرى كثيرة أيضـاً: جوازات السـفر، سـفارات، وفيزا السـفر... لا يمكن فهم قدر أهمية هذه الأشـياء لحياة الإنسان، لكن من المؤكد أنها كانت مهمةً بقدر إعطاء حياتي إتجاهاً تسير فيه.

عندمـا أخـبرت ماريا بـودر بالموضوع صمتت لمدة. كانـت على وجهها ابتسـامةٌ غريبة: كأنها تقول بنظراتهـا : "ألم أقل لك؟". حاولت الحفاظ عـلى توازني واعتدالي خوفاً من أني إذا مـا قلت لها كل مايدور بخاطري فإني سأصبح مثيراً للسخرية. لكنني قلت أكثر من مرة:

- "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟"

- "أتسـأل ماذا عليك فعله؟ طبعاً ستذهـب. سأغادر أنا أيضاً بعد مدة. لن أسـتطيع العمل لفـترةٍ طويلةٍ على كل حال. سـأبقى بجانب أمي في براغ. الحياة الريفية هناك ستكون أفضل لصحتي على كل حال. سأقضي نقاهتي هناك."

تركها لي على الهامش وتحدثها عن خططها الخاصة بها أشعرني بالذهول.

كانت ترشقني بين وقتٍ وآخر بنظراتٍ هاربة.

- "متى ستغادر؟"، سألتني.

- "لا أدري؟ بمجرد أن تصلني نقود السفر فعلي المغا..."

- "حسناً، سأذهب أنا أولاً إذاً..."

- "ماذا؟!.."

أضحكها تعجبي وذهولي:

- "أنت طفلٌ دائماً يارائف!" قالت مكملةً: "إظهار الإضطراب والقلق عند مواقفٍ لا يمكنك تجاوزها طفولة. مازال لدينا وقت، سنفكر في الأشياءِ التي بيننا ثم نقرر لاحقاً."

خرجت مجدداً لأقضي بضع أعمالٍ بسيطة وأنهي ارتباطي بالمهجع، وعندما عدت قرب المساء ورأيت ماريا متجهزةً للسفر أصبت بذهولٍ بالغ.

- "هل هناك ضرورة لإضاعة المزيد من الوقت؟ لأذهب قبلك أنا وأتركك تتجهز للسفر على راحتك. ثم، ما أدراني، قررت ترك برلين قبلك فقط. حتى أنا لا أعرف السبب.."

- "كما تريدين!"

لم نتكلم بعدها في شيء. حتى الأشياء التي اتفقنا على أن نفكر فيها ونقرر شيئاً بشأنها، لم نمسها بكلمةٍ حتى. في اليوم التالي سافرت بقطار المساء. لم نخرج من بعد الظهر أبداً، جلسنا مقابل بعضنا أمام النافذة متفرجين على الخارج. سجلنا في دفاترنا عناوين بعضنا. سأكتب عنواني فوق ظروف الرسائل حتى تستطيع إرسال رسائلها إلي. لأنها لن تستطيع

الكتابة بالأحرف العربية[1]، ولا يستطيع موظفي مكتب البريد قراءة الحروف اللاتينية.

لمدة ساعة كاملةٍ تقريباً تحدثنا عن الجو، وعن طول موسم شتاء هذه السنة، وعن عدم ذوبان الثلوج رغم دخولنا في شهر شباط. كان واضحاً عليها أنها كانت تريد من الوقت أن يمر أسرع. بينما أنا، ومهما يبدو ذلك سخيفاً، فإني كنت أتمنى أن يطول بقاءنا بجانب بعضنا البعض، بل أن لا ينتهي أبداً.

رغم ذلك، إلا أن الأشياء التي تحدثنا عنها كانت سخيفةً وغير مهمةٍ لدرجة تفاجئ المرء. بين الحين والآخر ننظر لبعضنا ونبتسم ابتسامةً مذهولة، وعندما حانت ساعة قطارها كأني بها أخذت نفساً عميقاً، من بعدها مر الوقت بسرعةٍ مخيفة. بعدما وضعت أغراضها في المقصورة أصرّت على نزولنا إلى رصيف المحطة وعدم جلوسنا في المقصورة. العشرون دقيقة التالية والتي امتلأت بالإبتسامات عديمة المعنى شعرت بها وهي تمر وكأنها ثانية واحدة. كانت تمر على خاطري آلاف الخواطر والأفكار المختلفة، لكني فضلت أن أكبتها لأن الوقت ضيقٌ على أن أقولها كلها. في الحقيقة كان من الممكن أن أقول الكثير منذ الأمس، لماذا افترقنا بهذه الطريقة المباشرة؟

في آخر عدة دقائق كان يظهر على ماريا أنها خسرت بعض سكونها.

---

(1) تم إيقاف استخدام الحروف العربية واعتماد الحروف اللاتينية في 1928. وبما أنه كتب مذكراته بعد 10 سنوات في 1933 فهذا يعني أن القصة حصلت في عام 1921 على الأغلب. - المترجم

عندما لاحظت ذلك سعدت قليلاً. أن أراها ترحل من دون أن تضطرب أو تتأثر كان بالطبع سيحزنني كثيراً. قالت وهي تضغط على يدي مرةً وتتركها أخرى بطريقةٍ مبالغ فيها:

- "ياله من شيء سخيف! لأي سببٍ تذهب يا ترى؟"

- "أنتِ الراحلة في الحقيقة، أنا مازلت هنا!"، قلت لها.

بدت وكأنها لم تسمع ماقلت، أمسكتني من ذراعي.

- "رائف.. أنا الآن ذاهبة!"

- "نعم.. أعرف ذلك!"

حان وقت مغادرة القطار. كان أحد الموظفين يقوم بإغلاق باب المقطورة. صعدت ماريا درجة على السلم، ثم انحنت باتجاهي، وقالت بصوتٍ منخفضٍ، وببطء ووضوح:

- "الآن أنا ذاهبة، لكن متى ما استدعيتني أتيتك.".

لم أفهم ماقصدته في البداية. هي أيضاً توقفت وزادت:

- "أينما كنت أتيتك!"

هذه المرة فهمت قصدها. قفزت لأحضن يدها وأقبلها. دخلت ماريا إلى الداخل، وبدأ القطار بالحركة من دون صوتٍ ولا جلبة. ركضت بجانب النافذة التي كانت تجلس خلفها لمدة، ثم تباطأت، ثم لوحت بيدي صائحاً:

- " سأدعوك، سأدعوك بالتأكيد!".

هزت رأسها ضاحكة. نظراتها ووجهها كانا يخبراني بأنها تصدقني.

في داخلي حزن مَنْ بقي في صدره كلامٌ لم يقله. لأي سببٍ لم نتحدث في شيءٍ منذ البارحة؟ لماذا تحدثنا عن الحقائب، وعن متعة السفر، وعن شتاء السنة، ولكننا لم نقترب من المواضيع التي تمسنا نحن؟ ربما كان هذا أفضل. ماالذي كان سيغيره الكلام الكثير؟ ألم يكن كلّ شيءٍ سيصل إلى نفس النتيجة؟ ماريا وجدت أفضل طريقة، وبلا شك. عرضٌ وقبول.. قصير، ومن دون نقاشٍ أو حساب! لم يكن من الممكن أن يكون فراقنا أفضل من هذه الطريقة. كل الكلمات الجميلة التي كنت أحترق لندمي على عدم قولي لها كانت عاجزة ولا تملك لوناً أمام ما فعلت هي.

الآن أصبحت متفهماً تقريباً لسبب اتخاذها قرار السفر قبلي. لو أني ذهبت قبلها فإن أول عدة أيامٍ بعد ذهابي في برلين ستكون مملَّة جداً ومضجرَّة بالنسبة لها على كل حال. حتى أنا، كنت ورغم إنشغالي الشديد بتجهيزات السفر، وأمور جواز السفر والتذكرة والفيزا، إلا أني وفي كل مرةٍ أمر من شارع كنا قد مررنا به كنت أشعر بكآبةٍ وحزن، رغم أنه لم يعد هناك شيءٌ يُثير الحزن. سأعود إلى تركيا، وبمجرد أن أنهي أعمالي وأضع كلّ شيءٍ في نصابه سأستدعيها لتأتي. هذا كل مافي الأمر.. أظهرت مهارتي الكبيرة في نسج الأحلام نفسها هذه المرة. كنت أرى أمام عينيّ القصر الجميل الذي سأشيده بالقرب من هاوران والتلال التي سنتنزه عليها والغابات.

بعـد أربعة أيـام، عدت إلى تركيـا مروراً بولنـدا ورومانيـا. لم يكن لهذه الرحلـة أي شيءٍ مهـم يكتب عنها، ولا عن السـنوات التـي تلتها... لم أبدأ بالتفكير في الحادثة التي تسببت في عودتي إلى تركيا إلا عندما ركبت الباخـرة في كونستانتسـا. توفي أبي. شـعرت بحرجٍ مـن نفسي لإدراكي المتأخـر جداً لهذه الحقيقة. رغم أنه لم يكن هناك من سـببٍ يجعلني أحبه في الحقيقة؛ كنا دائماً كغريبين عن بعضنا، ولو سـألني مرة أحدهم: "هل كان أبوك شـخصاً جيداً؟" فلن أجد جواباً أرد به عليه، لأن معرفتي به ضحلةٌ جداً، لاتكفي لمعرفة ما إذا كان طيباً أم سـيئاً. أبي كـ"إنسـان" لم يكـن - بالكاد - موجوداً بالنسـبة لي؛ كان مفهومـاً مجرداً عن مايقولون عنـه "أب" على شـكل إنسـان. بصلعته المسـتديرة ولحيته الشـعثاء كان يدخـل إلى البيـت في المسـاء بهـدوءٍ مقطبـاً حاجبيه ولايجدنـا ولا حتى أمي مسـتحقين لخطابـه، مختلفاً تماماً عـن الرجال الذين كانوا يجلسـون في المقهـىَ ذا حـوض الماء، فاتحـين عروة سـتراتهم، يتكلمون ضاحكين وهم يشربون العيران ويقدحون بالشـتائم ويلعبون الطاولة. كم أردت أن يكون حال أبي في البيت كما هو في القهوة. في الواقع كان حتى عندما يـراني وهو على تلك الحـال يتخذ وجهه وضع الجديـة ويصرخ بي: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هيا اذهب إلى موقد القهوة واشرب شـيئاً ثم عد إلى الحارة، العب هناك!".

كـبرت، وذهبـت إلى التجنيد الإجبـاري ولم تتغير معاملتـه لي. بل كنت

أشـعر ولسـبب مـا أني كلما كـبرت وزاد نضجـي كنت في نظـره أصغر أكثر. أصبح ينظر إلى آرائي الشـخصية وأفكاري ببعض الإسـتخفاف. في السـنوات الأخيرة، كانـت موافقته لكل رغبـاتي وطلباتي علامةً على عـدم تنزّله وإعطـاءه أي أهميةً لي. رغم كل هذا، إلا أنه لم يكن في رأسي أي شيءٍ يشـوّه ذكراه. لم أكن سأشعر بالفراغ الذي تركه، لكنني سأشعر بغيابـه. مع اقترابي من هاوران كان الحزن يهبط على صدري أكثر فأكثر. كنت أشعر بصعوبة تخيل بيتنا وقريتنا من دونه.

ليـس هناك لـزومٌ لأسترسـل في شرحٍ طويـل لكل هذا، بـل إني أفضل ألا أتكلـم عـن العـشر سـنوات التاليةِ أيضـاَ. لكن ولكـي تُفهم بعض المواضيع، فعـليّ أن أخصص بعض الصفحات لأكتب عن أكثر مرحلةٍ خلـواً من المعنى في حياتي. لم يُحتفى بي ولم أُسـتقبل بترحابٍ في هاوران. ونسـائبي كانوا كأنما هم يسـخرون مني، وأخواتي الكبـار كن كالغرباء تمامـاً، وأمي بائسـةٌ أكثر من السـابق. أُغلق بيتنـا، وانتقلت أمي للعيش بجانـب نسـيبي. ولأنه لم يعـرض عليّ أن أبقـى معهـم أنا أيضـاً، بدأت بالعيش مع إحدى النسـاء التي عملت عندنا لفـترةٍ طويلةٍ في بيت كبير وحدنـا. وعندمـا أردت أن أتسـلم أعـمال أبي، أُخبِرت بـأن الميراث قد وُزّع قبل وفاته، ولم أسـتطع أن أسـتعلم من نسيبي عن حصتي الحقيقية ممـا ترك والـدي. لم يذكر أحدٌ مصنعي الصابـون، يُفهم من ذلك أن أبي باعهما قبل مدةٍ لنسـائبي. وثمنهما، وحتى المال والذهب الذي كان يُقال

أن أبي كان يملكـه، لم أر شـيئاً منه. وأمـي لم تكن مدركةً لما يدور حولها. وعندما سألتها قالت:

- "لا أعلم ياولدي! يبدوا أن المرحوم ذهب قبل أن يخبرنا عن مكان دفنها. في آخر أيامه لم يتركه نسـائبك وحـده أبداً، هل كان يعرف بأنه سيموت؟ واضحٌ بأنه لم يستطع أن يخبرنا بمكان الدفينة، ماذا علينا أن نفعـل الآن؟ لنذهب إلى أحد حرس المزارع على الأقل، فهم يعرفون كل شيء!"

كانـت أمـي جـادة، فمن بعدهـا لم تـترك عامـلاً أو حارسـاً في هاوران وجوارها لم تسـأله. توصياتهم ونصائحهم لم تترك شـجرة زيتون سـالمة مـن الحفر، ولا زاوية جدار لم تُفحـص. صرفت ماتبقى لها من من قطع الذهـب القليلـة في هذا السـبيل، أخواتي الكبار كـنّ يذهبن مع الحرس والعـمال أيضـاً لكنهم لم ينفقوا شـيئاً، كنت ملاحظاً لسـخرية وضحك أصهـاري من عمليات البحث عن الدفينـة التي لم تأت بنتيجة. ولكون موسـم الحصاد قد ولى فلم يكن مـن الممكن لي أن أحصل على شيءٍ من محصول أشجار الزيتون، أمّنت بعض القروش لنفسي من بيع المحصول المسـتقبلي لبعض أشـجار الزيتون. لم يكن همي إلا تخطي فصل الصيف هذا، وفي فصل الخريف، وبمجرد بدء موسـم الزيتون، سأبذل قصارى جهدي وأحسن من وضعي ثم أرسل لماريا وأستدعيها.

منذ عودتي إلى تركيا وأنا أتراسـل معها. كانت سـاعات قراءتي لمكاتيبها

وكتابة ردودي لها الشيء الوحيد الذي ينشر في صدري انشراحاً وبهجةً وسط أعمالي السخيفة في أيام الخريف المليء بالطين والصيف الخانق. بعد أن عدت إلى تركيا بشهرٍ عادت هي وأمها أيضاً إلى برلين، كنت أرسل رسائلي إلى عنوان مركز البريد في ميدان بوتسدام، وهي تستلمها من هناك. في أواسط الصيف كتبت لي مرةً أشياءً غريبة. تخبرني في الرسالة أنها تحمل لي خبراً مفرحاً جداً، ولكنها لن تخبرني به إلا بنفسها عندما تأتي. كنت قد كتبت لها بأني أؤمل بأني سأستدعيها في الخريف!. من بعد ذلك، ورغم سؤالي المتكرر لها في رسائلي، إلا أنها لم تخبرني عن ماهية هذا الخبر. كانت تقول دائماً: "انتظر، ستعرف عندما آتي."

نعم، انتظرت، ليس حتى الخريف فقط، بل انتظرت عشر سنوات. ولم أعرف هذا الخبر "المفرح" إلا بعد عشر سنوات، لم أعرفه إلا البارحة. لكن لندع هذا جانباً ولأحكي كل شيءٍ بالترتيب.

طوال الصيف، كنت أرتدي في قدميّ حذاءً طويلاً، وتحتي حصان، تجولت في مزارع الزيتون، في الجبال وسفوحها. كنت أستغرب من أن أبي أورثني أبعد أراضيه عنا، وأكثرها جدباً وأقل محصولا. وفي المقابل، ترك لأخواتي وأصهاري المزارع القريبة من هاوران في السهول، والتي تسقى بسهولةٍ وتعطي الشجرة منها محصولاً يقدر بأكثر من شُوال. في المناطق التي تجولت ماراً فيها على أشجار الزيتون، اكتشفت أن أكثرها، ولعدم تشذيبها وتنظيفها، بدأت توحش، وفهمت بأنه حتى عندما كان

أبي حياً، لم يزعج أحدٌ نفسه ويأتي ليجمع محصولها حتى.

يبدو أنهم استغلوا مرض أبي، وبؤس أمي وخوف أخواتي وغيابي لصالحهم، لكني كنت بعملي الجاد بلا تعب آمل بأن أصلح كل شيءٍ، وفي كل مكتوبٍ أبعثه لماريا أعطيها أملاً وأشوقها أكثر.

في بدايات تشرين الأول، وفي تمام بداية الاستعداد لأعمال زراعة الزيتون، وعندما نويت بأن أستدعيها، انقطعت رسائلها فجأة. كنت قد رممت البيت، وبين كل استخفاف وسخرية أهل هاوران التي تصل لدرجة الحقارة، وفي مقدمتهم أقاربي. أرسلت بطلب أغراضٍ للبيت من إسطنبول، من بينها حوض استحمام، بلّطت غرفة الغسل ووضعته فيها.

ولعدم إفشائي لأحد بسبب ما كنت أفعله كان الكل يحمل تصرفاتي على أنها خيلاءٌ، وتقليد للفرنجة، وتحذلقٌ مني. فقد كان جنوناً صريحاً لشخصٍ مثلي لم تنتظم أعماله بعد بأن يشتري خزنةً بمرآةٍ بثمن ما باع من محصولٍ أو ماتسلف من نقود. كنت أضحك في نفسي على اتهاماتهم، فلم يكن هناك إمكانية لأن يفهموا ما كنت أفعل، ولست مجبوراً على أن أبرر لهم ذلك أيضاً.

لكن عدم قدوم مكتوبٍ من ماريا رغم مرور خمسة عشر أو عشرون يوماً أوقعني في قلقٍ واضطرابٍ شديدين. ذهني الذي كان مستعداً دائماً للشكّ والوسوسة لفّني بآلاف الإحتمالات والوساوس. استمريت

في الإرسـال لهـا مـرةً بعد مـرة، وعندمـا لم أتلـقّ أي جـوابٍ وقعت في يـأسٍ محبـط. كانت الفترة ما بين رسـائلها قـد زادت تدريجيـاً من قبل، والصفحات أصبحت أقلّ امتلاءاً وفحوى. نشرت كل رسائلها أمامي وقرأتها واحدةً بعد أخرى. كان هناك في رسـائل الشـهور الأخيرة شيءٌ من الحيرة، وأشـياءٌ تحـاول التخفـي، وتعابيرٌ متهربةٌ وغامضةٌ لا تشـبه طبيعـة ماريا الواضحة والصريحة أبـداً. حتى إنني ترددت فيما إذا كانت تريـدني أن أدعوهـا للمجـيء بسرعـة، أو كانـت تخاف مـن أن أدعوها وبالتالي ستحزن، لأنها ستصبح في وضعٍ يجبرها على التراجع عن وعدها لي، كنت أفكر في كل ذلك. أصبحت الآن أستخرج من كل سطرٍ، وكل إفادةٍ نصف كاملة، وكل مزحةٍ معان وتأويلاتٍ كثيرة، وأتحول لمجنون. كل رسائلي ذهبت هباءً وكنت محقاً في كل مخاوفي.

لم أتلقـى مـن ماريا أي خبرٍ بعدها، ولم أسـمع باسـمها، حتـى... حتى الأمـس.. لكننا لم نصل إلى هنا بعد.. بعد شـهر، عادت إليّ كل رسـائلي وهـي ممهـورة بختم "تعاد إلى مرسـلها لعـدم قدوم أحدٍ لاسـتلامها". وقتهـا قطعـت أمـلي مـن كل شيء. والآن، عندمـا أفكـر بكيفية تغيري في ظـرف عـدة أيامٍ فقط فإني أتعجـب. ماكان يعطينـي الدافع لأتحرك، وأرى، وأسـمع، وأحس، وأفكر، ما كان باختصار يعطيني القدرة على العيش، كأني به انتُزع من داخلي، ولم تبق إلا رسابته.

في هذه المرة، لم يكن حالي كما كان في الأيام التي تلت ليلة رأس السنة.

في تلك الأيام لم أشعر باليأس وانقطاع الأمل أبداً، لم تترك عقلي فكرة أن أذهب إليها، وأشعر بالقرب منها، أتكلم معها، وأن أقنعها. لكني الآن عاجزٌ تماماً. المسـافة العظيمة التي بيننا كانت تقيد ذراعي. أقفل على نفسي في بيتي، أمشي من غرفةٍ إلى أخرى، أقرأ رسـائلها ورسـائلي المعـادة مـراتٍ ومـرات، أقـف عنـد النقـاط التـي لم ألحظها مـن قبل وأضحك بمرارة.

علاقتـي بأعمالي، بـل على العمـوم علاقتي بنفسي قلّـت فجأة، وصلت لدرجـة الصفـر. تركـت رجّ الزيتون، وجمعـه، والذهاب بـه إلى المصنع وإخـراج زيتـه لفـلانٍ وعـلان. أحياناً كنـت أفضّـل أن أنـزع أحذيتي الطويلـة وأخرج إلى الـبراري والحقول، وأتجول في أماكـنٍ لا أرى فيها وجه إنسـان، وفي منتصف الليل أعود فأسـتلقي عـلى فراشي وبعد عدة سـاعاتٍ أسـتيقظ في الصباح على شعورٍ مرٍ يسـألني: "لماذا مازلت حياً إلى الآن؟".

أيامـي الفارغة، وعديمة الهـدف والمنطق التي كانت قبل أن أتعرف على ماريـا، بدأت من جديد، رغم أن نسـختها الجديدة توجعني وتشـعرني بالكرب أكثر. بينهما كان هناك فرق. أخذ مكان جهلي الذي كان يجعلني أعتقـد بأن الحياة عبـارةٌ عنها، عذاب إدراكي بأن الحيـاة من الممكن أن تُعـاش بطرقٍ أخـرى كثيرة. لم أعـد واعياً بما يدور حولي. لم أعد أشـعر بإمكانية استمتاعي بأي شيء.

في مـدةٍ قصـيرة، أنقذتنـي تلـك المـرأة مـن حالتـي العاجزة والبائسـة، وعلمتنـي بكـوني رجـلاً، بل إنسـاناً، وبـأن في داخلي تتواجـد جوانبٌ مسـتعدةٌ للحياة، وبأن الحياة ليسـت سـخيفةً بالقدر الـذي يُقال عنها. لكني، وبمجرد خسـارتي للرابطـة بيني وبينها، وبمجـرد خروجي من تحـت تأثيرها، عـدت إلى حالتي القديمـة. فهمت الآن مقـدار حاجتي الشـديدة إليهـا. كنـت محتاجاً دائماً لسـندٍ مثلهـا، ومن دونـه فليس من الممكن لي أن أعيش. ورغم ذلك عشت، لكن النتيجة واضحة. إذا كان جائزاً القول عن هذا بأنه عيش، فقد عشت.

لم أحصـل من ماريا على خبر بعدها. في رسـالة صاحبة المهجع في برلين فرأو فان تيدمان أخبرتني بأنها لم تعد تسـكن قريباً منها، وبسـبب ذلك فإنها لن تستطيع أن تفيدني في هذا الموضوع. هل هناك أحدٌ آخر لأسأله؟ كانـت قد كتبت لي بأنهم بعدما عـادوا من براغ انتقلوا لمنزلٍ آخر، لكنها لا تعرف عنوانه. أصبت بالذهول عندما أدركت قلة عدد الناس الذين تعرفـت عليهـم في ألمانيا رغم مكوثي هناك مـدة عامين. لم أذهب لمكانٍ غـير برلـين، أعرف المدينـة من شـمالها وجنوبها إلى شـوارعها المغلقة. لم أتـرك متحفاً، معرضاً فنياً، حديقة حيوانات أو نباتاتٍ، غابةً أو بحيرةً لم أزرها. رغم ذلك فإني ومن بين الملايين الذين يعيشون في هذه المدينة، لم أتكلم إلا مع عدة أشخاص، وتعرفت على شخصٍ واحدٍ فقط.

ربما كان ذلك كافياً، فكلّ إنسان يكفيه إنسان واحدٌ على كل حال. لكن

عندمـا لايكـون موجوداً؟ عندما يُخرج كل شيءٍ نفسـه كخيـالٍ، كحلمٍ خـادعٍ ووهـم، فمالذي يمكـن أن يُفعل؟ هـذه المرة فقـدت قدرتي على الإيـمان والأمل، في داخلي نَمـت عدم ثقةٍ واطمئنانٍ لكل الناس ومرارةٌ لدرجـة أني أصبحـت بين حينٍ وآخر أخاف من ذلـك. ليكن من يكن، فأي إنسـان أحتك به فإني أشـعر به كعدو أو مخلوقٍ مضر. ورغم مرور السنوات، إلا أن هذا الشعور، وبدل أن يتلاشى ويضعف تدريجياً، فإنه اشـتدّ. فالشـك الذي كنت أشـعر به تجاه الناس تحول إلى درجة الحقد. هربت ممن حاولوا الإقتراب مني. أكثر من كنت أخشاهم هم من كانوا الأقرب مني، أو من ظننت بأني سأجدهم أقرب إلي. كنت أقول عن أي منهم: "حتى هو بعد أن فعل ما فعل!"، ماذا فعل، ذلك لم يكن معلوماً؛ ولهذا السبب في الأصل كانت مخيلتي تتوقف فوق أسوأ الظنون وتعطي أثقـل الأحـكام. هكـذا.. في لحظة فراق، فـإن أفضل حلٍّ لعـدم الوفاء بوعدٍ أُعطي بلهفةٍ وحماس، هو قطع العلاقة نهائياً وبلا نقاش. لا تؤخذ الرسـائل من مركز البريد، ولا يُبعث بجواب. فما كان يُظن بأنه موجود يختفـي في لحظة. من يدري أيّ مغامرةٍ جديدة، أيّ سـعادةٍ أقرب وأكثر منطقيـة فتحـت ذراعيهـا لها. تـرك كل هذا، وربـط طفلٍ سـاذج بوعدٍ لإدخـال البهجة على قلبه ثـم الدخول في حياةٍ جديدةٍ والقفز في مغامرةٍ لا يُعرف ما ستصل إليه ليس بشيءٍ قد يفكر به عقلها الرزين.

لكـن لمـاذا لا أسـتطيع التكيـف مع ما حصـل رغم تفكـيري وتحليلي

الدقيق له؟ لماذا أتردد من الخطو في كل طريقٍ جديدٍ تعرضه علي الحياة، وأسيء الظن بكل إنسان يحاول الإقتراب مني، وأقابله بقلق؟ كنت أحياناً أنسى نفسي لمدةٍ وأشعر بالقرب من إنسانٍ ما يشبهني في بعض الجوانب. لكن حكمي المخيف على الناس الذي عشش في رأسي كان سرعان ما يُظهر نفسه ويدعوني للحقيقة "لاتنسَ، لاتنسَ، لاتنسَ أنها كانت أقرب إليك... ورغم قربها منك إلا أنها فَعَلَت ما فعلت..". وفي كلّ مرةٍ يقترب مني أحدهم بمقدار خطوةٍ وأبدأ بالأمل أقول لنفسي: "لا، لا، هي اقتربت مني أكثر، إلى درجة أنه لم تعد بيننا أي مسافة.. لكن ومع ذلك، كانت النهاية!". عدم التصديق، وعدم القدرة على التصديق.. كنت أشعر بفظاعة ذلك في كل يومٍ وكل لحظة. وكل المحاولات للتخلص من هذا الشعور باءت بالفشل. تزوجت، في ذلك اليوم أدركت حقيقة أن زوجتي كانت أبعد عني من كل الناس. أصبح لي أطفال، وأحببتهم، رغم أنهم لن يستطيعوا أن يعوضوني عما فقدته أبداً.

لم أشعر بالإرتباط مع أعمالي أبداً. عملت كآلة من دون أن أعرف ماذا كنت أعمل. كنت أعرف بأنني أُخدع وأشعر بمتعةٍ في ذلك، عوملت من طرف أصهاري كأبله ولم ألق لهم بالاً. أخذت الديون وفوائضها وتكاليف الزواج ما تبقى في كفي من مال. لم تكن أشجار الزيتون تُكسِب شيئاً. ومن معهم مالٌ، اعتادوا على أخذ الأملاك التي تركها ممن

لم يكن معهم مال. الشجرة التي كانت تعطي محصولاً يساوي سبعة أو ثمانية ليرات في السنة لم تكن تجد من يشتريها. أصهاري، ولينقذوني من وضعي المتعسر ويحموا ثروة العائلة من التبدد فقط، دفعوا عني ديوني واشتروا مني أشجار الزيتون. لم يكن قد تبقى لي غير بيتٍ متهتك ذي أربعة عشرة غرفة وعدة قطعٍ من الأثاث.

كان والد زوجتي ما يزال في صحته ويعمل كموظفٍ في باليكسير، وعن طريق توصيته حصلت على وظيفةٍ في شركةٍ في مركز الولاية. بقيت فيها لسنوات، ومع تزايد احتياجات أسرتي كانت علاقتي بالحياة تتضاءل، واختفت جهودي التي كان عليّ أن أزيد منها. توفي أبو زوجتي فانتقلت مسؤولية أخت زوجتي وأبنائها إلي. لم يكن من الممكن أن تكفيني الأربعون ليرة التي أتقاضاها لأسد احتياجاتهم، فنقلني أحد أقارب زوجتي البعيدون إلى بنكٍ في أنقرة، البنك الذي أعمل به الآن. ولأني كنت أتقن أكثر من لغة، ورغم خجلي إلا أنه كان يأمل لي أن أترقّى بسرعة. لم يحدث ماتوقع أبداً. أينما وُجِدت، فبالنسبة لمن حولي كان وجودي دائماً مساوياً لعدمي. في كل مكان تخرج فرصٌ جديدة، وكان أناسٌ جديدون يعطونني آمالاً قصيرةً بأن أعيش تجربة بذل وتوزيع الحبّ الفائض الذي أجده في روحي من جديد. لكنني لم أستطع أن أخلّص نفسي من ذلك الشك. لم أثق في هذه الدنيا إلا بشخصٍ واحد، وثقت به لدرجة أن تعرضي للخيانة منه أفقدني القدرة

على الوثوق بغيره.

لست بحانقٍ عليها. كنت أشعر بأنني لا أستطيع أن أغضب أو أحنق عليها، أو أن أفكر بأفكارٍ سيئةٍ عنها. لكنني كُسِرت لمرة. وانكساري هذا الذي شعرت به أمام هذه الإنسانة التي وثقت بها أكثر من أي أحد، كان كأنه قد تفرّق على كل الناس؛ لأنها كانت تمثل لي كل الإنسانية.

ثم، وبعد أن رأيت أني ورغم مرور السنين إلا أني مازلت متعلقاً بها، أصبحت أشعر بانفعالٍ أكبر في نفسي. فهي ستكون قد نستني منذ زمنٍ طويل. من يعلم مع من تعيش الآن، ومع من تتنزه.

في أوقات العصر حين أستمع إلى ضجيج الأطفال، وأصوات وقع نعال زوجتي وجلبة الأطباق التي تغسلها في المطبخ، وشجارات أبناء أخت زوجتي، أطبق عينيّ وأتخيل مكان وجود ماريا. ربما وجدت عشيراً آخر تشاهد معه الأشجار ذات الأوراق الحمراء في حديقة النباتات، أو تشاهد لوحاتٍ خالدةٍ رُسمت بريشات فنانين كبار تحت أشعة الشمس التي تضرب بأشعتها على زجاج المعرض خفيف الإضاءة قبل الغروب.

في مساء أحد الأيام وأنا عائد إلى البيت مررت بالبقّال، واشتريت بعض الأغراض. وبينما أنا خارجٌ من الباب، صدح راديو أحد ساكني المنزل المقابل بأوبرا "أوبيرون" لـ"ويبر"، كادت الأغراض أن تقع من يدي. كانت هذه أحد عروض الأوبرا التي حضرناها سويةً، وأعرف أيضاً أنها كان لها مع ويبر موضوعٌ آخر، فقد كانت تصفّر معزوفته ونحن

نمشي في الطريق دائماً. شعرت بشوقٍ وحسرةٍ طازجةٍ وكأننا قد افترقنا البارحة. كل مرارات الحياة، وكل ما يخسر فيها من أشياء ثمينة وثروات، ينسى مع الزمن، إلا الفرص المفوّته فإنها لا تُنسى أبدًا، في كل مرة يتذكرها المرء فإن شيئاً بداخله يؤلمه. سبب ذلك على كل حال هو الاعتقاد بأنه كان من الممكن أن يكون الوضع مختلفاً، وإلا فالإنسان مستعد دائماً لتقبل ما يلقيه عليه القدر.

لم أشعر بعلاقةٍ تربط زوجتي، و أبنائي، أو الناس على العموم بي. لكني كنت أعرف أنه لم يكن من حقي أن أحصل عليها. الشعور الغريب الذي انتابني لأول مرةٍ في يوم رأس السنة الغريب بعدم أهميتي قد تمكن مني تماماً. ما أهميتي أنا لهؤلاء الناس؟ هل كانوا يتحملونني لأني أوفر لهم قروش الخبز؟ الناس لا يحتاجون للدعم المادي والمالي من بعضهم، بل للحب والإهتمام. وعندما لا يحصلون على ذلك، يصبح وصف الوظيفة الحقيقية لرب العائلة هو "إطعام ثلةٍ من الغرباء". أتعجّل وأشتاق من الآن إلى الوقت الذي ينتهي فيه ذلك ولا يصبحون فيه محتاجين إليّ بأي شكل. وتدريجياً، تحولت حياتي إلى عبارةٍ عن اشتياقٍ وانتظار لهذا اليوم الذي يبدو بعيداً. كأنني سجينٌ ينتظر إنتهاء اليوم. لم يعد للأيام قيمةٌ إلا أنها تقربني إلى هذا اليوم البعيد. كنبتةٍ أعيش بلا شكوى ولا شعورٍ ولا تحكم. مشاعري تدهورت تدريجياً. لم أعد أتأثر

بشيء، ولم أعد محبوباً من أي أحد.

لم يكن بإمكاني أن أغضب من الناس، لأن أغلى وأطيب وأكثر من أحببت من الناس أساءت إليّ أكبر إساءة، فهل من الممكن أن أتوقع خيراً من بقية الناس؟ لم يكن بالإمكان أن أقترب من الناس وأحبهم أيضاً، لأنني تعرضت للخيانة من أكثر إنسانةٍ وثقت وآمنت بها. فهل أستطيع أن آمن على نفسي من البقية؟

وهكذا ستمر الأعوام على كل حال، وسيأتي اليوم الذي انتظره وكل شيءٍ سيؤول إلى نهايته. لا أريد أي شيءٍ آخر، فالحياة لعبت معي لعبةً قذرة. حسناً، هكذا، لا ألوم نفسي ولا الآخرين، أتقبل كل مايحدث كما هو وأتحمل بصمت، لكن ليس هناك لزومٌ لأن يذهب هذا ويمضي. أشعر بالضجر، أشعر بالضجر فقط. وليس لي شكوى آخرى.

في أحد الأيام.. أعني الأمس، يوم السبت، عدت إلى البيت في وقت الظهيرة وخلعت ملابسي. طلبت مني زوجتي شراء بعض الأغراض: "ستكون الأسواق مغلقةً غداً، أتعب نفسك مسافة السوق!". ارتديت ملابسي وأنا غير راغبٍ في الذهاب. مشيت حتى وصلت إلى السوق. كان الجو حاراً جداً. الشوارع كانت ملأى بمن يتجولون بلا غايةٍ وبمن يبحثون عن هواءٍ باردٍ في مثل هذا المساء المغبر، وأنا وبعدما أنهيت تبضعي حشرت ما اشتريته في كيس ثم تأبطته ومشيت بإتجاه التمثال. لم أسلك نفس طرق البيت المعوجة، أردت أن أمشي من الطريق المسفلت،

ولو على حساب طول المسافة. أحد الساعات الكبيرة المعلقة أمام أحد الدكاكين كانت تشير إلى السادسة. وبغتةً شعرت بأحدٍ يمسك بذراعي. صرخ صوت امرأةٌ في أعماق أذني:

- "هير رائف!"

ذهلت من طريقة الخطاب الألمانية هذه. كدت أن أستخلص ذراعي من يدها وأهرب. أمسكت بي المرأة بإحكام، كانت تقول بصوتٍ مرتفعٍ جذب أنظار الشبان لنا:

- "لا، لست مخطئة، انتم حقاً هير رائف! ياه، كم يتغير الإنسان!"

رفعت رأسي ببطئ. ومن دون أن أرى وجهها حتى، عرفت من تكون من جسدها الضخم. حتى صوتها لم يتغير أبداً، قلت:

- "أوه، فراو فان تيدمان. من كان يتوقع أني سأراك في أنقرة؟"

- "لا، لم أعد فراو فان تيدمان. ضحيت بلقب "فان" من أجل زوج. اصبح اسمي فراو دوبكه، لكنني لست متضررة!"

- " مبروك! يعني هذا أنك..."

- "نعم صحيح، كما حزرتم. بعد أن رجعتم لبلادك بمدةٍ قصيرة، تركنا نحن المهجع أيضاً، وذهبنا إلى براغ سوياً."

بمجرد سماعي لكلمة براغ شعرت برعدةٍ تسري في جسدي، لم يصبح بمقدوري أن أمسك نفسي عن فتح الموضوع الذي فكرت فيه قبل قليل. لكن لأي سببٍ وبأي صفةٍ كنت سأسأل؟ فلم تكن تعرف بعلاقتنا أنا

وماريا، بماذا ستفسر سؤالي؟ ألن تسألني من أين أعرفها؟ ثم الأشياء التي ستقولها.. أليس من الأفضل أن لا أعلمها أبداً؟ مالفائدة المرجوة من علمي وقد مرّ على الحادثة سنوات - عشر سنواتٍ تماماً، بل أكثر بقليلٍ حتى -؟

انتبهت بأننا مازلنا واقفين في منتصف الشارع فقلت:

- "تعالي لنجلس في مكانٍ ما، فلدينا ما سنسأل عنه بعضنا. مازلت أتعجب من رؤيتي لك في أنقرة!"

- "نعم، من الجيد لو نجلس في مكانٍ ما، لكن موعد قطارنا يقترب، بقي أقل من ساعة.. أخاف أن نفوّته.. لو كنت أعلم بوجودك في أنقرة لكنت أخبرتك بالطبع. أتينا مساء البارحة، وسنغادر مساء اليوم..."

بجانب المرأة، لم ألحظ وجود طفلة هادئةٍ بعمر ثمانية أو تسع سنوات، وجهها أصفر شاحب.

ضحكت قائلاً:

- "وهذه بنتكم؟"

- "لا.. قريبتي! ابني على وشك نيل شهادة البكالوريوس في الحقوق!"

- "هل مازلتم توصونه بقراءة كتبٍ معينة؟"

لم تستطع التذكر للحظة، ثم ضحكت قائلة:

- "نعم، معك حق، لكنه الآن لا يستمع إلى توصياتي. لقد كبر الآن. كان عمره في الثانية عشرة وقتها... يا الله، السنوات تمضي بسرعة!"

- "صحيح.. لكنك لم تتغيري أبداً!"

«ولاأنت!»

تذكرت قبل قليل أنها كانت مجاملةً فلم أرد عليها.

مشـينا باتجاه المحطة. احترت كيف أبدأ بالسـؤال عـن ماريا بودر، كان عقلي يتجول بين مواضيعٍ سخيفةٍ وليس لي علاقةٌ بها.

- "لم تخبروني عن سبب قدومك لأنقرة بعد!"

- "أها، صحيح، حسـناً سـأخبركم. نحن لم نأت إلى أنقرة، بل عائدون إلى ديارنا. مررنا بها فقط."

وافقت على الجلوس قليلاً عند بائع ليمونٍ وأكملت حكايتها هناك:

- "زوجي الآن في بغداد. كما تعلمون، فهو تاجر مستعمرات!"

- "لكن بغداد ليست مستعمرةً ألمانيةً كما أذكر!"

- "أعلم ياعزيـزي. لكن زوجي متخصصٌ في محاصيل المناطق الحارة، هو الآن يتاجر بتمر بغداد!"

- "وهل كان يتاجر بالتمور في الكاميرون أيضاً؟"

نظرت إليّ المرأة نظرةً تقول « يالك من متطفل»، ثم قالت:

- "لا أعلـم، ابعـث له برسـالة واسـأله! فالنسـاء لا يتدخلـن في أمور التجارة!"

- "والآن إلى أين تذهبون؟"

- "إلى برلـين. منهـا أزور بلـدي، ومنهـا.."، ثـم أشـارت إلى الطفلـة

بجانبها:

- "مـن أجل هـذه الطفلة أيضاً. لأنهـا نحيلةٌ فقد أمضت الشـتاء معنا، والآن نحن نعيدها."

- "معنى هذا أنكم تترددون على برلين كثيراً!"

- "مرتان في العام!"

- "أرجو أن أعمال هير دوبكه تمضي على مايرام على أية حال!"

ضحكت ومالت إلى الخلف قليلاً.

مازلت لا أسـتطيع سؤالها. الآن عرفت لم كل هذا التردد، لم يكن بسبب عـدم معرفتي كيف أبدأ بالسـؤال، بل بخوفي مما سـأتلقاه من إجابات. لكـن ألم يكن كل شيءٍ عندي مسـاوياً لبعضـه؟ فليس بداخلي أي حسٍ حـي. لماذا خفت؟ قد تكون ماريا وجدت لنفسـها هير دوبكه آخر هي الأخرى أيضاً، ربما ما زالت عزباء تركض من رجلٍ إلى رجلٍ باحثةً عن رجلٍ "تثق فيه"، ستكون قد نسيت تفاصيل وجهي على أية حال.

عندمـا فكرت بذلك لاحظت بأني أنا أيضاً لم أعد أسـتطع تذكر ملامح وجهها، ولأول مرةٍ منذ سـنواتٍ تذكرت بأني لم أترك لي صورةً عندها، ولا هي تركت صورةً لها عندي. وقعت في ذهول. كيف لم نفكر في ذلك لما اقترب فراقنا؟ لنفترض أننا كنا نتوقع بأننا سـنتقابل بعد مرةٍ قصيرة، ووثقنـا بذاكرتنـا، لكن ماذا أقول عن وعيـي بذلك الآن فقط؟ لو كنت أعلم، ألم أكن سأشعر بحاجة النظر إلى وجهها أمام عينيّ؟

أذكر أني في الشهور الأولى كنت أحتفظ بكل خطوط وجهها في ذاكرتي، وفي كل لحظـةٍ كنت أسـتطيع إحيـاء صورتها أمامي بلا عنـاء، لاحقاً.. وعندمـا فهمـت بـأن كل شيءٍ قد انتهـى، هربت من رؤيـة وتخيل هذه الصـورة دائماً. كنت أعرف بأني لن أسـتطيع تحمل ذلك. وجهها، وجه مادونـا صاحبة معطف الفـرو، رغم وجوده في مخيلتي فقط، إلا أنه كان مؤثراً وقوياً لدرجةٍ تفقدني كل توازني.

الآن وعندمـا أردت إنعاش الذكريات والأيام القديمة، ورغم أني أعلم بأني لن أشعر بأي تأثر، بحثت عن وجهها، لكني لم أجده.. وليس لدي صورةٌ لها حتى.

مالزوم ذلك؟

نظرت فرأو دوبكه إلى ساعتها ونهضت. مشينا سوية إلى المحطة.

كان انطباع المرأة عن أنقرة وتركيا جيداً جداً، فقد قالت:

- "لم أر موطنـاً يُحـترم فيـه الأجنبي بهذا القدر! حتى سـويسرا ليسـت كذلك، رغم أنها مدينة برفاهيتها للسـياح. ينظر المواطنون إلى الأجانب وكأنهـم دخلـوا عليهـم بيوتهم عنوة. بينـما في تركيا، الـكل وكأنه ينتظر فرصةً حتى يفعل لأجنبيٍ معروفاً، ثم فإني قد أعجبت بأنقرة جداً!"

كانـت المـرأة الكبـيرة تتكلـم. والطفلة كانت تسـبقنا بخمـس أو عشر خطوات، ثم تلمس الأشـجار التي كانت على أطراف الطريق. وعندما اقتربنـا من المحطـة، وبقرارٍ أخـير، لكن وبمحأولة أن أبـدو وكأني غير

مكترث قدر الإمكان، بدأت بالكلام:

- "هل أقربائك في برلين كثيرون؟"

- "لا، ليسـو كثر. أنا في الأصل من براغ، إحدى مدن التشيك. زوجي الأول كان هولندياً.. لماذا تسألون؟"

- "بينما كنت هناك، رأيت امرأةً يقال بأنها قريبتك."

- "أين؟"

- "في برلين. قابلتها صدفةً في معرض لوحات، على الأغلب أنها كانت رسامة."

تذكرت فجأة:

- " حسناً.. ثم؟"

قلت بتردد:

- "ثم.. لا أدري أتكلمنا مرةً أم مرتين، كانت لها لوحةٌ جميلة.."

- "أتذكر اسمها؟"

- "عـلى الأغلب أنه كان بودر. نعم صحيـح، ماريا بودر! كان توقيعها تحت لوحتها، وفي الألبوم كان مكتوباً أيضاَ."

لم تجب المرأة. استجمعت نفسي من جديد:

"أتعرفينها؟"

- "نعم، لأي سببٍ أخبرتك بأنها قريبتي؟"

- "لا أدري. على الأغلب أني تحدثت عن المهجع الذي كنت أسكن فيه

فقالت لي بأن لها قريبةً هناك، أو شيئاً آخر، لا أستطيع التذكر الآن طبعاً. نتكلم عن عشر سنوات!"

- "صحيح، ليس بزمنٍ قصير. أخبرتني أمها بأنه كان لماريا صديقٌ تركيٌ مقرب، وبأنها تحدثت عنه ليومٍ كامل، فاعتراني الفضول إذا ما كنت أنت ذلك التركي. لكن أليس ذلك بغريب؟ فالمرأة لم ترى التركي الذي كانت ابنتها معجبةً به ولو لمرةٍ واحدة. كانت قد ذهبت إلى براغ في تلك السنة، لم تعلم عن رحيل الطالب التركي عن برلين إلا من ابنتها هناك!"

وصلنا إلى المحطة. مشت فراو باتجاه القطار. كنت خائفاً من أن الموضوع إذا تغير فإنني لن أستطيع العودة إليه ولن أستطيع معرفة ما أريد معرفته. ولذلك نظرت إلى عينيها باهتمامٍ كأنني أنتظر منها أن تكمل حديثها.

بعد أن صرفت فراو نادل الفندق الذي وضع لها أمتعتها في المقصورة، عادت إلي:

- "لماذا تسأل؟ قلت لي بأن معرفتك بها كانت سطحية!"

- "صحيح، لكنها تركت أثراً كبيراً علي. فلوحتها أعجبتني جداً."

- "كانت رسامةً جيدة!"

سألت بقلقٍ ظهر في داخلي فجأةً، قلقٌ لم أعرف ماهيته:

- "هل قلت بأنها كانت رسامة؟ ألم تعد كذلك؟"

المرأة، تلفتت حولها، واستدعت الطفلة، وعندما رأتها قد دخلت إلى المقصورة، حولت رأسها إليّ مجدداً:

- "طبعاً لا.."، قالت واستطردت :"لأنها قد توفيت!"
- "ماذا؟"
إنتبهْتُ بأن هذه الكلمة قد خرجت من جوفي كصرخة. حول من كانوا بالقرب منا أنظارهم إلينا، وأخرجت الطفلة التي كانت في المقصورة رأسها من النافذة ونظرت إلي بتعجب.
تجولت عينا المرأة فوقي بانتباه:
- "لماذا تفاجأت لهذه الدرجة؟ لماذا اصفرّ وجهك؟ ألم تخبرني بأن معرفتكم سطحية؟"
- "مهما كان، فهو موتٌ غير متوقعٍ أبداً!"
- "صحيح، لكنه ليس بشيءٍ جديد. ربما مرت عشر سنوات."
- "عشر سنوات؟ غير ممكن..."
بعد ان حدقت فيّ المرأة من جديد، سحبتني إلى ركن:
- " أرى أن موت ماريا بودر يعنيك. دعني أحكي لك كل شيءٍ باختصار، بعد أن رجعت أنت إلى تركيا بأسبوعين، رحلنا أنا وهير دوبكه أيضاً. ذهبنا إلى صاحب مزرعةٍ قريبٍ لنا في جوار براغ. هناك صادفنا أم ماريا بودر. لم تكن علاقتي بأمها جيدة، لكننا وقتها لم نلتفت لذلك. ماريا كانت نحيلةً وواهنةً جداً، قالت بأنها مرضت بمرض خطير في برلين. بعد مدة، عادوا مجدداً إلى برلين. كانت البنت قد استعادت صحتها جيداً. نحن أيضاً رحلنا. ذهبنا إلى موطن زوجي

الأصلي شرق بروسيا. وعندما عدنا إلى برلين في الشتاء سمعنا بخبر وفاتها في شهر تشرين الأول. نسيت خصومتنا طبعاً واتصلت بأمها فوراً. كانت محطمةً وحزينةً جداً، كأنها في الستين من عمرها، رغم أنها كانت في الأربعينات. وعلى حسب ما قالت لنا، فإن ماريا وبعد أن عادوا إلى برلين، شعرت ببعض التغيرات على نفسها، ذهبت إلى الطبيب، وأُخبرت بأنها حامل. في البداية سُرّت بالخبر أشد السرور، لكن ورغم كل إلحاحات أمها إلا أنها لم تخبرها بهوية الأب. كانت تقول لها دائماً: "ستعرفين لاحقاً!" وتتحدث عن سفر قريب تنويه. ومع تقدم شهور الحمل بدأت صحتها بالإعتلال من جديد. أخبرها الأطباء بأن ولادتها ستكون خطيرة، وأرادوا التدخل رغم أنها في شهور حملها الأخيرة، لكن ماريا لم تقبل بأن يُمسّ الجنين إطلاقاً. بعدها تدهورت حالتها فجأة ونُوّمت في المستشفى. هبوطٌ في الزلال على الأغلب. في البداية هز المرض جسدها، وقبل الولادة فقدت وعيها لعدة مرات، فتدخل الأطباء وأنقذو حياة الجنين. ورغم ذلك فإن النوبات لم تترك ماريا، وبعد أسبوع دخلت في موتٍ سريري. لم تستطع قول شيء. لم تكن تتوقع موتها أبداً. حتى في آخر الدقائق كانت تقول لأمها أشياء من قبيل: "ستفاجئين عندما تعرفين؛ لكنك ستسرّين أيضاً!" ولا تعطيها اسم الأب. تذكر أمها أن ابنتها، وقبل أن تذهب إلى براغ، كانت تحدثها عن رجلٍ تركيٍّ كثيراً، لكنها لم تر وجهه ولم تعرف اسمه. بقيت الطفلة

في المستشـفيات ودور العناية حتى عمر أربع سنوات، ثم أخذتها جدتها لجانبها. كانت طفلةً واهنةً وهادئة، لكنها لطيفةٌ جداً.. ألا تعتقد ذلك؟"

شـعرت بضعفٍ مفاجئٍ كاد أن يسـقطني. رأسي كان يدور، رغم ذلك كنت أقف منتصباً على قدميّ وأبتسم:

- "هذه البنت؟"، سألت وأشرت إلى الطفلة التي كانت في المقصورة.

- "نعـم، طفلةٌ حلوة أليس كذلك؟ يالها من فتاةٍ مؤدبةٍ وسـاكنة!.. من يدري كم تتوق جدتها لرؤيتها!"

كانت المرأة تنظر إلى وجهي وهي تتكلم، وفي عينيها مايشبه وميض المكر. كان القطار على وشك المغادرة. صعدت إلى المقصورة.

وبعـد قليـل، كانـت الإثنتان تظهـران جالسـتين جنبـاً إلى جنب خلف النافـذة. كانت الطفلة تنظر إلى المحطة وأحياناً إليّ بابتسـامةٍ غير مبالية، ولم تفلتنـي المرأة مـن خناق نظراتها. تحـرك القطار. لوحـت لهم بيدي. لاحظت ضحكة فراو دوبكه الماكرة.سُحِبَت الطفلة إلى الداخل.

كل هـذا حدث البارحـة. بينها وبـين كتابتي لهذه السـطور حوالي أربع وعشرين ساعة.

ليلة البارحة لم أستطع النوم ولو لثانية. تقلبت في فراشي يمنةً ويسرةً مفكراً في الطفلة، كأني أرى رأسها وهو يتحرك مع اهتزاز المقصورة. طفلةٌ بشعرٍ غزير.. لم أكن أعرف لا لون عينيها ولا شـعرها، ولا حتى اسـمها. غفلت عـن ذلـك. رغم أنها كانت تمشي بجانبنـا وعلى بعد خطوةٍ منـي إلا أني لم

أهتم بالنظر لوجهها ولو لمرة. حتى عندما ودعتهم لم أصافحها. لاشيء، يا إلهي، لا أعلم أي شيءٍ عن إبنتي أنا. من المؤكد أن المرأة شعرت بشيءٍ ما. لماذا نظرت إلي بتلك النظرة الماكرة؟ أعتقد أنها خمنت شيئاً على كل حال، وأخذت الطفلة ورحلت. والآن هم في الطريق. رأس طفلتي النائمة يهتز بينما القطار يقفز من قضيبٍ حديديٍّ إلى آخر.

غصت بالتفكير في كل هذا عميقاً. لكنني في النهاية لم أستطع التحمل، وتشكَّل الوجه الذي أردت إبعاده عن تفكيري، تدريجيا، أمامي: ماريا بودر، مادوناتي صاحبة معطف الفرو، تقف مقابلي وفي طرف شفتيها انعطافٌ بسيطٌ، وفي عينيها السوداوين نظراتٌ عميقة. لم يكن في وجهها غضبٌ أو عتب، ربما بعض الحيرة فقط. لكن وفوق ذلك، كانت تنظر إليّ بشفقةٍ ومودة. بينما أنا لم تكن لدي الجرأة لأنظر إلى عينيها. عشر سنوات، عشر سنواتٍ بالتمام، وبكل بؤس نفسي وانكسارها، غضبت على ميتة، ولمتها. أكان من الممكن أن أسيء لذكراها أكثر من مما فعلت؟ أساس حياتي، وغايتها، وسببها، شككت بها ومن دون أي تردد، من دون أن أفكر بأني قد أكون ظلمتها. راودتني بحقها أسوأ احتمالاتٍ تطرأ على عقل، ولم أتوقف ولو لمرةٍ وأقل لنفسي أنه ربما كان هناك سببٌ لفعلها ذلك وتركها لي. بينما في الحقيقة، فإن أكبر الأسباب وأقواها هو الموت. كدت أجنّ من خزيي. يلفني شعورٌ أحمله مقابل ميت، شعور حزنٍ وندمٍ عديم الفائدة. سأقضي ما تبقى من عمري جاثياً على ركبتي،

محاولاً التكفير عما ارتكبته بحقها من جرم. أشعر بأني لن أنجح في ذلك حتى، وبأني لن أُسامَح أبداً، لأنني اتهمت أكثر إنسانةٍ براءةً بأكبر ذنب، ذنب خذلان قلب إنسان وتركه وحيداً.

قبل عدة ساعات اعتقدت بأنني لن أستطع تذكر وجهها لعدم وجود صورةٍ لها لدي.

لكن في هذه اللحظة، أراها حيةً أكثر مما كانت في حياتها. كما في اللوحة تماماً، حزينة بعض الشيء، ومستغنية. وجهها أكثر شحوباً، وعيناها أكثر سواداً. شفتها السفلى تبرز باتجاهي، وفمها على وشك أن يقول: "آه، يا رائف!". كانت حيةً أكثر من أي زمانٍ مضى. معنى ذلك أنها ماتت قبل عشر سنوات! ماتت وأنا أنتظرها، وأنا أهيئ بيتي لاستقبالها. من دون أن تخبر أحداً، ولكي لا تجعلني أغرق في المستحيلات، ولكي لا تسلمني للقلق، أخذت سرّها معها وماتت.

الآن أفهم سبب الحدة التي شعرت بها تجاهها، وسبب شعوري بانحباسي داخل سورٍ لا يمكن تخطيه قبل عشر سنين. عشر سنوات، استمريت في حبها، حباً لم ينقص أبداً. لم أسمح لأي أحد عداها بالدخول إلى قلبي، لكنني الآن أحبها أكثر من أي وقتٍ مضى. أريد مد ذراعيّ إلى خيالها أمامي، وأمسك بيديها وأدفئهما من جديد. حياتنا التي عشناها سويا، فترة أربع أو خمسة أشهر، أراها بكل تفاصيلها أمام عيني. أتذكر كل نقطةٍ، وكل كلمةٍ دارت بيننا. بدايةً من رؤيتي للوحتها في المعرض، إلى

استماعي لغنائها في الأتلانتيك، إلى وقوفها بجانبي، ونزهات حديقة النباتات، وجلساتنا أمام النافذة في الغرفة، وفترة مرضها، أعيشها كلها من جديد. هذه الذكريات، والتي تكفي لملئ حياةٍ كاملة، كانت حيةً ومؤثرةً أكثر مما كانت عليه في الحقيقة لأنها ضُغطت في مدةٍ بسيطة. تُظهر لي هذه الذكريات الآن كيف أني لم أكن أعيش منذ عشر سنوات؛ وبأن كل حركاتي، وأفكاري، وأحاسيسي بعيدةٌ عني كما لو أنها تخصَ أحد الغرباء. في الأصل "أنا" في عمري الذي يقارب خمسة وثلاثين سنة، لم أعش أكثر من أربع أو خمس شهور، بعدها دُفِنْت في أعماق شخصيتي عديمة المعنى والارتباط بي.

مساء البارحة، أدركت بعد رؤية وجه ماريا أمامي بأن حملي لهذا الجسد وهذا الرأس الذي لم يعد له صلةٌ بي سيغدوا أمراً شاقاً. سأطعمهما كما أطعم شخصاً لا أعرفه، وأسوقهما من مكانٍ لآخر، وأتفرج عليهما برأفةٍ واستخفافٍ دائماً. في مساء البارحة فهمت بأني وبعد أن خرجت تلك المرأة من حياتي، فقد كل شيءٍ حقيقته، فأنا كنت قد متّ بينما كنت معها، بل ربما قبل ذلك بكثير.

"شعب البيت" خرجوا مبكراً اليوم إلى التنزه، تذرعت أنا بسوء مزاجي حتى لا أذهب. منذ الصباح وأنا أكتب، بدأ المساء بالحلول ولم يعودوا بعد، لكنهم سيأتون بعد قليلٍ وهم يتضاحكون ويتصارخون. ما كانت علاقتي بهم؟ مافائدة الروابط إذا لم تتآلف الأرواح؟ لم أقل كلمةً لأحدٍ

منذ سنوات، رغم أني أحتاج للتحدث لدرجة كبيرة. بم يفرق خنق كل شيءٍ بداخلك عن أن تُدفن حياً؟ آه يا ماريا، لماذا كنا نجلس عند النافذة ولا نتكلم؟ لماذا كنا لا نستمع إلى تخاطب أرواحنا ونحن نمشي صامتين جنباً إلى جنب في أمسيات الخريف العاصفة؟ لماذا أنت لستِ بجانبي؟ لمدة عشر سنوات هربت من الناس بلا سبب، وظلمتهم بعدم ثقتي بهم. لو أنني بحثت فلربما وجدت أحداً مثلك. لو أنني عرفت ماحدث في ذلك الوقت، لربما اعتدت مع الوقت، وجهدت للبحث عنك في أناسٍ آخرين، لكن كل شيءٍ انتهى الآن. أنا في الواقع، وبعد ما ظلمتك هذا الظلم الكبير الذي لا يغتفر، فإني لا أريد إصلاح أي شيء. ظلمت كل الناس واتهمتهم استناداً إلى حكمٍ خاطئٍ أصدرته بحقك، فهربت منهم. اليوم أفهم الحقيقة، لكنني مُجبرٌ على أحبس نَفَسي في وحدةٍ أبدية. فالحياة ليست إلا مقامرةً تُلعب لمرةٍ واحدة، وأنا خسرتها. ليس لي أن ألعب جولةً أخرى. من الآن وصاعداً ستبدأ حياةٌ أسوأ من حياتي السابقة. ومن جديد، سأذهب للتبضع في المساء كآلةٍ كل يوم. سأقابل أناساً لا أكترث بمن يكونون، وسأستمع إلى كلامهم. هل بإمكان حياتي أن تكون مختلفةً عن ذلك؟ لا أظن. فلو لم تخرجك الصدف في طريقي، لكنت قد عشت حياتي، ولكن من دون أن أكون واعياً بشيء. أنت علمتني أن هناك في هذه الدنيا حياةً أخرى مختلفة، علمتني بأن لي روحاً. ليتك استمريتِ في ذلك، أنا لا ألومك، فأنا في الحقيقة أشكرك

على وهبك لي إمكانية العيش في عدة أشهر. ألم تكن تلك الأشهر، بقيمة عـدة أعمار؟ والجزء الذي تركتيه منكِ خلفـك، ابنتنا، تتجول على وجه هذه البسـيطة غير داريـةٍ بوجود أبٍ لها. تقاطعت طرقنـا مرة. لكنني لا أعرف أي شيءٍ عنها. لا اسـمها، ولا مكانها. رغم هذا، إلا أني سـأظل ألاحقهـا في خيـالي. سـأمشي بجانبهـا في خيالي وأشـاهد حياتها تسـير. سـأملأ وحدة سـنواتي المقبلة متخيلاً إياها وهـي تكبر، وهي تذهب إلى المدرسة، وهي تضحك وكيف تفكر. في الخارج جلبةٌ قادمة. يبدوا أنهم قد عادوا. أريد أن أكتب وأكتب. لكن ما الفائدة؟ كتبت كل هذا، فماذا تغير؟ عليّ أن أشتري لإبنتي دفتراً جديداً في الغد وأخبئ عنها هذا.

* * *

انتهـى دفتر رائف أفنـدي هنا. لم يكن في الصفحات المتبقية أي ملاحظة أو كتابة، كما لو أن روحه التي خبأها بتوجسٍ كبير لم يسـمح بخروجها إلّا مـرةً واحـدةً على هـذه الأوراق، فانكفأ على نفسـه بعدها من جديدٍ وصمت لسنوات.

حـل الصباح. ولكي أوفي بوعـدي وضعت الدفتر في جيبي وذهبت إلى بيت المريـض، وعندما فُتِح الباب كان الجزع الذي قوبلت به وأصوات البكاءِ التي أتت من الداخل قد أفهمتني ماحدث. توقفت واجماً للحظةٍ لا أدري مـاذا أفعـل، لم أرد أن أذهـب قبـل أن ألقي عليه نظـرةً أخيرة،

لكننــي أحسســت بأنني لن أتحمــل ذلك، وبأنني لن أســتطيع، وبعد أن شــاهدت في ليلةٍ واحدة، بل وعشــت معه أكثر جوانب حياته حياةً، لن أســتطيع أن أتحمل رؤيته وقد أصبح جثةً هامدة، فســحبت نفسي ببطءٍ إلى الخارج. لم يؤثر فيّ موت رائف أفندي كثيراً. فلم أكن أشــعر بأني قد فقدته، بل بأني وجدته.

قــال لي مســاء البارحة: "لم نجلس معكم ونتكلــم!". أنا لا أفكر كذلك الآن. فليلــة البارحــة تكلمت معه طويلاً، أكثر من أي وقت. هو، وبينما كان يفارق هذه الدنيا، كان أيضاً يلج إلى حياتي مفعماً بالحياة أكثر من أي إنسان آخر. سأجده من بعد هذا اليوم دوماً بجانبي.

جلســت على مكتب رائف أفندي الفارغ في الشركة، وضعت الدفتر ذو الغلاف الأسود أمامي وبدأت قراءته من جديد.

تشرين الثاني 1940 - شباط 1941

* * *

«لماذا أحببنا مادونا»

بقلم: سافان غل سونماز

نحن أمام كتاب ينظر إليه الجميع بذهول. القرّاء، وعشاق الأدب وبالطبع كل دور النشر وباعة الكتب. «مادونا، صاحبة معطف الفرو». رواية صباح الدين علي التي نشرها قبل سبعين عاماً، لماذا لا تنزل من أعلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً إلى الآن؟ لو أراد أحدٌ أن يقنعنا بأن تركيا ترد الجميل لصباح الدين علي فإن كلامه هذا باطلٌ لأن المرتكب المجهول لجريمة قتله لم يُدن إلى الآن. وحتى لو قلنا بأن السبب هو أن حكايته (يوسف) مصنفةٌ ضمن أفضل مئة أثر أدبي كلاسيكي وتُدرس في المدارس، فإن ذلك أيضاً غير مقنع.

فهل من الممكن فهم سبب كون روايته (مادونا صاحبة معطف الفرو) محبوبة إلى تلك الدرجة؟

يقول أكثر من قرأوا الكتاب بأنهم وجدوا موضوع الرواية مؤثراً جداً، وبأنهم بدأو في قراءته بناءً على توصيةٍ من أحد أصدقائهم، ولم يستطيعوا ترك الكتاب بعدها.

كون لغة الكتاب سهلةٌ وسلسة هو بالتأكيد أحد أكبر الأسباب التي تجعل القارئ يكمل القراءة، ولكنني عندما أسأل «لماذا نحب هذا

الكتاب؟» فإن كثيراً من الذين أسألهم يجيبونني بأنهم تأثروا جداً مما رُوي فيه، ويتنهدون وهم يخبرونني بأنه «للأسف لا توجدُ قصص حب مثل هذه في زماننا هذا» . وهذا نسجله كأحد الأسباب.

ماذا حصل منذ عام 1943 إلى عام 2013؟

نُشرت الرواية مفرقةً على 48 جزءاً في صحيفة الحقيقة على الفترة الواقعة بين 18 ديسمبر 1940 و 8 فبراير 1941 تحت اسم «حكايةٌ كبيرة». بدأ صباح الدين علي في كتابتها وهو في خدمته العسكرية الثانية في خيمةٍ بمنطقة بويوكدره وأرسلها أولا بأول إلى الصحيفة، وفي أيام كتابته للرواية سقط من حصانٍ وكُسرت ذراعه اليمنى، بعدها أصبح ينقع ذراعه في ماءٍ دافيءٍ ثم يكمل الكتابة.

عندما نأتي إلى عنوان الكتاب، فكر الأديب جودت قدرت بأن يسميه «الرجل عديم الفائدة» لكن لم يعجبه الاسم كفايةً فتراجع عنه. بينما قال مصطفى بيرتيف بأن صباح الدين صنف الكتاب كحكاية في البداية وأعطاها عنوان (ثمانية وعشرون) ثم عرض الصفحة الأولى على مصطفى وأخبره بأنه اختار العنوان ثمانية وعشرون لأن بطلة الحكاية كانت في عمرها الثامن والعشرين عندما تعرف عليها.

من هي صاحبة معطف الفرو هذه؟

لقد قيل عن هوية مادونا صاحبة معطف الفرو الكثير. فبينما كان صديق صباح الدين موفق شرف يقول بأن المرأة كانت أحد عازفات الأوكسترا في أحد كازينوهات تقسيم، كان سوقي سانلي يدعي بأنها فتاةٌ وقع في حبها صباح الدين.وهو شاب.

في الحقيقـة، فـإن صباح الديـن علي، كان قد تحدث عـن بطلة الرواية في أحـد رسـائله إلى عائشـة صدقي في تمـوز عام 1933 بوضـوح: «كنت عاشـقاً لامـرأةٍ في ألمانيـا اسـمها فروليان بـودر. (تُعرف هـذه المرأة بين أصدقائي باسـم 28) كانت قد مثلت في فلم (المغني المجنون) المشـهور في ذلـك الوقت، وقتها كانت أغنية sonny boy على ألسـنة الجميع. الآن وعندما أهمهم بتلك الأغنية أتذكر ذهابي مع 28 إلى المتاحف ودور السينما في أيام تشريـن أول الضبابية والممطرة. كنـت ونحن في الطريق أسرح في تأمـل وجههـا فـلا أرى طريقي، هـي أيضاً كانت تهزّ رأسـها نحوي بابتسـامةٍ خفيفةٍ تريد أن تفهمني بأنها تعذرني فيما أفعله. بين كل من عشـقتهن، لم تعاملني احداهن بقدر ما عاملتني هي بطيبها ولطفها. ورغـم أنها لم تجعلني أشـم رائحة طـرف اصبعها حتـى، إلا أنها لم تكن تحزنني، وكانت تعرف كيف تحافظ على المسـافة التي كانت بيننا كما هي دون أن تتسع أو تضيق...»

نُشرت الرواية أول مرةٍ ككتاب في عام 1943 بواسطة دار رمزي للنشر. كان أول ناقد لها هو الشـاعر ناظم حكمت وفي مايو 1934 أرسـل من سجنه الذي كان محبوساً فيه هذا النقد التالي بحق الرواية:

" مادونـا صاحبـة معطف الفرو، هذا الكتـاب أحببته، وغضبت منه. لأشرح لكم أولاً سـبب غضبي. القسـم الأول مـن الكتاب رائع جدا. فهـذا القسـم وبطريقتـه الخاصـة كان عـلى وشـك أن يتوسـع في تحليل الوجـه الخفـي لعائلـةٍ بورجوازيـةٍ جديـدةٍ بطريقـةٍ عظيمـة لدرجة أن الإنسـان عندما ينتقل إلى القسـم الثاني، ورغماً عنه، سيقول يا للأسف،

فهـذا شيءٌ أصيـل وابتكاري، فالمقدمة المتقنة والمميـزة صُرفت هباءً. لو أنها لم تُسـتخدم هكذا فقط. فأنا وبينما كنت أقرأ القسـم الأول وصلت إلى طريـق برلـين الجديدة، أنـا معجبٌ جـدا بالواقعية التـي فهمتها من معانيك. لو تسـتمع لنصيحتي وتأخذ تلـك المقدمة وتعيد موت البطل باختصـارٍ في روايةٍ منفصلةٍ تـدور حول حيوات أفراد تلـك العائلة،لو تأخـذ بنصيحتي هذه فإن الموسـيقى التي نسـمعها في القسـم الأول لن تنقطع فجأة. مجيئاً إلى القسـم الثاني، فذلك القسم ومن بدايته فهو جميلٌ كحكايـة كبـيرة وتجربتك المهمة هـذه كانت تلـزم الأدب التركي كثيراً. وأنت أتممت هذه التجربة بنجاح.

بعـد أن قُتل صباح الديـن في عام 1948 لم تُنشر أعماله لفترةٍ طويلة، بل إنهم قد حاولوا جعلها تنسـى، وفلم تُخرج أعماله من تحت الرماد وتنشر مجددا إلا في عام 1965.



مادونا صاحبة معطف الفرو

نحن أمام كتاب ينظر إليه الجميع بذهول. القرّاء، وعشاق الأدب وبالطبع كل دور النشر وباعة الكتب. "مادونا صاحبة معطف الفرو". رواية صباح الدين علي التي نشرها قبل سبعين عاماً، لماذا لا تنزل من أعلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً إلى الآن؟ لو أراد أحدٌ أن يقنعنا بأن تركيا ترد الجميل لصباح الدين علي فإن كلامه هذا باطل لأن المرتكب المجهول لجريمة قتله لم يُدن إلى الآن. وحتى لو قلنا بأن السبب هو أن حكايته (يوسف) مصنفةٌ ضمن أفضل مئة أثر أدبي كلاسيكي وتُدرس في المدارس، فإن ذلك أيضاً غير مقنع.
فهل من الممكن فهم سبب كون روايته (مادونا صاحبة معطف الفرو) محبوبة إلى تلك الدرجة؟

يقول أكثر من قراوا الكتاب بأنهم وجدوا موضوع الرواية مؤثراً جداً، وبأنهم بدأو في قراءته بناءً على توصيةٍ من أحد أصدقائهم، ولم يستطيعوا ترك الكتاب بعدها.
كون لغة الكتاب سهلةً وسلسة هو بالتأكيد أحد أكبر الأسباب التي تجعل القارئ يكمل القراءة، ولكني عندما أسأل "لماذا نحب هذا الكتاب؟" فإن كثيراً من الذين أسألهم يجيبونني بأنهم تأثروا جداً مما رُوي فيه، ويتنهدون وهم يخبرونني بأنه "للأسف لا توجدُ قصص حب مثل هذه في زماننا هذا" . وهذا نسجله كأحد الأسباب.

سافان غل سونماز


ISBN 978-9938-833-41-6
9 789938 833416 >

Cover Painting :
Black and Pearl by Jack Vettriano
Design by Mahdi Abdu


@darathar
#رواية_مادونا